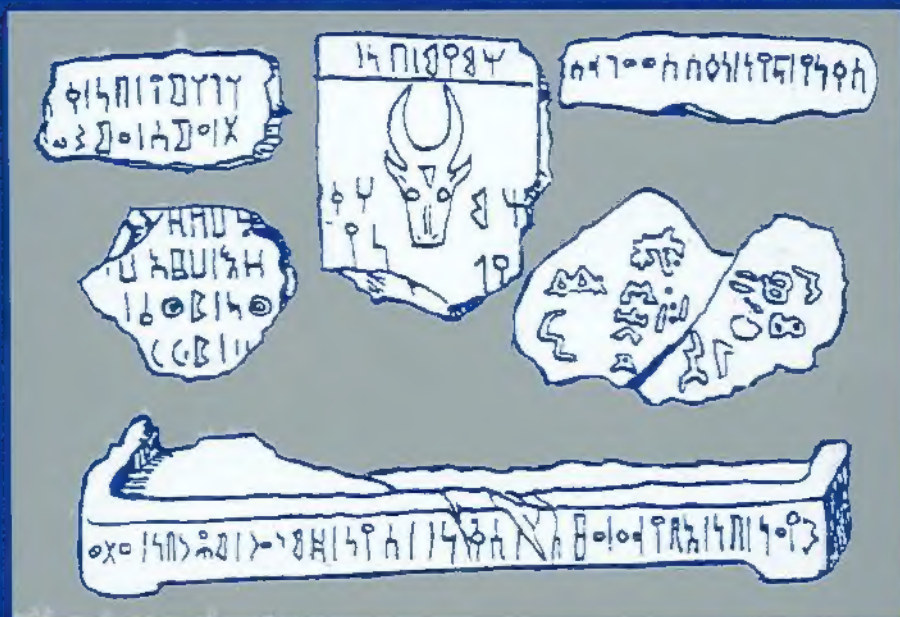
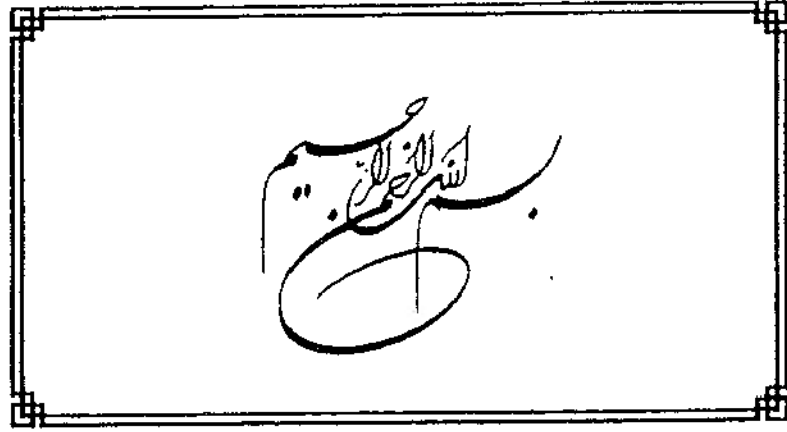


الدكتور: غازي مختار طليمات

في علم اللغتين





دار طلاس

للدراسات والترجمة والنشر



دمشق - أوتستراڊ المزة. ص.ب: ١٦٠٣٥

هاتف : ٦٦١٨٠١٣ - ٦٦١٨٩٦١

تلفاكس : ٦٦١٨٨٢٠ - برقية : طلاسدار

رئيس الدار

لجنة مدير الدار الأستاذ الدكتور في الجمهورية العربية السورية

ففي
علم
اللغة

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الثانية - ٢٠٠٠

الدكتور: غازي مختار طليمات

في
علم اللغة

بين يدي الكتاب

لا يدّعي هذا الكتاب أنه أضاف إلى القديم المعروف جديداً غير معروف ، لا يجده القارئ فيما صدر قبل من مؤلفات ، كتبها في (علم اللغة) كبار الباحثين من قدماء ومحدثين ، وعرب وأجانب . فمثل هذا الادعاء المتبجح ضرب من الغلوّ الأرعن ، يكشف غروره عن عواره .

وهو في الوقت نفسه لا يسمح للتواضع المسرف أن يبخسه حقه ، فيهوي به من التواضع إلى الضعة ، ولا ينكر على نفسه أنه حاول — وسيان أن يصيب وأن يخطئ فيما حاول — الإفادة من السابقين واللاحقين ، لعله يساور غامضة فيوضحها ، وشاردة فيقربها ، ويخرج من التوضيح والتقريب بجديد مفيد . وقد وقف في محاولته تلك من أعلام العلماء موقف الموفق المتلطف لا موقف الملقق المتكلف ، إذ مضى يوازن ويقارن ، ويحاذر ما استطاع أن يتسرّع بالحكم على العلماء لكيلا يُرمى بالتعصب للعرب على الأجانب . وأخذ على نفسه موثقاً أن يصغي إلى الخليل وسيبويه بالأذن التي يصغي بها إلى ولفنسون ودو سوسير ، وأن ينظر إلى ابن جني وابن فارس بالعين التي ينظر بها إلى بلومفيلد وتشومسكي ، مؤمناً بأن الصواب أحق بالأخذ كائناً من كان صاحبه ، وأن الخطأ أجدر بالنبد أياً كان الواقع فيه ، مخلصاً للعلم الذي تسمى باسمه وانتسب إليه .

ولما كانت الإحاطة بعلم اللغة الآخذ بالاتساع مطلباً عسير
المنال في كتاب تحاصره نفقة الطباعة ، ويقصّ جناحي مطامحه إيقاعُ
العصر السريع الزاهد في التطويل والتفصيل ، الكلف بالاقتصاد في
الجهد والوقت فقد أثر الكتاب الاصطفاء على الإحصاء ، فتخير من
المباحث التي يدرسها علم اللغة ما يعتقد أنه أوّل بالبحث من
سواه ، وأن ميدان البحث فيه يسع ما قدّم وما حدث ، ولا يضيق
بالجدال المفضي إلى ترجيح الأصحّ على الصحيح .
عالج الكتاب أربعة مباحث تُحِيل إليه أنها أولى بالمعالجة من
سواها :

أولها صلة علم اللغة بغيره من العلوم اللغوية والإنسانية .
وثانيها نشأة اللغة وتطورها وانقسامها إلى فصائل ، وخصّ
بالاهتمام فصيلة اللغات السامية ، لأنها الشجرة التي تفرعت منها
العربية .

وثالثها المناهج التي انتهجها الدارسون قدامائهم والمحدثون ،
وفي هذا الباب حاول الكتاب أن يضع مناهج العرب القديمة في
أمكنتها من المناهج القديمة والحديثة التي انتهجها الغربيون .
ورابعها الجوانب أو الموضوعات التي يدرسها علم اللغة
وأبرزها أربعة الجوانب التالية :

الجانب الصوتي ، وفيه عرض الكتاب دراسة العرب
للأصوات : أعضائها ومخارجها وصفاتها . وشفعها بالدراسة اللسانية
الحديثة : مصطلحاتها ونظرياتها وتحليلاتها .

والجانب الصرفي ، وفي هذا الجانب وضع الكتاب بين يدي
القارئ أبرز المصطلحات اللسانية الحديثة ، ثم انتقل إلى الصيغ
الصرفية ، فدرسها ، ودرس ما تحمله من معاني الجنس والعدد والتعيين
دراسة مقارنة . غير أنه سمح لنفسه أن يخالف عما درج عليه
اللسانيون في جعلهم الزمن مقولة صرفية ، إذ انتزع الزمن من
الصرف ، وألحقه بالنحو ، أو غرسه في الخط الفاصل بين حقلي

النحو والصرف لإيمانه بأنه آخذ من كل جانب بنصيب .
وفي الجانب النحوي أولى الكتاب طرائق اللسانيات في تحليل
المركبات الإسنادية اهتمامه الأول ، فعرضها وفق أبرز الاتجاهات
اللسانية : الاتجاه الوظيفي ، والاتجاه التوزيعي ، والاتجاه التحويلي .

وفي الجانب الرابع — وهو الجانب الدلالي — اتجهت الدراسة
إلى الكشف عن الصلة بين اللفظ والمعنى ، وإلى وضع الدلالة بين
الاشتقاق والسياق ، ثم إلى دراسة الظواهر الدلالية وفق النظريات
القديمة والنظريات الحديثة . فتتبعت عوامل التغير الدلالي وصوره تتبعاً
يدعم الرأي بالدليل ، ويشفع الحكم بالشاهد .

ولم ينس الكتاب في عرضه ما عرض أن يكون واسع الصدر
رحب الأفق شامل النظرة ، يقرن لغة العرب بلغات الأجانب . وخص
اللغتين الإنكليزية والعبرية بالقدر الأوفى من هذه المقارنة لشيوع
الأولى بين العرب ، وقربها من أذهانهم ، ولانتماء الثانية إلى فصيلة
اللغات السامية ، وهذا الانتماء وحده يجعل العبرية أجدر اللغات
السامية بالدرس المقارن ، لأنها من أشبه الساميات الباقية بالعربية في
المفردات والاشتقاق والصيغ والتراكيب .

وإذا كان التعصب للغة القومية حساً يخالط القلب فقد
حاول هذا الكتاب أن يتجرد من الهوى ، وأن يخلص للحق ، وأن
يجانب الأحكام الموروثة . فإن بلغ ما قصد إليه فالفضل فيه للمنهج
العلمي المتبع ، وإن وقع دون القصد فعذره أن الحب يعمي ويصم ،
وأن صاحب الكتاب قد يكون ، من حيث لا يدري ، مصاباً بما
أصيب به ابن جنى ، وهو الإعجاب بلغة العرب ، وتحول إعجابه إلى
دهشة مذهلة وصفها ابن جنى فقال : « إذا تأملت حال هذه اللغة
الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاق
والرقة ما يملك عليّ جانب الفكر » . فإن استطاع فكر هذا الكتاب ،
أن ينطلق من إसार العربية — وهذا ما يدّعيه — فالفضل للباحثين

المحدثين الذين وضعوا قدميه على المنهج العلمي فسار فيه . وإن بقي
أسير العربية فعذره العجز عن مغالبة الهيمنة التي تفرضها العربية على
عشاقها . لك عليه الإقرار والاعتذار ، وله منك النصح والتسديد .

ألهمنا الله السداد والرشاد في فهم اللغة وإفهامها ، وجنبنا
الخطل والزلل فيما نقول ونفعل ، وجعل أعمالنا وأقوالنا خالصةً
لوجهه .

د . غازي مختار طليمات

الباب الأول

علم اللغة بين العلوم

الفصل الأول

تعريف علم اللغة

أولاً — تمهيد

إن فهم كل علم من العلوم قديمها وحديثها مرهون بفهم المصطلحات الحاملة الناقلة لأفكاره . وأولى المصطلحات بالفهم والإفهام عنوانُ العلم الذي يُعدّ وعاء لما يتضمنه من موضوعات أو إطاراً لما فيه من أفكار . ولبوع هذا الفهم في ميدان علم اللغة يحسن بنا أن نحدد الدلالة أو الدلالات التي تحملها كل كلمة من هاتين الكلمتين : (علم) (اللغة) قبل الخوض في موضوعات هذا العلم أصولاً وفروعاً .

ولن يتأتى لنا هذا التحديد على نحو دقيق ما لم نَمِزُ علم اللغة ممّا يقاربه أو يواكبه من علوم أو دراسات . لها ارتباط باللغة على درجات متفاوتة ، لكنها ليست من هذا العلم . أو كان يُظن أنها منه ، ثم حكم التخصص الذي يقسم العلم علوماً حُكمه الصارم عليها ، فماز بعض الدراسات اللغوية من بعض . وهكذا تفرّد (علم اللغة) بمباحث لا يشركه فيها علم آخر .

وأبرز الدراسات التي يمكن أن تقارب علم اللغة أو تشوبه (فقه اللغة) . ثم النحو والصرف . وأقلّها مخالطة له الإملاء والخط . ولما كان فقه اللغة أقرب الدراسات اللغوية إلى علم اللغة ، وأكثرها مخالطة له . فإننا — في سبيل الوصول إلى تعريف دقيق لعلم اللغة — نكتفي ههنا بالحديث عن الفرق بين هذين العلمين ، ونبدأ بأقدمهما ، وهو فقه اللغة .

ثانياً — معنى فقه اللغة

« الفقه بالكسر : العلم بالشيء ، والفهم له ، والفتنة . وغلب على علم الدين

لشرفه»^(١). و «اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»^(٢). ومن الجمع بين القولين ندرك أن مصطلح (فقه اللغة) يعني أن ندرس الكلام دراسة عميقة ترمي إلى فهم اللغة فهماً دقيقاً.

ولت أن تقول: إن تفسير المصطلح على هذا النحو يفتقر إلى الدقة، أو إلى التحديد الجامع المانع. لأنه لا يخرج الصرف والنحو من إطاره. فالصرف يدرس أنية الكلم، والنحو يدرس علاقة بعضه ببعض، وكلاهما يرمي من دراسة اللغة إلى فهمها فهماً عميقاً. فلا بد إذن من منهج آخر أقدر من التفسير اللغوي على أفراد علم اللغة، وتخليصه من شقيقه الذي يعتلقه. وهو فقه اللغة. والمنهج الآخر هو أن نعود إلى مصطلح فقه اللغة، ونسأل مبتكره عما درس من اللغة تحت هذا العنوان منذ وضعه، ثم نتعقب تطور هذا العلم لنقف على مباحثه في العصر الحاضر، لننأى بها عن علم اللغة، ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً.

ثالثاً — موضوعات فقه اللغة

من الثابت أن أول كتاب حمل هذا المصطلح في عنوان مستقل هو (الصاحبي في فقه اللغة) لأحمد بن فارس اللغوي [ت: ٣٩٥ هـ]. ثم (سار الثعالبي على منوال ابن فارس، فسمي كتابه (فقه اللغة وسر العربية)، ثم حاز هذا الاصطلاح قبول علماء اللغة المحدثين، فأطلقوه على تأليفهم في مختلف ميادين علم اللغة. ويقابل هذا الاصطلاح العربي الاصطلاح الفرنسي «Philologie»^(٣).

ومن يستعرض الموضوعات التي عالجها ابن فارس في كتابه الصاحبي يجدها خديطاً من لغة ونحو وبلاغة. وأبرز موضوعاته اللغوية: نشأة اللغة، واختلاف اللغات، وأثر الإسلام في تطور اللغة العربية، والاحتجاج باللغة. ولت أن تستنبط من إقحام النحو والبلاغة في فقه اللغة أن ابن فارس نفسه — وهو مبتكر المصطلح — لم يكن واضح التصور لمباحث التي ينطوي عليها العلم الجديد. وليس في غموض التصور ما يضيره، لأن كل علم ولید يبدأ مضطرباً، ثم يكون علقه، ثم يتطور كما يتطور الكائن الحي، حتى يتمثل خفناً سوياً.

(١) لقموس المحققين فيروانادي | فقه |.

(٢) إحصائيات لاس حي ٣٣١ تح محمد علي السحر القاهرة ١٩٥٢ م.

(٣) مقدمة الصاحبي في فقه اللغة تح د. مصطفى الشومري ص ١٨. والثعالبي المذكور ههنا هو أبو منصور عبد المذنب بن محمد بن إسماعيل، صاحب نتيمة الدهر

ولم يتمثل فقه اللغة خلقاً سوياً إلا بعد ألف سنة من ظهور الصاحبى، حينما خصّه الدارسون المحدثون بموضوعات متميزة، وجعلوه عنواناً أو بعضاً من عنوانات كتبهم، ودرسوا في هذه الكتب^(٤) نشأة اللغة العربية، وصلتها باللغات السامية الأخرى، وأصواتها، وألفاظها، ودلالات الألفاظ، وخصائص العربية، ولهجاتها، وتعرّيبها للأعجمي الدخيل، وتطورها العصري المواكب لتطور الحضارة الحديثة، وما أثاره خصوم العربية من مشكلات تتصل بخطها وإملائها وتعليمها وقدرتها على تمثل الحضارة المتجددة باستمرار.

مما سبق يتبين لنا أن (فقه اللغة) علم عربي خالص، عربي النشأة والتطور، عربي المصطلح، عربي المباحث والباحثين، وأن مقصده الأول دراسة اللغة العربية خاصة، لا دراسة اللغات عامة. ومن يستعرض الدراسات الحديثة في فقه اللغة لا يجد فيها إلا شذرات قليلة من اللغات الأجنبية، ساقها الباحثون المحدثون على سبيل المقارنة المستأنسة، لا على سبيل البحث عن الفروق الجوهرية. واستقلال (فقه اللغة) بحوهره العربي غير مستغرب، لأن الدراسات الغربية في هذا الميدان تأخرت عدة قرون عن الدراسات العربية. فقد حددت الموسوعة النموذجية الحديثة زمن ظهور المصطلح الأجنبي Philology المقابل للمصطلح العربي فقه اللغة، فقالت: «في القرن الثامن عشر سُميت الدراسة العلمية للغة فيلولوجيا. وهذا الاسم مقتبس من اليونانية، ومعناه فيها: حبُّ الكلام»^(٥).

رابعاً — علم اللغة : معناه وسماته وأبعاده

أما مصطلح علم اللغة Linguistics — وتعريفه غاية هذا الفصل — فهو غربي النشأة. غربي البحوث والباحثين. عرفته دائرة المعارف البريطانية، وحددت زمان ظهوره. فقالت: «هو الدراسة العلمية للغة، وهذه الكلمة استعملت في أواسط القرن التاسع عشر»^(٦). وهذا التعريف نفسه ورد في الموسوعة الأمريكية^(٧)، حتى كأن إحدى الموسوعتين قبسته من الأخرى.

(٤) أوبر الكتب في هذا المصمار: ١ — فقه اللغة وخصائص العربية لأستاذ محمد الدرك ٢ — فقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وإي ٣ — فقه اللغة المقارن لإبراهيم السمرائي ٤ — قصور في فقه العربية للدكتور رمضان عبد الواب ٥ — دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح ٦ — وحيير في فقه اللغة لمحمد الأطاكي ٧ — فقه اللغة للدكتور حاتم الضامن ٨ — فقه اللغة العربية لمحمد الكبير البراري.

(٥) New Standard Encyclopedia Book 10 Page 467 Chicago.

(٦) Britannica book 23 page 40 Chicago.

(٧) Encyclopedia Americana book 17 page 525 Copyright 1991.

ولما كان علم اللغة Linguistics غريباً المنبت ، فإنه لا بدّ من الاعتماد في تعريفه وتفسير تعريفه على مبتكري هذا العلم وواضعي مصطلحه من الأجانب . غير أن التعريف الذي قبسناه من الموسوعات السابقة لا يفي بالغرض ، إذ يمكن تعميمه وتطبيقه على (فقه اللغة) . والدليل على هذا الإمكان أن الموسوعة النموذجية الحديثة نفسها عرّفت فقه اللغة ، ثم قالت : « وفي القرن العشرين سميت هذه الدراسة نفسها Linguistics »^(٨) ، ف وقعت في اللبس ، وأوقعتنا فيه ، إذ جعلت علم اللغة استمراراً لفقه اللغة .

وحاول العالم اللغوي لومل Lommel إزالة اللبس ، ولكنه لم يبلغ الغاية ، إذ ألحق علم اللغة بفقه اللغة ، وجعله أداة علمية من أدواته ، وفرعاً مستقلاً من فروع ، فقال : « إن علم اللغة من أهم الوسائل المساعدة للدراسات الفيلولوجية من جانب ، ومن جانب آخر فإنه علم قائم بذاته ، له وظيفة معينة ، وطرق وميادين معروفة . ولا يستغني علم اللغة عن الفيلولوجيا ، لأن أهم مصادره هي النصوص اللغوية ، والعلاقة وثيقة بين العلمين إلى درجة أن الاستعمال الشائع للكلمتين لا يكاد يفرق بينهما »^(٩) .

لكن هذه المحاولة لم تزل اللبس كله ، إذ أبقت علم اللغة متصلاً بفقه اللغة بعض الاتصال ، كما يتصل الجين برحم أمه ليمتصّ منها نسغ الحياة . وفصلته عنه بعض الفصل ، إذ جعلته علماً قائماً بذاته ، متميزاً بسماته وقسماته ، كما يتميز الوليد من والدته بملاح تحديد شخصيته ، وتنزعه من شرك العناصر الوراثية التي تشده إلى أمه .

ولإزالة هذا المقدار من اللبس اضطلع باحثون آخرون بالتبعة ، ورأوا أن الفصل بين فقه اللغة وعلم اللغة يكمن في التحديد الدقيق لمعنى (علم) الذي يتسمّى به الفرع الجديد من فروع الدراسات اللغوية ، ثم في التحديد الأدق للمباحث التي تخصص بدرسها هذا الفرع . إن التمييز بينهما منوط بالمعنى الدقيق لكلمة (علم) ، أيراد بها الدلالة المعرفية النظرية العامة أم الدلالة التجريبية الخاصة ؟

من ذهب بكلمة (علم) إلى التعميم أي : أراد بها ما يُراد من دراسة المسائل والقواعد والأصول الكلية التي يجمعها إطار معرفي واحد كعلم المنطق ، وعلم الصرف ، وعلم الفلك فهو مضطر إلى أن يجعل علم اللغة قريباً في طبيعته وموضوعاته ومنهجه من فقه اللغة .

ومن ذهب بالكلمة إلى التخصص ، فاقترّب بعلم اللغة من العلوم التجريبية المتخصصة كعلم الحيوان ، وعلم النبات ، وعلم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم

New Standard Encyclopedia book 10 page 461 Chicago.

(٨)

(٩) فصول في فقه العربية د . رمضان عبد التواب ص ١٠ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٠ م .

الفيزياء كان عليه قبل حشره علم اللغة في زمرة العلوم Sciences أن يخطو بعلم اللغة خطوتين :
خطوة متفهمرة ، تخلص علم اللغة مما يشوبه من المفاهيم المجردة العامة ، وتخرج
الدراسات اللغوية من حيز الفلسفة .

وخطوة متقدمة ، تدخل هذه الدراسات في ميدان الملاحظة والتجربة .
وبعد أن يخطو هاتين الخطوتين يشفع مذهبه بالأدلة الكافية ، وبالوسائل العلمية
المخبرية في البحث على نحو يشبه أو يقارب ما نلقاه في ميدان العلوم التجريبية . فهل خطأ علم
اللغة هاتين الخطوتين ؟

لقد خطأ علم اللغة الخطوة الأولى ، إذ تراجع عن الخوض في المسائل الغيبية كالحديث
عن الأصل التوقيفي للغة ، ثم بدأ يخطو الخطوة الثانية بإيثارة البحوث الحسية ، وباستخدامه
الأدوات التي يستخدمها علماء الفيزياء ، فأدخل المخابر والأجهزة الالكترونية المعقدة في
دراسة الأصوات ، كما استعان بالوسائل والأدوات التي يستخدمها علماء التشريح
والفسيولوجيا في دراسة أعضاء النطق عند الإنسان من الشفتين والأسنان إلى اللسان
فالحنجرة ، وراح يقسم على ضوئها لغات البشر إلى فصائل ، ويقسم البشر أنفسهم إلى
مجموعات على أساس لغوي . وشرع يفسر الظواهر اللغوية تفسيراً حسيّاً مستنداً إلى
الملاحظة والاستقراء ، وممعناً في الاستقصاء والإحصاء ، وبدأ يضع القوانين التي تلخص هذه
الملاحظات المحسوسة الملموسة غير متأثر بالآراء الموروثة .

وإذا كان فقه اللغة يدرس الفصحى القديمة المحفوظة في المعجمات ، وكتب الأدب
ودواوين الشعر ، والفصحى الحديثة المتداولة في الجامعات والصحف ، ويرتفع عن دراسة
اللهجات العامية فإن الاتجاه العلمي الذي التزمه علم اللغة يحمله على دراسة اللغات في
واقعها المعيش إلى جانب دراستها في ماضيها المنقول إلينا ، سواء أكنّا نأخذ بهذا الماضي أم
ننبذه .

نستنبط من ذلك كله أن علم اللغة يدرس اللغة في إطارها العامي والفصيح ، ولهذا
يتوفر على دراسة اللهجات العامية مندفعاً إليها بروح البحث المجرد من المعايير القديمة ، وغير
المجرد من النفع . ومن هذا القبيل القول المنسوب إلى عباس محمود العقاد : « من أغراض
المجمع اللغوي دراسة اللهجات العامية في مصر وسائر الأقطار العربية . ونحسب أنه من أنفع
أغراض المجمع في خدمة اللغة الفصحى »^(١٠) .

(١٠) علم اللغة وفقه اللغة للدكتور عبد العزيز مطر ص ١٩ قطر ١٩٨٥ م . نقلاً عن مجلة مجمع اللغة العربية
١٠٧/١٠ . ولناقشة هذا الرأي انظر بحثنا (دراسة اللهجات العامية جاهلية ترتدي رداء العلم) المنشور في
مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمي . العدد الخامس ص ١٨٩ وما بعدها .

وأدق من قول العقاد وأبعد عن الشبهة قول الدكتور رمضان عبد التواب الذي اقتبسه من دو سوسير : « موضوع علم اللغة هو كل النشاط اللغوي للإنسان في الماضي والحاضر . ويستوي في هذا الإنسان البدائي والمتحضر ، واللغات الحية والميتة ، والقديمة والحديثة ، دون اعتبار لصحة أو لحن ، وجودة أو رداءة »^(١١) .

نخلص مما عرضنا إلى أن علم اللغة يتميز بسمات تجعله علماً متخصصاً ، أو أقرب إلى العلم المتخصص من فقه اللغة . وأبرز هذه السمات : طريقته الاستقرائية الحسية في دراسة اللغة دراسة وصفية حية لواقعها المعيش ، واستنباطه القواعد والقوانين من ملاحظاته الاستقرائية الإحصائية ، واعتماده — وخاصة في دراسة الأصوات — على الآلات والأجهزة الحديثة .

وإذا كان لك أن تلخص ذلك كله بتعريف مقبول ، يتجاوز الإيجاز الخلل الذي وجدته فيما نقلنا من الموسوعات الأجنبية ، ويرسم لعلم اللغة حدّه وحدوده ، ويقفك على موضوعاته وغاياته فقل : « علم اللغة هو العلم الذي يدرس اللغة أو اللهجة دراسة موضوعية ، غرضها الكشف عن خصائصها ، وعن القوانين اللغوية التي تسير عليها ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والاشتقاقية والكشف عن العلاقات التي تربط هذه الظواهر بعضها ببعض ، وتربطها بالظواهر النفسية ، وبالمجتمع وبالبيئة الجغرافية »^(١٢) .

وقبل أن نتقبل هذا التعريف تقبلنا للحقائق العلمية الثابتة يحسن بنا أن نشير إلى أنه تعريف مرحلي لانتهائي ، وإلى أن صحته نسبية لا مطلقة ، لأنه يلخص حقيقة من سلسلة لم تكتمل ، أو يمثل مرحلة من دراسات لغوية لم تزل مستمرة . « ومع هذا السيل الذي لا ينقطع من البحوث لم يصل علماء اللغة إلى حدود متفق عليها ، حدود فاصلة لموضوعه ، أو تعريفات قاطعة لمصطلحاته »^(١٣) . غير أننا مضطرون إلى الأخذ بالتعريف الذي تخيرناه ، لنضع على أقل تقدير إحدى القدمين على أرض ثابتة قبل أن نخطو بالقدم الأخرى خطوة أخرى في طريق البحث .

(١١) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي للدكتور رمضان عبد التواب ص ٧ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٥ م .

(١٢) علم اللغة وفقه اللغة ١٨ — ١٩ .

(١٣) مدخل إلى علم اللغة للدكتور محمد حسن عبد العزيز ص ٢٣ جامعة القاهرة ١٩٨٣ م .

وبعدُ

فإذا كان التعريف القريب من الدقة يجعل علم اللغة مقيداً بقيود تخصصه ، محدّداً بحدود تمنع العلوم الأخرى من مشاركته فيما تفرّد به من بحوث ، فهل يعني هذا التعريف أن علم اللغة متفرد منعزل ، لا صلة له بغيره من العلوم . سواء أكانت لغوية أم غير لغوية ؟ تفسير هذا السؤال والإجابة عنه موضوع الفصل التالي .

علم اللغة والعلوم الأخرى

قصد الفصل السابق من تعريفه (علم اللغة) إلى تمييز هذا العلم الحديث من العلوم اللغوية القديمة، ووجه القدر الأكبر من اهتمامه إلى تمييزه من أخيه الشقيق (فقه اللغة). ويقصد هذا الفصل إلى وصله بعلوم أخرى غير لغوية تؤثر فيه، أو تتأثر به. قال دو سوسير: «إن علم اللغة يرتبط بقوة بالعلوم الأخرى، يستعير من معطياتها أحياناً، كما يزودها بالمعطيات أحياناً أخرى»^(١). وليس بين مقصدي هذا الفصل والفصل السابق من تناقض، فأنت تميز شجرة البرتقال من شجرة الليمون، وكلتاهما من أسرة واحدة، وتحصر في الوقت نفسه على أن تعرف ما يؤثر في شجرة البرتقال من تربة ورطوبة وحرارة تعمل عملها في تغذيتها وتنميتها حتى تزدهر، وتؤتي أكلها. إن العلوم التي تؤثر في علم اللغة أو تقارضه التأثير كثيرة، أبرزها: علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم وظائف الأعضاء (الфизиولوجيا)، وعلم الطبيعة (الفيزياء)، والمعارف الجغرافية المتصلة بتوزع اللغات في بقاع الأرض.

أولاً — علم اللغة وعلم الاجتماع

يلتقي الباحثون القدماء والمحدثون الحريصون على ربط علم اللغة بعلم الاجتماع في ملتقى واحد، وهو الاعتقاد القاطع بأن اللغة ظاهرة اجتماعية لافردية. «إن وجود اللغة

(١) فصول في علم اللغة لفردينان دو سوسير ص ٢٦ ترجمة د. أحمد نعيم الكراعين. دار المعارف الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥ م.

يشترط وجود مجتمع ، وهنا يتضح الطابع الاجتماعي للغة ، فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلاً عن جماعة إنسانية تستخدمه ، وتعامل به »^(٢) .

ويحسن بنا قبل الخوض في الحديث عن صلة اللغة بالمجتمع ، أو عن علاقة علم اللغة بعلم الاجتماع أن نضع بين يدي البحث تعريف علم اللغة الاجتماعي كما صاغه المتخصصون . عرفه د . هدرسون ، فقال : « إنه دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع »^(٣) . ومع أن الغربيين لم يبرعوا في هذه الدراسات إلا منذ أمد قريب ، فإن علماء العرب تركوا لنا في هذا المضمار تراثاً قيماً ، يدل على سبقهم من ناحية ، وعلى سعة أفقهم في الدراسات اللغوية من ناحية أخرى .

وإذا كان أبو الفتح عثمان بن جني [ت : ٣٩٢ هـ] قد قال : « إن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »^(٤) فإنه بهذا التعريف الوجيز أجمل قبل ألف سنة ما فصله علماء الغرب في العصر الحديث ، إذ كشف بكلمتين اثنتين القناع عن الوجه الاجتماعي للغة ، فالقوم المجتمع ، والأغراض أفكار المجتمع ومشاعره . وفحوى كلامه أن اللغة ظاهرة اجتماعية لا ظاهرة فردية ، لأن الإنسان لا يستخدمها ليترجم أفكاره ومشاعره لنفسه ، بل لمن حوله من بني جنسه ، أي للمجتمع .

ولم يضيف فندريس جديداً إلى تليد حينما قال : « في أحضان المجتمع تكونت اللغة ، ووجدت يوم أحسّ الناس بالحاجة إلى التفاهم »^(٥) . ولم يزد (ماريوباي) على كلمة أبي الفتح إلا لفظة (علم) وشيئاً من البسط والتמיד لما تقبّض وتكثف في عبارة ابن جني . قال ماريوباي : « إن اللغة لها علاقة وثيقة بعلم الإنسان وعلم الاجتماع باعتبارها نتاج علاقة اجتماعية »^(٦) . ورأى جان بياجيه « أن اللغة مؤسسة اجتماعية تحكمها نوااميس مفروضة على الأفراد »^(٧) . وربما كان دركهاميم أسبق الباحثين الغربيين إلى هذا المذهب ، وعنه أخذ اللاحقون ، لكنهم أسرفوا فيما اعتدل فيه ، ومنهم دو سويسر السويسري الأصل .

ولم يخالف عدد من الباحثين المحدثين من العرب عن هذا الاتجاه الاجتماعي في دراسة

(٢) مدخل إلى علم اللغة د . محمود فهمي حجازي ص ١٢ القاهرة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

(٣) علم اللغة الاجتماعي للدكتور هدرسون ص ١٢ ترجمة د . محمود عياد . عالم الكتب القاهرة ١٩٩٠ م .

(٤) الخصائص لابن جني ٣٣/١ .

(٥) اللغة لفندريس ص ٣٥ .

(٦) أسس علم اللغة لماريوباي ص ٤٢ ترجمة د . أحمد مختار عمر . جامعة طرابلس ١٩٧٣ م .

(٧) اللسانيات وأسسها المعرفية للدكتور عبد السلام المسدي ص ١٦١ الدار التونسية للنشر ١٩٨٦ م .

اللغة ، بل اختاروه ، وجمعوا في دراستهم بين اللغة وعلوم الاجتماع ، « فدلّ اختيارهم على إدراك أن اللغة وتلك العلوم تتشارك في إظهار العلاقات الشخصية والثقافية والاجتماعية »^(٨) .

ولما كان كل علم جديد في حاجة إلى تحديد ، فقد خشي الباحثون العرب — وهم يخوضون غمار هذا العلم — أن يقحموا فيه ما ليس منه ، ولذلك حرصوا على تعريفه ليضعوا له حدّه ، وليرسّموا حوله حدوده . قال الدكتور كمال بشر : « وليس المقصود بهذا العلم أنه (تركيبة) أو (توليفة) من علم اللغة وعلم الاجتماع ، أو أنه مزج لهما ، أو تجميع لقضائيهما ومسائلهما ، إنه يعني باختصار شديد ذلك العلم الذي يدرس اللغة في علاقاتها بالمجتمع . إنه ينتظم كل جوانب بنية اللغة ، وطرائق استعمالها التي ترتبط بوظائفها الاجتماعية والثقافية »^(٩) .

وسواء أأسرف أصحاب علم اللغة الاجتماعي من الأجانب والعرب في ربط هذا العلم بالمجتمع أم اعتدلوا فهم جميعاً متفقون على دراسة هذا الارتباط . « ويسوّغ ظهور هذه الدراسة أن المشكلات اللغوية والاجتماعية مترابطة ترابطاً وثيقاً ، حتى إن علم اللغة ذاته قد اعتبر أحياناً من العلوم الاجتماعية »^(١٠) .

ومن ينظر في هذا الفرع من الدراسة يجده متوازناً ، لأن جانباً منه غلب المجتمع على اللغة ، وجانباً آخر غلب اللغة على المجتمع ، فنجم التوازن ، وخرج الباحثون المختلفون بشمرة واحدة ، هي أن اللغة والمجتمع يتقارضان التأثير والتأثير تقارضاً جدلياً .

فالذين غلبوا اللغة على المجتمع وجدوا أن اللغة تعمل عملها في تنشئة الطفل وتربيته وفق المفاهيم التي تحتزنها ، ثم تتابع تأثيرها فيه بلا توقّف إلى أن يبلغ أشدّه ورشدّه . « فالرمز أي اللغة هو الذي يحوّل الطفل إلى كائن بشري مكتمل »^(١١) . وعلة ذلك أن الرموز اللغوية التي يستخدمها الطفل ليست أصواتاً مجردة من المشاعر والمعاني والقيم ، وإنما هي خزائن المعاني والمشاعر والقيم . « إن أنواع السلوك البشري كافة تتكون من استخدام الرموز ، أو تعتمد على أنواع من الرموز ، فالسلوك البشري سلوك رمزي ، والسلوك الرمزي سلوك بشري »^(١٢) .

(٨) اللغة والمجتمع للدكتور أحمد ماهر البكري ص ٨ الإسكندرية ١٩٨٤ م .

(٩) علم اللغة الاجتماعي للدكتور كمال محمد بشر ص ٤١ دار غريب للطباعة والنشر القاهرة ١٩٩٥ م .

(١٠) مدخل إلى علم اللغة للدكتور محمد حسن عبد العزيز ص ٩٠ .

(١١) مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة تأليف رالف بيلز ، وهاري هويجر ص ١٦٦ ترجمة د . محمد الجوهري ، ود .

محمد الحسيني . دار النهضة مصر ١٩٧٦ م .

(١٢) المصدر السابق ص ١٦٦ .

فنحن — العرب — نقبس من دراستنا اللغة العربية كثيراً من المُثل والأخلاق الكريمة، وتناثر بالفضائل الموروثة، فنلتزمها، وننفر من الرذائل التي نفر منها الأوائل، فنتجنبها. وإذا كان المجتمع الذي نعيشه يمدّنا بالمفاهيم السائدة طوال حيواتنا القصيرة فإن اللغة قد لخصت برموزها مفاهيم حيوات طويلة جداً تفوق أعمارنا لأن عمرها عمر التاريخ العربي والإسلامي كله. وانصباعاً لسلطان اللغة «فالبشر لا يتعلمون عن طريق الخبرة المباشرة والملاحظة والتقليد فقط، وإنما يتعلمون كذلك من خلال أساليب السلوك التي تعلموها، وتنقلها اللغة إلى كل جيل جديد»^(١٣).

وذهب بعض الدارسين إلى أن سلطان اللغة الذي لا يُقاوم قادر على أن يحدد نظرنا إلى الحياة، ويرسم طريقنا فيها، ورأوا أن الإنسان ليس حراً فيما يأخذ وينبذ، ويناصر وينافر. وإنما هو عبد طيع في يد اللغة التي تعرفه الواقع، وتحدّد موقفه من المشكلات الاجتماعية المحيطة به من كل جانب. قال سابير Sapir: «اللغة دليل للواقع الاجتماعي. وبالرغم من أن اللغة لا يُعتقد أنها ذات أهمية ضرورية لدراسة العلوم الاجتماعية، فإنها هي التي تحدّد لنا كل تفكيرنا في المشكلات الاجتماعية»^(١٤).

وفي وجه هذا التيار المنتصر للغة وقف تيار آخر ينتصر للمجتمع، ويعده صاحب الفضل الأكبر عليها، لأنه مصدرها الأوّل. ولما كان «اللسان جملة من القواعد التي تواضع عليها المجتمع بكل أفراد»^(١٥) فإن الإنسان المالك لزمام اللسان، أي: المجتمع المتصرف بأمور اللغة قادر على أن يوجّهها الوجهة التي يتخيّرّها. «فنشأ لذلك فرع من العلوم الاجتماعية يُسمى (علم الاجتماع اللغوي)، يحاول الكشف عن العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية، ويبين أثر تلك الحياة الاجتماعية في الظواهر اللغوية المختلفة»^(١٦). ومن الدارسين من سمّى هذا العلم «علم اللغة الاجتماعي»^(١٧)، وحدّد إطاره أو موضوعه، فقال: «إنه دراسة الصلة بين اللغة والمجتمع»^(١٨).

(١٣) المصدر السابق ص ١٦٧.

(١٤) اللغة والمجتمع، ثريا عبد الله ص ٢٥ دار المعارف.

(١٥) اللسانيات وأسسها المعرفية. د. عبد السلام المسدي ص ١٠٠.

(١٦) المدخل إلى علم اللغة. د. رمضان عبد التواب ص ١٢٥.

(١٧) Grolier International Encyclopedia book 12 page 358 U. S. A. 1994.

(١٨) المصدر السابق. الصفحة نفسها.

ومن ينقّر عن تأثير المجتمع في اللغة يقف على أشياء كثيرة: أبرزها أن مستوى التطور الاجتماعي يرسم مستوى التطور اللغوي. فالمجتمع البدائي لم يَرَقْ تصوُّره للمعاني من الجزئي إلى الكلّي، ولهذا جاءت لغته مجزأة في التعبير عن الكليات. إن المجتمع البدائي «قد توجد لديه كلمات خاصة للدلالة على المعاني الجزئية كغسل نفسه، وغسل شخص آخر، وغسل رأس شخص آخر، وغسل وجهه، وغسل وجه شخص آخر... في حين أنه لا توجد لديه كلمة واحدة للدلالة على العملية البسيطة، وهي مجرد الغسل»^(١٩).

ومن الظواهر التي لاحظها الباحثون في ميدان علم الاجتماع اللغوي طغيان الحسّ على التجريد في لغات المجتمعات البدائية. إن تجريد المعاني العامة من المحسوسات الخاصة مرحلة متأخرة الظهور، لا تبدى إلا حينما تُصيب المجتمعات خطأ من التحضر، ولهذا تجد «اللغة في المجتمع البدائي كثيرة المفردات فيما يتعلق بالأشياء المحسوسة»^(٢٠)، قليلة المفردات في المجردات، خالية من الألفاظ الشديدة التجريد كالعقل والغريزة والأمل والمنطق.

ومن ظواهره أيضاً قلة الألفاظ بصورة عامة، حتى إن بعض اللغات لا تزيد مفرداتها على ثلاثمائة كلمة^(٢١). ولذلك اقترنت هذه اللغات بفيض من الإشارات، ترافق النطق، وتساعد على التواصل، حتى إن أبناء بعض القبائل الهندية كقبيلة (أرباهو) كانوا عاجزين عن التفاهم في الظلام^(٢٢).

ولما كانت اللغة مرآة للحياة الاجتماعية فإن اللغة تعدّ من أصدق الوسائل وأدقها في الكشف عن طبيعة المجتمعات وسماتها الحضارية. فاللغة العربية في العصر الجاهلي نقلت إلينا سمات المجتمع الجاهلي وخصائصه البدوية. إن مفرداتها «تشير إلى الحياة البدوية وما يتصل بها من مظاهر الطبيعة، وحيوان الصحراء، ومظاهر السلوك التي تناسب هذه الحياة. فلا عجب أن تجد فيها مئات الألفاظ بل آلافها التي تتحدث عن الإبل»^(٢٣). وحينما تحضر البداة حفلت اللغة العربية بألفاظ تصوّر حياة الترف والسرف، إمّا بتطوّر الألفاظ القديمة، وإمّا بتبني مئات الكلمات الدخيلة المعربة.

(١٩) دور الكلمة في اللغة. ستيفان أولمان ص ١١٦ ترجمة د. كمال بشر القاهرة ١٩٦٢ م.

(٢٠) المدخل إلى علم اللغة د. رمضان عبد التواب ص ١٢٩.

(٢١) قصة الحصار لـ لو ديورانت ١٢٣، ١ ترجمة د. ركي حبيب محمود. جامعة الدول العربية ودار الجليل بيروت ١٩٧١ م.

(٢٢) المصدر السابق ١٢٤/١.

(٢٣) مدخل إلى علم اللغة د. محمد حسن عبد العزيز ص ٩٤.

وذهب علم الاجتماع اللغوي إلى أن اعتزال فئة حرفية من فئات المجتمع أو طبقة اجتماعية من طبقاته يصنع لها لغة خاصة بها، لها مفرداتها ودلالاتها الخاصة. قال فندريس « كان عندنا حتى بداية القرن التاسع عشر هيئة منظمة حقاً للأشقياء، وكانت لها لغتها الخاصة المتفق عليها، والتي كان يعمل كل عضو من أعضاء الهيئة على المحافظة عليها »^(٢٤).

ولم يغفل الباحثون في علم الاجتماع اللغوي عن تأثير البناء الخلقي في البناء اللغوي، بل رصدوا تسرب الغرائز إلى اللسان، وضربوا أخلاق المجتمع على محك اللغة، فتبين لهم أن تعهر المجتمع وسقوطه في الفواحش ينشران القحة والبذأة في لغته، وأن سموه بالغرائز، وحفاظه على نقاء الأعراض يطهران كلامه من الرفث والخبث. « فاللغة اللاتينية لا تستحي أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة. على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل، وأدناها إلى الحشمة والأدب في التعبير عن هذه الشؤون، فتدجأ إلى المجاز في اللفظ، وتستبدل الكناية بصريح القول، « واهجروهن في المضاجع »^(٢٥) « أو لامستم النساء »^(٢٦) أو « فاعتزلوا النساء في المحيض »^(٢٧) «^(٢٨).

ولك أن تعدّ اللهجات العامية المنحدرة من لغتنا الفصحى شكلاً من أشكال التأثير الاجتماعي في اللغة. وهذا التأثير خلف في الأقطار العربية لغتين أو طريقتين من طرائق التعبير: لغة المثقفين الفصيحة التي صانها القرآن الكريم، واتخذها الأدب والعمم وسيئة للتعبير الفكري الراقى، ولغة السوق العامة التي تشيع في الحياة اليومية، وتختلف من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم في القطر العربي الواحد^(٢٩).

وللمجتمع سلطان يفرضه على اللغة وعلى الفرد، ويتبين لك جبروت هذا السلطان إذا أصغيت إلى السخر الذي يقابل به من يخالف أسلوب المجتمع في الكلام. فما خرج على طرائق التعبير المألوفة خارج إلا استنكر القوم خروجه، حتى يردّوه إلى ما ألفوا. وكان هذا السلطان سور يحوط اللغة ويصونها من التغير، وإذا حدث فيها بعض التغير لم يكن الجديد من صنع فرد، بل من صنع الجماعة. ولهذا تقرر في عمم اللغة الاجتماعي « أن تغير آلية اللغة يمكن

(٢٤) اللغة لفندريس ص ٣١٦ ترجمة عبد الحميد الدواحي، و د. محمد القصاص القاهرة ١٩٥٠ م.

(٢٥) النساء ٣٤.

(٢٦) النساء ٤٣.

(٢٧) البقرة ٢٢٢.

(٢٨) اللغة والمجتمع لدكتور علي عبد الواحد وإي ص ١٣ دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٤٦ م.

(٢٩) مدخل إلى عمم اللغة د. محمد حسن عبد العزيز ص ٩١.

فهمه من خلال دراسة القوى الاجتماعية التي تستعمل اللغة بصور مختلفة» (٣٠).
وأُسرف بعض العلماء الذين نَحَوْا في دراسة اللغة نَحْواً اجتماعياً محضاً، حتى أفضى بهم الإسراف إلى الإجحاف، وإلى الحيف على العلوم الأخرى، وعلى اللغة نفسها. إن إيمانهم المطلق بأن اللغة ظاهرة اجتماعية حملهم على أن يعدّوها عادة من عادات السلوك. وكادوا، في غمرة التعصب لعلم الاجتماع، أن يسقطوا من دراستهم اللغوية دلالات الألفاظ، وارتباط هذه الدلالات بالعقل. «لقد كان العالم اللغوي سكينر SKINNER من أشهر العلماء اللغويين في عصره، وكان يعمل في جامعة هارفارد، وله كتاب بعنوان (السلوك اللغوي). ومما يؤخذ على أصحاب هذا الاتجاه إهمالهم لدراسة المعنى، فقد نظر سكينر إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية، تستحق الدراسة والعناية، مثلها في ذلك مثل أية عادة سلوكية» (٣١).

ولا بدّ قبل الفراغ من الحديث عن علم اللغة الاجتماعي من الإشارة إلى أمرين:
أولهما أن هذا العلم وليد لَمَّا يَبْغ أشدّه، ولَمَّا يَعْرِفُه أربابه تعريفاً يوضح حدوده، ويميزه بسمات تفرده، ولهذا عرض له ما يعرض لغيره من العلوم الناشئة، فخالطه مصطلح آخر، وهو (علم الاجتماع اللغوي، أو علم اجتماع اللغة) The Sociology of Language. وهذا المصطلح يجعل الاجتماع أصلاً واللغة فرعاً، ولَمَّا كان علم اللغة الاجتماعي يجعل اللغة هي الأصل، فهو أثر لدينا وأوّل عندنا بالتقديم.

وثانيهما أنه ظهرت علوم لغوية فرعية أخرى، قد تلامس علم اللغة الاجتماعي أو تلابسه، أبرزها علم اللغة الأنثروبولوجي Anthropological Linguistics وعلم اللغة الإثنولوجي Ethnolinguistics، وكلاهما موصول بالنسب بالإنسان وبالدراسات الإنسانية اللغوية. «الأول يدرس كيف يمكن لظواهر اللغوية أن تكشف عن هوية الفرد، أو أن تنسبه إلى عضوية دائرة اجتماعية، أو جماعة دينية، أو وظيفية، أو قرابة معينة، كما تكشف عن ثقافته بطبيعة الحال» (٣٢). والثاني «يعنى بدراسة اللغة في علاقتها بالبحوث الخاصة بأنماط السلالات البشرية، وأنماط سلوكها» (٣٣). وتستطيع أن تعرّفه بقولك: «هو علم اللغة العرقي، أو علم لغة السلالات» (٣٤).

Funk and Wagnalls Encyclopedia book 16 page 147.

(٣٠)

(٣١) المسار الحديد في علم اللغة العام د. وليد محمد مراد ص ١٠٨ دمشق ١٩٨٦ م.

(٣٢) علم اللغة الاجتماعي (لمدخل) د. كمال محمد بشر ص ٤٤ دار عرب للطباعة والنشر والتوزيع، لقاهاه ١٩٩٥ م.

(٣٣) المصدر السابق ص ٤٤.

(٣٤) المصدر السابق ص ٤٤.

ولا يُفهمَنَّ من هذه المصطلحات أنها عنوانات لعلوم اتضحت معالمها، ورُسمت الحدود الدقيقة لها، أو أنه غدا لكل علم منها بحوثه التي استقلَّ بها، فلم يشركه فيها قسيمه، وإنما هي علوم متداخلة متكاملة تتردد بين قطبين: اللغة والإنسان، اللغة بمفهومها العام غير المقتصر على أمة واحدة، أو شعب معين، أو قبيلة معروفة. والإنسان بوصفه مخلوقاً اجتماعياً، يتكلم لغة من اللغات، وينتمي إلى شعب من الشعوب، ويصطبغ بصبغة ثقافية معينة، ويدين بدين من الأديان. وهذه العلوم ترمي إلى دراسته في هذه الميادين كلها تحت مظلة واسعة، عمودها اللغة، وأسلاكها هي هذه العلوم المستحدثة.

نخلص مما عرضنا إلى أن علم اللغة الاجتماعي أصبح من العلوم البارزة في ميدان الدرس اللغوي. ولا يؤخذ عليه إلا غلوُّ نفر من أصحابه في فرض آرائهم، وفي تحليلهم كلَّ طارئ يطرأ على اللغة، أو بدعة تُبتدع فيها بعزل اجتماعية خالصة. قال الدكتور علي عبد الواحد وافي: «يتبين لنا فساد ما يذهب إليه بعض المتطرفين من علماء الاجتماع كالعلامة السويسري دو سوسير De Saussure ومن نحا نحوه، إذ يقررون أن جميع المؤثرات في حياة اللغة ترجع إلى أمور اجتماعية» (٣٥).

ثانياً — علم اللغة وعلم النفس

من العلوم الموصولة بالنسب بعلم اللغة علم النفس. وإذا عمّمت دلالة (النفس) فعنيت بها الفكر والشعور جميعاً أدركت أن الصلة بين علمي اللغة والنفس ليست صلة مجازية، يُراد بها تقارب العلمين أو تجاورهما أو التقاؤهما في ميدان الدراسات الإنسانية. وإنما هي صلة نسب وانتماء. ولسوف يتبين لك أن الفكر أنجب اللغة، وأن علم اللغة أنجب علم النفس اللغوي، فكلاهما إذن والدٌ للآخر وولد. ولهذا يحقُّ لك أن تحمل انتساب أحدهما إلى الآخر على محمل الحقيقة لا المجاز.

والدليل على زعمنا أن الموسوعة الدولية ذكرت علم اللغة النفسي Psycholinguistics بين العلوم المتفرعة من علم اللغة Linguistics، وحددت موضوعه، فقالت: «إنه يدرس العلاقة بين اللغة والعقل» (٣٦). وجعله جيمس ديز James Deese عنواناً لكتاب مستقل، هو: Psycholinguistics درس فيه تلك العلاقة دراسة موسعة معمقة، وقال في مقدمته:

(٣٥) اللغة واجتماع د. علي عبد الواحد وافي ص ١٣٧.

« أصبح علم النفس اللغوي في السنوات القليلة الماضية قسماً بارزاً من علم النفس الحديث »^(٣٧). وقال أيضاً: « إن موضوع اللغة يجب أن يتعلق بنوع المقدرة الإنسانية العقلية. ووفق هذا المعنى تُعدُّ اللغة موضوعاً نفسياً »^(٣٨).

ولإبراز المكانة التي تبوأها علم النفس اللغوي في ميدان الدراسة اللغوية الحديثة ذهب أرباب هذا العلم إلى نوع من التحليل الدقيق أفضى بهم إلى التمييز بين أفقين من آفاق الفكر، تنطوي عليهما اللغة: أفق محلي قومي، وأفق إنساني عام.

في الأفق الأول يقرر علم النفس اللغوي أن ألفاظ كل لغة من اللغات تتضمن محتوياً فكرياً خاصاً موسوماً بسمات تحدّد شخصية اللغة، وشخصية الأمة الناطقة بها، وهذا المحتوى يظلّ ملكاً خاصاً للناطقين بها^(٣٩).

وفي الأفق الإنساني العام تجد في كلّ لغة عناصر تتشابه فيها اللغات، وهذه العناصر تتضمن الفكر المطلق غير المصطبغ بالصبغة القومية أو المحلية. وهذا المحتوى الإنساني لا يتأثر بطبيعة اللغة أو بسماتها، بل يلتقي بما يضارعه في اللغات الأخرى^(٤٠).

وإذا كان علم الاجتماع اللغوي قد بالغ في تعليل الظواهر اللغوية بعزل اجتماعية، فإن علم النفس لم يبرأ من المبالغة، إذ ذهب أربابه إلى أن المتكلم يقحم مشاعره في كلامه كلّ أو جلّه، لأن « الإنسان لا يستخدم اللغة للتعبير عن شيء فحسب، بل للتعبير عن نفسه أيضاً »^(٤١). وهم لا يريدون بما ذهبوا إليه التعبير الأدبي وحده، بل يوسّعون ما يعنون، ويدخلون فيه المحاورات والأحاديث اليومية المتعلقة بتكاليف الحياة وشؤونها، « لأن الإنسان كما يتكلم ليصوغ أفكاره، فإنه يتكلم ليؤثر في غيره من الناس »^(٤٢). ولا يستثنون من ذلك غير « التفكير العلمي واللغة العلمية التي يجب أن تكون معبرة عن الفكرة المحضة والحقيقة المجردة الخالية من الانفعالات النفسية »^(٤٣).

Psycholinguistics James Dees page III.

(٣٧)

(٣٨) المصدر السابق page 35.

(٣٩) انظر اللسان والإنسان للدكتور حسن ظاظا ص ٧٠ دار المعارف القاهرة ١٩٧١ م.

(٤٠) المصدر السابق ص ٧٠ وما بعدها.

(٤١) هذا الرأي للباحث الألماني فون درغاملنتس. انظر علم اللغة والنفس الإنسانية للدكتور رمضان عبد التواب ص ١٣٧.

(٤٢) المصدر السابق ص ١٤٠.

(٤٣) المصدر السابق ص ١٤٠.

ومن هذه الثغرة ينفذون « إلى دراسة العلاقة بين نفسيات الشعوب المختلفة ولغاتها »^(٤٤). ويقولون: « عندما ندرس بنية اللغة في شعب ما فإننا ندرس صور وطرائق تفكيره. وعندما ندرس مفرداتها فإننا نكتشف نماذج مميزاته »^(٤٥). وهم — على تعلّقهم بهذه الآراء — يعدّون القيام بدراساتها وممارستها حقاً من حقوق علم النفس التربوي.

ولست في حاجة إلى أدلة عقلية، تساق بين يديك لتدرك مبلغ الترابط بين النفس والإنسان، بين الكلام والعقل، أي: بين الأصوات المنبثقة من الفم المتجهة إلى الأذن من ناحية، والفكرة المسافرة مع هذه الأصوات من مخ المتكلم إلى مخ السامع من ناحية أخرى.

وهبك أغلقت أذنك عما يقال حولك، وأدرت في نفسك فكرة خفية. لا يطّلع عليها إلا علام الغيوب، فإنك في هذه الحالة تقوم بعمليات معقدة، ينطقها عقدك بصوت غير مسموع. فإذا بحث بما يدور في خلدك تحولت الفكرة إلى لغة مسموعة أو مكتوبة. « فالفكر حديث باطني، والحديث تفكير بصوت عال »^(٤٦). وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول ما قاله واطسن: « إن الفكر ليس شيئاً أكثر من الكلام الذي بقي وراء الصوت »^(٤٧).

ثم هبك مكثت ساكناً قانناً لا تتكلم، ولا تُعَدُّ في خلدك كلاماً تريد أن تبوح به، بل تصغي إلى من يحدثك إصغاء التلميذ المؤدّب، وتتلقى ما يليقه محدثك في مسمعك تلقّي الجاهل الناهل من المعرفة، أفتظن أن الكلام الذي صنعه غيرك، ثم نفحك به يعفيك من العمل العقلي أو من التمرس النفسي باللغة؟

الحق أن سلسلة من العمليات اللغوية الصامتة المعقدة — شئت أم أبيت — تدور في نفسك، وتعمل عملها في أفكارك ومشاعرك. فأنت تحلّل الكلام المسموع وتركبه، وتربط ما فيه من دلالات بمعلومات قديمة يخترنها ذهنك، أو تستنبط أشياء لم يقلها المتكلم، أو تني على كلامه نتائج وأحكاماً لم تخطر لقلائله قط. ولهذا قرر علماء النفس اللغوي « أن فهم الكلمات وما يتعلق بها من حيث تكوينها ومما عُمِّها مرتبط بسلسلة من العمليات العقلية »^(٤٨)، كما قرروا « أن الفكر يصنع اللغة في الوقت الذي تصنعه فيه اللغة »^(٤٩). فكيف تصنع اللغة

(٤٤) المصدر السابق ص ١٤٦.

(٤٥) العلاقة بين اللغة والفكر د. أحمد عبد الرحمن حماد ص ٢٢ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥ م.

(٤٦) في فلسفة اللغة د. كمال يوسف الحاح ص ٢٤ دار النهار بيروت ١٩٦٧ م.

(٤٧) العلاقة بين اللغة والفكر د. أحمد عبد الرحمن حماد ص ٢١.

(٤٨) علم اللغة د. محمود السعران ص ٧٢ دار النهضة العربية بيروت.

(٤٩) الفلسفة، محمود عباس نور الدين ص ٦٤ دار الفكر دمشق. والقول مسوب إلى الفيلسوف الفرنسي دولاكروا.

الفكر ؟ وممّ تصنعه ؟

تصنع اللغة الفكر من الدلالات والمعاني والمفاهيم التي تحتجزها رموزها اللفظية . فمعرفة المعروف أن الألفاظ رموز للمعاني ، أو أوعية تصب فيها الأفكار والنظريات ، وترصّ فيها الثقافات ، ومن المعروف كذلك « أن البشر لا يتعلمون عن طريق الخبرة المباشرة والملاحظة والتقليد فقط ، وإنما يتعلمون كذلك من خلال الخبرة التي تتراكم في صورة رمزية لغوية غالباً »^(٥٠) . وليس من المستبعد أن ينتقل البشر أو أدكيائهم على الأقل من مرحلة التعلم والاتباع إلى مرحلة الصنع والابتداع ، ولا سيّما في نطاق العلوم الإنسانية ، وبذلك تصنع اللغة الفكر ، أو تغدو وسيلة من وسائل صنعه .

وههنا يحدث الصراع بين اللغة والفكر ، وبين علم اللغة وعلم النفس على الفوز بقصب السبق ، فأيهما السابق ؟ وأيُّهما اللاحق ؟

يرجح العلماء أن الفكر أسبق من اللغة ، فهو الوالد ، وهي المولودة ، ويسوقون لإثبات هذا الترجيح حججاً أبرزها اثنتان :

أولاهما أن الإنسان ، كما قرر أرسطو ، حيوان ناطق ، أي : عاقل مفكر ، فاللسان لا ينطق إلّا بأوامر تصدر إليه من الدماغ للتعبير عن فكرة متصورة في النفس ، فإذا عثر اللسان في ترجمة الفكرة أو أبطأ فتعثّر أو بطّؤه دليل على أنه لمّا يتهدّد إلى العبارة القادرة على مسايرة الفكرة ، وبرهان « من الناحية المبدئية على أن التفكير سابق على اللغة »^(٥١) .

والحجة الثانية أن الفكرة الواحدة يمكن الإفصاح عنها بألسنة متعددة ، أي : « أن استعمالنا لأكثر من لغة واحدة للتعبير عن المعنى الواحد يكشف لنا عن أسبقية الأفكار بالنسبة إلى الوسائل اللغوية التي نعبر بها عنها »^(٥٢) .

وإذا وافقنا علماء النفس ، وحكمنا لهم بأنهم الظافرون بقصب السبق ، وسلّمنا جدلاً بأن الفكر أسبق من اللغة في الظهور ، فإننا لا نستطيع أن نستفتي علم النفس في كل شأن من شؤون اللغة ، ولا أن نحكمه في كل مشكلة من مشكلاتها ، ثم لا نقبل بأن نجعل ارتباط اللغة بالفكر حجة لغمط العلوم الأخرى أو ذريعة لبخسها حقّها في أن يكون لها من تفسير اللغة والمشاركة في دراستها نصيب . « إن علم اللغة يستعين بحقائق توصلت إليها علوم ودراسات أُخرى ، ولكن ليس معنى هذا أن تُتخذ منهاجُ علم النفس ووسائله منهاج له ووسائل ، كما أنه

(٥٠) مقدمة في الأثرولوجيا العامة ص ١٦٧ .

(٥١) العلاقة بين اللغة والفكر ص ١٩ .

(٥٢) المصدر السابق ص ١٩ .

لا تتخذ مناهج علم آخر ووسائله» (٥٣).

وإذا كان بعض الباحثين قد أقرّ بحاجة علم اللغة إلى علم النفس ، فإن بعضهم قد أقرّ وحدّد ، وذكر الجوانب التي يفزع فيها اللغويون إلى علماء النفس يستفتونهم فيها ، فقال : « إن بحوث علم اللغة متصلة ببحوث علم النفس ، فكثير من المسائل التي يعرض لها يتوقف شرحها وفهمها وبيان أصولها وأسبابها على الرجوع إلى ما يرتبط بها من الظواهر النفسية ، وإلى ما يقوله علم النفس في صدها : فتكوين المتكلم لعباراته وفق أفكاره ، وإدراك السامع الحديث وفهمه ، وصوغ العبارات وتدوينها كتابة ، وفهم القارئ لنقوش الكتابة ، وكسب الطفل للغة ، وأداء اللغة لوظائفها الدلالية » (٥٤) هذه الموضوعات كلها وموضوعات أخرى تتصل بها تحتاج حينما يتناولها اللغوي بالبحث إلى ما يقوله فيها عالم النفس .

ثالثاً — علم اللغة وعلم الطبيعة

ذكرنا قبل أن علم اللغة الحديث أخذ يخرج خطوة إثر خطوة من إसार العلوم النظرية كالفلسفة والمنطق . ونذكر الآن أن هذا الخروج نجم عن إحساس الباحثين بعجز العلل والمقاييس العقلية المجردة عن الوفاء بما تتطلبه العلوم اللغوية الحديثة . « فالمنطق لا يمكن من تفسير كثير من الظواهر اللغوية ، أو قد يفسرها بطريق التعنت والتعسف ، وسبيل التأويل والتعقيد . أو قد يؤدي إلى الاستغراق في الجدال في مسائل لا طائل من ورائها ، أو من وراء الجدال فيها » (٥٥) . ولهذا حاول علم اللغة أن يقترب خطوة إثر خطوة من العلوم التجريبية كالتشريح والفلسفة وعلم الطبيعة .

وفي بداية الحديث عن هذه المحاولة يحسن بنا ألا نُمّتي أنفسنا بكثير من المكاسب والمنجزات ، وأن نشير إلى أن « مادة اللغة لا تخضع لما تخضع له تلك العلوم من التجربة العملية » (٥٦) لعبة معروفة . وهي أن اللغة تتألف من كلمات ذوات دلالات ، يؤلف منها الإنسان جُملاً وتراكيب ، يصبُّ فيها أفكاره ومشاعره ، ولا تتألف من جُسُوم ذوات أجرام وحجوم ، تجري فيها المباحث ، وتخضع للقياس ، وتقدر بالموازن والمكاييل ، وتصلح للاختبار

(٥٣) علم اللغة د . محمود السعران ص ٧٢ .

(٥٤) علم اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص ٣١ در نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ١٩٨٤ .

(٥٥) علم اللغة د . محمود السعران ص ٧٤ .

(٥٦) المصدر السابق ص ١٢ .

والتجريب لتستنبط منها قوانين مطردة، لا يتخلف منها شيء، ولا يشمس عليها شذوذ. ومع ذلك، فإن علم الطبيعة (الفيزياء) استطاع أن يُقرض علم اللغة أبعاضاً من أساليبه وتجاريه، وآلات مبتكرة من أدواته وأجهزته، استفاد منها اللغويون وأفادوا. والمسوّغ الذي سوّغ علم اللغة أن يقترض من علم الفيزياء — على ما بينهما من اختلاف في المادة والوسائل والمناهج — هو أن في الفيزياء فرعاً يدرس الأصوات، سواءً أصدرت عن الإنسان والحيوان أم صدرت عن المزامير والطنابير، لأن لكل صوت مهماً يَجْمَلُ أو يقبح، ومهماً يعلّ أو يخفّت اهتزازاً يقبل القياس، وخصائص يمكن أن تُحدد. « ويتم تحديد الأصوات بعدد الذبذبات التي تحدّدها صورها »^(٥٧). وهنا يلتقي العلمان: علم اللغة وعلم الفيزياء التقاء محصوراً في فرع واحد من علم اللغة، هو دراسة الصوت.

ولكيلا يتبادر للذهن أن تأثير الفيزياء في الدرس اللغوي لم يكن إلا ترفاً فنياً لا جدوى منه رأينا أن نحصر كلامنا في أمرين اثنين، يبرز فيهما هذا التأثير واضحاً غاية الوضوح: أولهما الآلات المستعملة. وثانيهما النتائج التي أفضى إليها هذا التأثير. استعمل علم اللغة مجموعة من الأجهزة الفيزيائية، أشهرها أربعة، وهي: السقف الصناعي، والكاشف، والمدوّن، والمسجّل.

أما السقف الصناعي فآلة حدباء تشبه سقف الحلق، تُطلى بطبقة من الحَكْك أو ما يشبهه، وتوضع في الفم. فإذا نطق الناطق بحرف ضرب اللسان سقف الحلق، فآثر في الحَكْك، وحدّد مخرج الحرف. ومتى انحرف الحرف عن مخرجه، ولم تستطع الأذن أن تدرك انحرافه أدركته « الأجهزة احداً مثل السبكتروغراف، أو مسجّل تردّد الموجات الصوتية »^(٥٨).

وأما الكاشف فآلة أخرى توضع على العضو الناطق أو المشارك في النطق، أو المتأثر به، أو المؤثر فيه. وهو طيّع لّين الحركة، فمتى تكلم المتكلم المشدود إليه نقل الكاشف الحركة أو الحركات نقلاً أميناً، فكشف عن حواص الصوت المنطوق.

ومن الكاشف تنتقل الحركة أو الحركات إلى المدوّن. والمدوّن آلة تشبه القلم، وتتصل بالكاشف اتصالاً مرناً، يتيح لها أن تتحرك حركات تعدل الحركات الصادرة عن العضو الناطق أو المتأثر بالنطق، فيحمل الكاشف هذه الحركات إلى المدوّن ليدوّنها على شكل خطوط تختلف أطوالها وأشكالها باختلاف الأصوات المنطوقة. وهي شبيهة من حيث المبدأ

(٥٧) اللغة، مديرس ص ٤٤

(٥٨) أسس علم اللغة، ماريوباي ص ٤٥.

والغاية بالآلة التي تدوّن أنباض المريض ، وتحولها إلى خطوط تكشف عن أحوال الشرايين والأوردة والقلب .

والمدوّن مرتبط بالمسجل ، والمسجل أسطوانة دوّارة حول محورها ، وهي تدور دون المدوّن لكي تتيح له أن يدوّن عليها الخطوط التي تترجم الأصوات المسموعة إلى أشكال مرئية . ولا نستبعد أن يكون العلم السريع التطور قد صنع آلات أدق من هذه الآلات ، وأقدر على رصد حركات لم ترصد من قبل ، وقياس أصوات ونبرات أعيا قياسها الآلات الأربع التي وصفناها .

تلك هي الآلات التي أهداها علم الفيزياء إلى علم اللغة .
أما النتائج التي أسفر عنها استعمال هذه الآلات فقد قيل في إطرائها والتنويه بها :
« أحدث علم الأصوات الفيزيائي ثورة هائلة في الدرس الصوتي ، وذلك بتقديمه وسائل جديدة لدراسة الأصوات ووصفها »^(٥٩) . وحُدّدت نتائج هذه الثورة الهائلة بثلاثة أمور :
أولها الكشف عن حقائق صوتية ، لم يستطع علماء اللغة أن يكتشفوها قبل ظهور هذه الآلات ، واقتحامها ميدان البحث اللغوي الصوتي .

وثانيها تعديل المناهج المتبعة في الدراسات اللغوية الصوتية ، نجم عنه تعديل ملحوظ في الآراء القديمة ، وتغيير للانطباعات التي كان يحملها علماء الصوتيات .
والثالث تأكيد بعض الحقائق الموروثة عن السلف ، وتأييد كثير مما وصلوا إليه بالطرق التقليدية من نتائج^(٦٠) .

وإقراراً بالحق ، ومن باب عزو الفضل إلى ذويه يحسن بنا ههنا أن ننوه بالبحوث الصوتية المخبرية التي اضطلع بها أستاذنا الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ، وعرض فيها على محك هذه الآلات ما جاء في كتب علمائنا الأقدمين ، ولا سيّما ما رواه سيبويه عن شيخه الخليل بن أحمد في مخارج الحروف وصفاتها ، فتبين له أن كثيراً من آرائهم بلغت من الحصافة ، وأن غرائزهم أوتيت من الرهافة ما جعل نتائجهم تقارب النتائج التي توصلت إليها الآلات^(٦١) .

وليس الأثر الذي أحدثه عدم الطبيعة في علم اللغة مقصوراً على استخدام الآلات في

(٥٩) علم اللغة العام ، د . كمال ستر ص ٢٠ القاهرة ١٩٧٠ م .

(٦٠) المصدر السابق ص ٢٠ وما بعدها .

(٦١) من محاضرات غير منشورة ألقاها الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح على طلاب الدراسات العليا جامعة

دمشق ١٩٧٤ م

دراسة الأصوات، وعلى ما نجم عن هذا الاستخدام من حقائق، بل تجاوز أثره الحقائق إلى الطرائق، إذ اصطبغت مناهج الدرس اللغوي الحديث بصبغة علمية تجريبية، سيكون للحديث عنها موضع آخر.

رابعاً — علم اللغة وعلم وظائف الأعضاء

لا يغلو من يزعم أن علم وظائف الأعضاء ألصق العلوم غير الإنسانية بعلم اللغة، وأنه من أكثر العلوم تأثيراً في دراسة الأصوات. وكان حقه أن يدرس قبل أن يدرس علم الطبيعة، غير أن منهجه التجريبي ساوى بين العلمين، «لأن علم الأصوات الفسيولوجي، وعلم الأصوات الفيزيائي يستعنان — كل في مجاله — بالأجهزة العلمية الحديثة من الكترونية أو غيرها، ويتبعان أحدث وسائل التجربة المعملية في وصف الأصوات وتحليلها إلى الحد الذي دفع علماء اللغة المحدثين إلى تخصيص فرع من فروع علم الأصوات، يسمى علم الأصوات التجريبي»^(٦٢).

إذا أقررنا أرسطو على تعريفه الإنسان بأنه حيوان ناطق^(٦٣)، ووافقنا على أنه قدم في تعريفه الألف على اللازم، والأخطر على الخطير قلنا: إن الحيوانية مقدمة على النطق، وإن حفظ الحياة أولى من اللغو. ويتفرع من قولنا هذا أن أعضاء النطق الممتدة من الشفتين إلى الرئتين مخلوقة للاضطلاع بوظائف حيوية مقدمة على وظائفها اللغوية، فمضغ الطعام بالأسنان واللسان مقدم على صنع الكلام في حياة الإنسان، واستنشاق الريح لحفظ الروح ألزم من زفرها لتحريك الوترين الصائتين في أعلى الحنجرة.

ولو كانت أجهزة النطق مخلوقة لصنع الأصوات أولاً، ومضغ الأقوات ثانياً، أو لو كان النطق والمضغ متلازمين لنطق الأبيكم والحيوان الأعجم، أو لخدمت الحياة في صدور الناس حينما تصيبهم آفة من آفات النطق كالعي والحصر والفأفة والخرس. «فالنطق في الواقع ليس أكثر من وظيفة ثانوية تؤديها هذه الأعضاء إلى جانب قيامها بوظائفها الرئيسية»^(٦٤).

فمن الشطط المقارب للغلط أن تنعت الأشياء بأقل النعوت دلالة على حقائقها، وأن توصف الأعضاء بأضعف الصفات تحديداً لوظائفها، فتسمى الأعضاء التي عملها الأول

(٦٢) علم اللغة وفقه اللغة د. عبد العزيز مصر ص ٣٨.

(٦٣) المطلق الصوري تاريخه ومسائله ونقده لدكتور رفقي راھر ٨٥١١ دار المطبوعات الدولية القاهرة ١٩٨٠ م.

(٦٤) أصوات اللغة د. عبد الرحمن أيوب ص ٤٠.

القضيم والخضيم ، والقطع والبلع وتنقية الدم باسم (جهاز النطق) . وأجزاء هذا الجهاز من الداخل إلى الخارج : الرئتان وما حولهما من عضلات الصدر ، وما تحتهما من عضلات البطن ، فالقصبه الهوائية المتوجة بالحنجرة ذات الوترين الصوتيين ، فالخلق أقصاه وأوسطه وسقفه ، وما يتصل به من تجويف يخترق منخري الأنف ، فالأسنان مع اللثة والمغارس ، فالشفقتان . وأهم من هذه الأعضاء كلها تلك المضغعة الحمراء الدوارة الموّارة التي تسمى اللسان . ولما كان اللسان أهم الأعضاء الناطقة فقد سميت اللغة كلها باسمه ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ (٦٥) .

ومع أن الخالق — جلّت قدرته — منح الحيوان ما يعدل هذه الأعضاء الناطقة ، فإن الحيوان لم يؤت من الذكاء والدربة ما يتيح له أن يستخدم أعضاءه تلك استخداماً يعينه على النطق . « إنه قد يستخدم نقطة ما من هذا الجهاز الصوتي ، فيخرج صوتاً واحداً متشابهاً ، أو صوتين متواليين دائماً » (٦٦) ، ولكن الأصوات الحيوانية لا ترقى إلى أفق النطق الإنساني المبين .

ولا يذهبن بك الظن إلى أن البشر سواء في التمرس بالنطق أو في القدرة على الإبانة ، أو في براعة الاستخدام للأجهزة الناطقة . فالشعوب السامية أقدر من الشعوب الهندية الأوروبية على توليد الأصوات وتنويعها . والعرب أقدر الشعوب السامية وأمهرها في النطق وفي الاستكثار من الأصوات . وتتميز « الحروف العربية بتوزعها في أوسع مدرج صوتي عرفته اللغات » (٦٧) . وأدّل ما يدلّك على هذه السعة امتداد المدرج الصوتي العربي من الشفتين إلى أقصى الخلق ، وغزارة الأحرف الحلقية التي تعيا الشعوب الهندية الأوروبية بنطقها ، لأنها « لم تستخدم كل إمكانات النطق في إخراج الأصوات من الخلق » (٦٨) .

ولا يرجع هذا العي إلى ضعف في البنية العضوية ، فالأسنة والشفاه والحناجر والخلق سواء في المقدرة والتكوين والبراعة في أداء الوظائف ، إذ لم يثبت عدم التشريح وعلم الفسيولوجيا وعلم اللغة الفسيولوجي « وجود أي من الاختلافات العرقية الخاصة بين

(٦٥) السجل ١٠٣

(٦٦) المدخل إلى علم اللغة د . رمضان عبد التواب ص ٢٣ مكتبة الخاخي القاهرة ١٩٨٥ م .

(٦٧) فقه اللغة وحصائص العربية ، محمد المبارك ص ٢٤٩ . بيروت دار الفكر .

(٦٨) المدخل إلى علم اللغة د . رمضان عبد التواب ص ٢٩ .

البشر» (٦٩)، بل أثبت «أن كل شخص قادر على التنطق بأي شيء دونما صعوبة» (٧٠)، على أن يتم ذلك في فترة الطفولة التي تتميز فيها أعضاء النطق بالمرونة والاستعداد الفطري للمحاكاة.

تؤكد هذه العلوم كلها أن الطفل «يمكنه، شريطة أن يكون لديه حافز كاف، أن يصل إلى درجة من الإتقان السهل في نطق أية لغة يمكن أن يتصل بها. ولكن عندما نكبر، ونحاول أن نتعلم لغة أجنبية يجب أن نعمل كثيراً من أجل تحقيق مستوى من الأداء مماثل لما يصل إليه الطفل» (٧١). فما السن التي يفقد فيها الطفل مرونة التقيد والقدرة على المحاكاة؟

لقد أثبتت الملاحظة والتجربة أن هذه السن هي بداية المراهقة، فيها تنتهي الطفولة، وينتهي معها اقتدار العلام على المحاكاة العفوية للكلام الأجنبي العريب الأصوات. يقول ابركرومبي: «من الواضح أن هذه البراعة تتخلّى عن معظم الناس في وقت لا يبعد كثيراً عن دخولهم سنوات المراهقة. ومن المؤكد أن من يبلغ أشده يجب أن يكون على استعداد لأن يخصص قدراً كبيراً من الجهد والوقت لاكتساب نطق لغة أجنبية» (٧٢).

إن محاكاة الطفل للأصوات اللغوية ميدان واحد من ميادين كثيرة، يتجلى فيها علم اللغة الفسيولوجي. ومن أبرز الميادين التي يبرز فيها عمل هذا العلم الدرس الوصفي المفصل لما تقوم به أعضاء النطق الكثيرة من استنشاق وزفر، وضغط وحبس، وضرب واهتزاز لتحقيق هذا الإنجاز الذي نسميه الكلام. ومن الخطأ أن نتوهم الكلام ثمرة تعاون بين أجهزة النطق وحدها، لأن الاضطلاع بالنطق عمل معقد يحتاج إلى جهد، يشترك في أدائه نصف الجسد البشري، والملاحظة الدقيقة تفكك على هذه الحقيقة.

تستطيع أن تتصور أعضاء النطق آلة عازفة معقدة من آلات النفخ، أسفلها جعبة أو قرية ذات جوفين متجاورين لاجتذاب الهواء ودفعه. وكلّ جوف منهما يتصل بقصبة صغيرة، ثم تجتمع القصبتان الصغيرتان في قصبة واحدة كبيرة، تشبه الباي، ورأس الناي الأعلى صندوق صوتي، تُوجت فتحته العليا بوترين، يهتزان عند العزف، فيتلاصقان أو يتباعدان، أو يتوقفان عن الاهتزاز. وهما يفضيان إلى صندوق آخر أكبر من الأول، وأعقد تركيباً، وهذا

(٦٩) ماديء علم الأصوات، ديفيد ابركرومبي ص ٣٥ ترجمة د. محمد فتوح القاهرة ١٩٨٨ م.

(٧٠) المصدر السابق ٣٦.

(٧١) المصدر السابق ٣٦.

(٧٢) المصدر السابق ص ٣٦.

الصندوق هو الجوف المفضي إلى الفضاء الخارجي عن طريقين يستطيع العازف أن يفتح أو يغلق أحدهما وفق حاجته إلى حبس الهواء أو إطلاقه .

الجعبة ذات الجوفين هي الرئتان ، والناي القصبة الهوائية ، والصندوق الصوتي الصغير حَنَجْرَة المتكلم ، والصندوق الكبير فمه بما ينطوي فيه وعليه من حلق وأسنان ولسان . والطريقان اللذان يتعاورهما الفتح والإغلاق هما الأنف والفم .

متى همَّ الناطق بالنطق انطلقت الأوامر من عضو خفي في الرأس ، هو الفصّ الأيسر من المخ إلى أعضاء النطق^(٧٣) ، فصدعت بالأمر ، وتأهّبت للقيام بالحركات المطلوبة على النحو التالي :

تتمدد عضلات البطن والصدر ، فتمتلئ الرئتان هواء ، ثم تتقلّص هذه العضلات تقلصات متعاقبة ، فيندفع الهواء من شعبيات الرئتين إلى القصبة ، ومنها إلى الحنجرة . فإن كان الصوت المنطوق مهموساً مرّ الهواء من بين الوترين رخيئاً ، فلم يحركهما . وإن كان مجهوراً هزهما في أثناء عبوره من الحنجرة إلى الفم . وفي الفم يتحرك اللسان الحركة المناسبة . فيرتفع أو ينخفض ، ويلتصق بسقف الحلق ، أو ينخفض ، أو يتقعر ، أو يضرب بعض الأسنان ، أو يلامس مغرساً من مغارسها ، ثم يندفع الهواء حاملاً معه إلى الفضاء الخارجي ما أحدث من صوت ، فتتلقاه آذان السامعين .

ولا يكتفي علم اللغة الفسيولوجي بجعل الأذن عضواً من أعضاء النطق ، بل يضيف إليها العين . يقول ابركرومبي : « رغم أن الأذن ليست جزءاً من الآلية المنتجة للكلام فمن الواجب وضعها ضمن أعضاء النطق . فالكلام يبقى بلا فائدة كبيرة ما لم يُستقبل كما يُنتج . وعضو الاستقبال الرئيسي هو الأذن . والعين عضو ثانوي ، لأن مشاهدة الناس حينما يتحدثون تسهم بلا شك في فهمهم . وتصبح العين بالطبع العضو الرئيسي لاستقبال الكلام ، بل العضو الأوحد ، لاريب ، بالنسبة للصم الذين يقرؤون الشفاه »^(٧٤) .

وعلماء اللغة ليسوا سواء في تحديد أعضاء النطق : فمنهم من يوسّع إطارها ، فيدخل فيها الصدر وأعلى البطن والعين والأذن على النحو الذي فعله ابركرومبي . ومنهم من يضيق إطارها ، ويجعلها موزعة على قوس تعدل نصف دائرة ، أولها الشفتان وآخرها الحنجرة ، وتتألف من أربعة عشر قسماً أو جزءاً لافظاً ، وهي : الشفتان ، والأسنان ، ومنبت الأسنان ، والعار ،

(٧٣) Merk Manual Harison page 1055 Edition 11 . وانظر تفصيل عمية النطق تشريحياً ونسبياً في كتاب عم

البعه النفسي بدكتور عبد الحيد سيد أحمد منصور ص ٨٣ — ٩١ الرياض ١٩٨٢ م .

(٧٤) مادي ، علم الأصوات ديفيد ابركرومبي ص ٣٨ .

والطبّق، والطبّق اللّتين، والدولق (رأس اللسان)، وظهر اللسان، والحلق، والوتران الصوتيان، والقصبه الهوائية، واللهاة، والمرى، والحنجرة^(٧٥).

مما عرضنا يتبين لنا مدى الاتصال بين علم وظائف الأعضاء وعلم اللغة. فالعلمان يلتقيان في ملتقى واحد، إذ يدرس الأول آلية النطق بدراسته وظائف الأعضاء الناطقة، ويدرس الثاني اللغة التي تصنعها هذه الأعضاء الناطقة.

خامساً — علم اللغة والتاريخ

اللغة كائن حيّ، يعرض له ما يعرض لكل مخلوق من البشر والحيوان والنبات. تعرف اللغة أعراض القوة والضعف، وبصيّها التغير والتطور، وتمرّ بمراحل من الانبعاث والاندثار، ولذلك تتصل دراستها بدراسة التاريخ. «إن علم اللغة — شأن سواه من العلوم الاجتماعية — علم تاريخي على نحو ما. فاللغة التي هي موضوعه لا غنى في دراسة تطورها وصلتها بالمجتمعات، وفي دراسة انقسامها إلى لهجات، ودراسة ظهور اللغات العامية، لا غنى في دراسة ذلك كله وسواه عن الاستعانة بمعلومات من التاريخ»^(٧٦).

وإذا انتقلت من التعميم إلى التخصيص، أي: من دراسة اللغات عامة إلى دراسة العربية خاصة، ثم من دراسة العربية كاملة إلى دراسة جوانب جزئية من ألفاظها أصواتاً وصيغاً ودلالات وجدت نفسك أمام الحقيقة نفسها، حقيقة الارتباط بين الدرس اللغوي والجدور التاريخية للغة. «إن دراسة التغير الصوتي في العربية تُعدّ دراسةً صوتية تاريخية، ودراسة صيغ الجموع العربية بتتبع توزيعها، ونسبة شيوعها في المستويات اللغوية المختلفة عن الفروق موضوعٌ من موضوعات علم الصرف التاريخي»^(٧٧).

ويتضح لك الارتباط نفسه اتضاحاً جلياً في ميدان الدلالات، إذ يقفك تطور دلالات الألفاظ على حقيقة أخرى تشبه الأولى، وهي أن طائفة كبيرة من الألفاظ تحاول المعجمات ترسيخ معانيها، وحماية دلالاتها من الانزلاق والتبدل، لكنها تمرد على سلطان المعجم، وتتحرك ذات اليمين وذات الشمال، وتكتسب في حركاتها دلالات جديدة، وهكذا «تعد دراسة التغير الدلالي. وما يرتبط بها من إعداد المعاجم التاريخية من أهم مجالات علم

(٧٥) مدخل إلى الألسنية. بول فاير. كريستيان نايلون ص ١٢٤. ترجمة صلال وهبة بيروت ١٩٩٢ م.

(٧٦) علم اللغة د. محمود السعراي ص ٧١.

(٧٧) مدخل إلى علم اللغة د. محمود فهمي حجازي ص ٢٥.

اللغة التاريخي . والمعجم التاريخي هو ذلك المعجم الذي يعطي تاريخ كل كلمة من كلمات اللغة الواحدة ، ويؤرخ لها ابتداء من أقدم نص وردت به إلى آخر نص ، يتتبع دلالتها وتغيرها » (٧٨) .

سادساً — علم اللغة والجغرافية

لما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية تتحرك في إطار تاريخي ، ولما كانت كل لغة لسان أمة أو جماعة تعيش في وطن خاص بها فإن كل لغة تصطبغ بصبغة محلية تخلفها عليها الظروف والأنواء . « فلتبيعة البلاد والبيئة الجغرافية في سهولها وجبالها ، ولون مناخها أثر في الثقافة . وهذا الأثر لا بد أن يترك نتائجه في المسألة اللغوية » (٧٩) .

ويتجلى تأثير الجغرافية في علم اللغة ، وفي الدراسات الحديثة ذات الصبغة العلمية خاصة ، بأوجه متعددة ، أبرزها دراسة اللغة في إطار الموضوع أو المواضيع التي تحيا فيها اللغة « فنتناول الانتشار اللغوي ، ودخول اللغة إلى مناطق جديدة ، وتبحث أيضاً الانحسار اللغوي عن مناطق بعينها . فالعربية مثلاً كان لها على مدى قرون وجود في الأندلس وإيران ، وكانت لغة ثقافة في شبه القارة الهندية » (٨٠) .

ويتجلى تأثير الجغرافية في علم اللغة بصورة واضحة حينما تتجه الدراسة اللغوية إلى البحث في العوامل المؤثرة في ظهور اللهجات . فكثيراً ما تنعكس طبيعة الأرض وخصائص المناخ على طبيعة النطق وصفات الأصوات . فسكان الجبال أقسى نطقاً من سكان السهول ، وبدو الصحراء يؤثرون الأصوات المجهورة على المهموسة ، ويحرصون على إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة ، ولو كان في إحراجها ما يعنتهم أو يشق عليهم . وإن أبيت إلا الاحتكام إلى أمثلة محسوسة ملموسة فحسبك أن تقارن بين لهجتين فصيحيتين أو عاميتين من اللهجات العربية المسموعة لتقف على الفروق . فأهل دمشق رققت الغوطة بنهرها وشجرها ألسنتهم ، فتراخت عندهم حروف المد ، وغدت جيمهم كالشين . وأهل حلب قست لهجتهم لقسوة بيئتهم ، ولوقوع حاضرتهم على حافة البادية الجافة .

إن علم الجغرافية يستطيع أن يقدم التفسير الصحيح لأكثر من ظاهرة لهجية ، ولهذا

(٧٨) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٧٩) التطور اللغوي التاريخي د إبراهيم السامرائي ص ٣١ بيروت دار الأندلس ١٩٨٣ .

(٨٠) مدخل إلى علم اللغة د . محمود فهمي حجازي ص ٢٥ .

يفزع إليه اللغويون ليستفتوه في إثبات ما يثبتون ، وتعليل ما يعللون من خصائص اللهجات .

سابعاً — علم اللغة وبقية العلوم

ذكرنا قبل أن الدراسات اللغوية في إطارها العلمي الحديث تعدّ علماً جديداً ، يحاول أن يبتعد عن التجريد ، وأن يقترب من التجريب . وهو في محاولته تلك ينأى عن الفلسفة ، ويساور علومها أخرى ، لم يكن الأقدمون يظنون أنها موصولة النسب بعلم اللغة ، أو يمكن أن يكون بينها وبين الدراسات اللغوية رابطة جامعة ، أو تقارض في التأثير والتأثير .

وليس من المعقول أن تكتسب الدراسات اللغوية طابعها العلمي ما لم تقطع صلتها بالنظريات الفلسفية ، ولذلك عجب ليونارد بلومفيلد من صنع اليونان القدماء حينما ذهبوا إلى أن لغتهم تمثل الأشكال العامة للتفكير الإنساني كله ، لا للتفكير اليوناني وحده ، وحيثما بالغوا في هذا المذهب ، فادّعوا أنها تبرز نظام الكون كله . وشفعوا مذهبهم هذا بملاحظات نحوية خاصة بلغتهم اليونانية ، وأبرزوها في حلة فلسفية^(٨١) .

وفي العصر الذي شهد ازدهار الثقافة اليونانية وسيطرة الفلسفة والمنطق على العلوم اللغوية ذهب فريق من اليونان إلى تفسير النحو بالمنطق . حتى إن الرواقيين « أنصار زينون الذين كانوا يردّون كل شيء إلى المنطق رأوا أن النحو ينبغي أن يطابق المنطق ، وأن الأقسام النحوية ينبغي أن تطابق الأقسام المنطقية » . وفي هذه الآراء ما فيها من تعسف وتكلف وصلف مما دفع الباحثين المحدثين إلى التملل ثم إلى التحلل منها ومن الفلسفة التي أنجبها .

وبعد أن انتزعت اللغة نفسها من قيود الفلسفة اتجهت نحو العلوم التي ذكرناها قبل ، ونحو علوم أخرى أقل تأثراً بها وتأثيراً فيها ، منها علم الأجناس البشرية ، أو علم أصل الجنس البشري وتطوره Anthropology إذ ذهب بعض الباحثين إلى أن « كثيراً من المسائل المتعلقة باكتساب اللغة لا معدى في التعرض لها عن الاستعانة بعلم الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا) ، وبعلم الوراثة ، وبعلم الحياة العام »^(٨٢) .

حتى الرياضيات لم تجد عاصماً يعصمها من مخالطة الدراسات اللغوية الحديثة ، إذ توّخت هذه الدراسات أن تنطوي على سبب أو نسب يشدها إلى الرياضيات ، أو يسخر الرياضيات لخدمتها . وإذا لم يكن هذا المطلوب قد تحقق حتى يومنا هذا ، فإن طموح بعض

(٨١) انظر Language, Leonard Bloomfield page 5 First Published in Great Britain 1935.

(٨٢) علم اللغة د. محمود السعوان ص ٦٩ — ٧٠ .

الدارسين حملة على أن يقول: «ليس هناك ما يمنع من تصور اللغة موضوعاً رياضياً أو اجتماعياً أو نفسياً، وبالتالي تصور اللسانيات جزءاً من الرياضيات» (٨٣).

وإذا كنا نصدق أن كل علم جديد يبدأ بالتصور، وينتهي بالتصوير فإننا نؤثر الأناة، ونرفض أن نعد التصور المتوقع علماً كما رفضت اللسانيات الحديثة الدراسات القديمة المضمخة بالفلسفة، والآراء المعيارية القياسية. وربما كانت مدرسة تشومسكي التحويلية التوليدية أكثر المدارس احتفالاً بالرياضيات، وأشدها كلفاً باستخدام المعادلات والأشكال الرياضية والرسوم البيانية في دراسة اللغة، ولا سيما الكف بتحليل الألفاظ إلى مورفيمات (٨٤).

مما سبق عرضه في الفصلين السابقين يتبين لنا أن علم اللغة أخذ يشق طريقه نحو العلم، وأنه منذ تخير هذا الاتجاه راح يلقي عن منكبيه رداء الدرس النظري الفلسفي، ويكسر ما يقيد معصميه من قيود المنطق، ويمضي طليقاً نحو العلم التطبيقي مستعيناً بأساليب الملاحظة والاختبار، متعاوناً مع العلوم الإنسانية والتجريبية، زاهداً في الدراسات المقتصرة على لغة واحدة، طامحاً إلى دراسة الموضوعات العامة التي يتسع صدرها للغات البشر كافة. وأول هذه الموضوعات نشأة اللغة. فكيف ظهرت اللغة الإنسانية، وما آراء الباحثين وتفسيراتهم المختلفة لنشأة اللغة وتطورها وتوزعها؟

(٨٣) اللسانيات واللغة العربية د. عبد لقادر العاسي الفهري ص ٤١ أعداد ١٩٨٥ م.

(٨٤) تشومسكي فكره المعوي وآراء اسقاد فيه د. صري إبراهيم لسيد ص ٨٠ - ٨٣ در المعرفة اجمعية الإسكندرية ١٩٨٩ م.

الباب الثاني

نشوء اللغات وتوزعها

نشأة اللغة

أولاً — قِدم البحث في نشأة اللغة

لم تختلف آراء العلماء من قدماء ومحدثين في شيء كما اختلفت في هذا الموضوع: موضوع نشأة اللغة وأصلها. فقد كثرت فيه النظريات، وكثرت المحاورات، وقلت النتائج، واضطر بعض العلماء آخر الأمر إلى طي المسألة، وإلى نصيح الناس بأن ينصرفوا عن الخوض فيها لعقمها وضوالة الفائدة منها، غير أن الناس — ونحن منهم — لم يأخذوا بالنصح، بل ظلوا يتساءلون عن سر اللغة حاملة الفكر وناقلة من جيل إلى جيل.

ولا يذهبن بك الظن إلى أن العلماء العرب من لغويين وفلاسفة وأصوليين هم السابقون الأولون إلى الخوض في هذا البحث. فإن ما عناهم من نشأة اللغة عنى غيرهم من أصحاب العقول في الأمم الأخرى، وفي العصور الضاربة في عمق التاريخ. «فمنذ هرقليطس وديمقريطس ومن قبلهما وجد البحث في أصل اللغة ونشأ الخلاف وتجذر»^(١).

وبعد محاولات الإغريق التي لم تتمخض عن نتائج تقبلها الشعوب الأخرى أدلى أحبار التوراة بدلوهم ليفسروا نشأة اللغة على ضوء معتقداتهم، ووفق النصوص التي وجدوها في كتابهم المقدس، فلم يأتوا بما يجمع الجدل، فاستمر وتشعب، وظهرت نظريات كثيرة حاولت حل الإشكال، وانتهى بعضها إلى ما يشبه المحال، فما أبرز هذه النظريات؟

(١) مجلة مبع الإسلام ص ١١٠ العدد ١٣ حزيران ١٩٨٣ م بحث للدكتور عبد الإله مهران.

ثانياً — الآراء والنظريات

تعددت آراء العلماء ونظرياتهم في البحث عن أصل اللغة ، وتباينت دوافعهم وأساليبهم وفق تكوينهم الثقافي : فمنهم من استنزل اللغة من السماء ، ومنهم من استنبطها من الأرض أو تصيّدتها من أصوات الطبيعة ، ومنهم من ربطها بالاجتماع المقضي إلى التواضع والوضع ، أو بالانفعال العظيم المؤدي إلى التنفيس عن الحسّ الحبيس . ومنهم من استعان على مناقشة الفكرة بما جدّ في العلوم الأخرى ، فانتهى إلى نظرية ادّعى أنها أوفر النظريات حظاً من الصدق والعمق . وأقربها إلى الدقة والحق . وفي التعدد محال للموازنة والترجيح .

أ) نظرية التوقيف أو الأصل الإلهي

إذا ثبت أن تردّ هذه النظرية إلى مصدرها العربي الأول فردّها إلى تفسير مجاهد لقوله تعالى :

﴿ وَعَمَّ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾^(٢) . قال مجاهد : « عمه اسم كل شيء »^(٣) . وعن مجاهد نقل الطبري فقال : « إنها أسماء ذريته . وأسماء الملائكة »^(٤) .

ثم جاء المفسّرون وعلماء اللغة ، فكان أحمد بن فارس اللغوي [ت : ٣٩٥ هـ] أشدّ الناس تعقّباً بهذه النظرية . قال : « أقول : إن لغة العرب توقيف »^(٥) ، واحتج بالآية السابقة . ولم يكتف بعزو الأصول إلى السماء ، بل ذهب إلى أن اللغة العربية كلها أصولاً وفروعاً إلهية المنشأ ، وأنها وصلت إلينا عن طريق الأنبياء على نحو متتابع حتى اكتملت بظهور الإسلام . فقال : « ثم علم بعد آدم عليه السلام من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبياً نبياً ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد ﷺ »^(٦) . وهكذا اكتملت لغة العرب « ثم قرّر الأمر قراره ، فلا نعلم لغة من بعده حدثت »^(٧) .

(٢) . بقرة ٣١ .

(٣) تفسير مجاهد ص ٧٢ ح عند الرحمن اظاهر اسورقي قصر ١٣٩٦ هـ .

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن لاس حرير الطبري ١ ١٧٠ دار الفكر ١٤٠٥ هـ .

(٥) الصحاح في فقه اللغة لأحمد بن فارس تع سيد أحمد صقر ص ٦ مطبعة عيسى اساني احسي القاهرة ١٩٧٧ م .

(٦) مصدر السابق ص ٧ .

(٧) مصدر السابق ص ٧ .

وإذا شئت أن توغل في تاريخ النظرية إلى عهد أقدم من عهد العرب بها فعُدّ بها إلى فلاسفة اليونان وأحبار اليهود تجد أن عزو اللغة اليونانية واللغة العبرية إلى مصدر إلهي رأيي رآه أكثر من عالم، وتباهت بالأخذ به أكثر من لغة، وأن آراء العرب لم تكن أكثر من حلقة في سلسلة هي تاريخ هذه النظرية.

وأعجب ما يثير العجب أن يتبنى اليونان هذه النظرية، وهم وثنيون، لا يؤمنون بدين سماوي أو بإله يعلم أنبياءه اللغة. ولعل اعتقادهم هذا مردود إلى إيمان فريق منهم بالثالنية التي أثرها أفلاطون على الواقعية الأرسطية. لقد اتهم أفلاطون البشر بالعجز عن صنع اللغة، تلك المعجزة التي لم يستطع أن يجد لها تحليلاً وتعليلاً يقنعان العقل اليوناني، ولهذا رأى «أن اللغة توقيفية، لا يستطيع الإنسان إبداعها، ولا تقوى إمكانياته على صنعها»^(٨).

ولم يكن أحبار يهود أضعف إيماناً بهذا المذهب، فقد استنبطوا من التوراة أن اللغة صنع آدم وأن الله جبل الحيوانات والطيور من تراب الأرض، ووضعها بين يدي آدم، وأن آدم سماها بأسمائها. جاء في سفر التكوين: «فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل مادعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فسمى آدم جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية»^(٩).

وإذا كان بين مذهبي اليهود والمسلمين من فرق فهو فرق يسير لا يمسُّ حوهر النظرية، إذ يعزو الفريقان اللغة إلى غير البشر، غير أن سفر التكوين يعزو وضعها إلى آدم بأمر من ربه. لأنه هو الذي سمى المخلوقات بأسمائها. والقرآن الكريم يرقى بها إلى الله عز وجل مصدر كل علم، ويحصر عمل آدم وعلمه في تعليم ما تعلم ونقله من الله إلى الناس.

ب) نظرية محاكاة أصوات الطبيعة

يذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن الإنسان في نشأته الأولى، وقبل أن يعرف اللغة حاكى أصوات الطبيعة الحية والجامدة. أصغى إلى أصوات الذئب والبعير والقطّ والرعد والبركان والرياح. وقلّب هذه الأصوات في أذه، وردّها بلسانه، وصنع منها ألفاظاً تشبه في جرسها الأصوات الطبيعية وتدلّ عليها. ثم خطا في هذا الانجاء خطوة أخرى، فحمّل الألفاظ المحسوسة معاني مجردة، فكانت اللغة.

ولما كان المصدر الذي استقت منه هذه النظرية مادتها الأولى هو الطبيعة التي يتساوى

(٨) دراسات في اللغة والبحر العربي ص ٨ — ٩ حس عون معهد البحوث مصر ١٩٦٩ م.

(٩) سفر التكوين الأصحاح الثاني ٧ — ٢٠ المطبعة الأمريكية بيروت ١٩٤٨ م.

في ملاحظتها العرب والأجانب فقد تساوى العرب والأجانب في اكتشاف هذه الحقيقة ، وبنوا عليها نظرات لا ترقى إلى درجة العلم .

ويُعَدُّ أبو الفتح عثمان بن جني [ت : ٣٩٢ هـ] أبرز اللغويين العرب الذاهبين أو المؤيدين للذاهبين إلى أن لغات البشر بنات الأصوات الطبيعية . قال ابن جني : « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدويّ الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونغيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل »^(١٠) .

ومن الأجانب يُعَدُّ العالم الألماني هَرْدَر من أبرز المفاحين عن هذه النظرية ، غير أنه رغب عنها فيما بعد لضعف الأساس الذي أقيمت عليه^(١١) . صحيح أنك تجد الرقة في لفظتي وسوس وهمس ، وتجد القسوة في دق وطرق ، ولكنك لا تستطيع أن تربط هذه الألفاظ بأصوات محددة ، ولا تجد كل خشونة في الفعل مقرونة بخشونة في القول ، بل تجد اللفظ الرقيق كالسيف والرمس دالاً على أقصى المعاني ، وتجد اللفظ الجاسي كالبرقع والقطر والقلب دالاً على أرق المعاني . وهذا يعني أن الأمثلة القليلة التي تتصاقب فيها المعاني والألفاظ في العربية أو في الإنكليزية لا ترقى بهذا الرأي الفطير من أفق التخمين والرجم بالغيب إلى أفق اليقين والوصول إلى مرتبة العلم ، والقوانين تُبنى على الكثير المطرد لا على القليل والنادر .

ولا يخذعك غلُو الغلاة في الانتصار لهذا الرأي ، ولا زعمُ من زعم أن التناسب بين اللفظ والمعنى أمر حتمي لارتباطه بالأصوات المفردة ، وارتباط الأصوات الإنسانية بأصوات الطبيعة . فالأمثلة القليلة التي ذكرها عباد بن سليمان الصيمري لا تقف حجة كافية أمام آلاف الأمثلة التي لم يذكرها ، والتي تأتي بقاء هذه النظرية من القواعد .

وليس نقضها قاصراً على العرب وحدهم . ولا الحجج التي دُمغت بها النظرية مستمدة من لغة العرب وحدها ، بل إنك لتجد أشدَّ المتعصبين لها في أول حياته وهو (هَرْدَر) أشدَّ المتنصلين منها في آخر حياته . وشبيه به في السحرية منها الألماني مكس مولر^(١٢) . وأقصى ما استطاعت هذه النظرية أن تفعله هو أنها استخرجت من كل لغة مجموعة من الكلمات أوحث مبانيها بمعانيها بعض الإيحاء ، وأنها استطاعت أن تظفر بمجموعة أقل من الأولى .

(١٠) الخصائص لأب حن ١ ٤٦ — ٤٧

(١١) المدخل إلى علم اللغة د . رمضان عبد التواب ص ١١٢ .

(١٢) لوحيير في فقه اللغة . محمد الأنطاكي ص ٦٣ وما بعدها .

تتقارب فيها المباني والمعاني برغم انتمائها إلى لغات مختلفة .

ج) نظرية الوضع والاصطلاح

إن لم تكن اللغة حياً هبط من السماء إلى الأرض ، ولا إلهاماً نقله آدم عن ربه إلى البشر ، وإن لم تكن محاكاة استطاع الإنسان حينما مارسها أن يقلد أصوات الطبيعة ، فهل يمكن أن تكون اختراعاً صنعه البشر ؟

من المعرضين عن النظريتين السابقتين من ذهبوا إلى أن اللغة اختراع بشري خالص ، وأن الناس — والقول لهؤلاء — تواضعوا على أن يسموا الأشياء بأسمائها . ثم تناقلت الأجيال هذه الأسماء ، واخترعت منها أو على طريقته الأفعال والحروف وطوّرت ما اخترعته طوال قرون حتى اكتملت اللغة .

ومنهم من يجدون لما نقل عن سفر التكوين ، ولما نصّ عليه القرآن الكريم تأويلاً توفيقياً ، لا تعليلاً توقيفياً . فهم لا ينكرون الوحي ، ولا يغمطون الإنسان الأول عقريته . ولا يبخسونه جهده في صنع اللغة . بل يذهبون إلى أن الله ألهم الناس القدرة ، فتواضعوا وصنعوا وأبدعوا . وهذا التفسير لا ينكر الوحي ، ولا ينكر الوضع ، فللغة أصلها الإلهي ، وللإنسان إبداعه المكمل للوحي .

وربما كان ابن جني المتأثر بالاعتزال أوضح الأقدمين تعبيراً عن هذه النظرية بوجهيها المعتزل والمعتدل . فهو انطلاقاً من الاعتزال الذي يحتكم إلى العقل يقول : « تم لنعد ، فلننقل في الاعتدال لمن قال بأن اللغة لا تكون حياً ، وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة . قالوا : وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً إذا ذكر عرف به مسماه ليمتاز من غيره ، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين » (١٣) .

وإثارة للاعتدال التمس ابن جني للنص القرآني تفسيراً يفضي به إلى المواضعة وينزع اللغة من التوقيف الإلهي ليغرسها في الاصطلاح البشري ، فقال : « إن أبا علي رحمه الله قال لي يوماً : هي من عند الله ، واحتج بقوله سبحانه : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (١٤) . » (١٥)

(١٣) الحصائص ١/ ٤٤ .

(١٤) البقرة ٣١ .

(١٥) الحصائص ١/ ٤٠ .

فالقول بأن اللغة من عند الله اعتماداً على الآية الكريمة المذكورة هو قول أبي علي الفارسي، ولكن ابن جني لم يقف عنده، بل جاوزه، وفسّر الآية تفسيراً يُحمّدها معنى المواضعة فقال: «يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها»^(١٦).

ولم ينج هذا المذهب من سهام النقد، وأنفذ هذه السهام أن المتواضعين في حاجة إلى لغة يتفاهمون بها، فإن لم يكن لديهم لغة سبقت اللغة التي تواضعوا على صنعها فكيف تواضعوا؟ وإن كانت لديهم لغة سابقة فمن الذين صنعوا اللغة السابقة، وكيف صنعوها؟ والسهم الثاني أن هذا المذهب لا يستند إلى سند عقلي أو نقلي، ولا يشفع له ناموس من نواميس التطور أو نظام من الأنظمة الاجتماعية «وعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً، ولا تخلق خلقاً، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها»^(١٧).

د) نظرية التنفيس الانفعالي

فحوى هذه النظرية أن اللغة الإنسانية الأولى نشأت من أصوات عفوية فطرية أطلقها الإنسان الأول تعبيراً عن سرور أو نفور، وترجمة لقبول أو رفض، وبوحاً بحب أو بغض. ثم تطورت هذه الأصوات المنفعلة، فأضت الصرخات كدمات فاعلة، ثم غدت الكلمات جملاً مفيدة.

نقل فندريس هذه النظرية عن أصحابها، وذكر تصوّرهم لما وقع قبل آلاف السنين. لقد زعم هؤلاء أن دماغ الإنسان كان عاجزاً عن صنع الكلمات، فنفس عن نفسه بالصراخ، ومن التنفيس عن الحسّ الحبيس المشوب بالحركة، وبالغناء المصاحب للعمل وُلدت الكلمات الأولى، ثم تحولت هذه الكلمات إلى رموز تعبر عمّا يصحب العاطفة من فكرة، وراحت هذه الرموز تنتقل من سلف إلى خلف، فكانت اللغة^(١٨).

وأبرز السمات التي تؤسم بها هذه النظرية قيامها على افتراض متخيّل، «تبدو عليه مخايل الصدق، وإن لم يكن ممّا يمكن البرهان عليه»^(١٩)، ثم التصاقها بشعور الإنسان، وصدورها الفطري عنه على نحو يخلو من التعقيد. وأخذها بالتدرج البطيء الذي يسم الظواهر الاجتماعية.

(١٦) الحصاص ٤٠/١.

(١٧) أدخل إلى علم اللغة د. رمضان عبد التواب ص ١١١.

(١٨) انظر اللغة لفندريس ص ٣٨ وما بعدها.

(١٩) مصدر لسانك ص ٣٩.

« ومع كل هذا فإنها نظرية ناقصة وغامضة : أما نقصها فلأنها لا تبين منشأ الكلمات الكثيرة التي لا يمكن رُدُّها إلى أصوات انفعالية . وأما غموضها فلأنها لا تشرح لنا السرَّ في أن تلك الأصوات الساذجة الانفعالية تحولت إلى ألفاظ أو أصوات مقطعية . فلهذين الأمرين انصرف عنها اللغويون ، وسخر منها مكس مولر كذلك » (٢٠) .

هـ) نظرية الملاحظة والمحاكاة العملية

يذهب صاحب هذه النظرية ، وهو العالم الألماني غيرر Geiger إلى أن اللغة الإنسانية الأولى نشأت من الملاحظة والمحاكاة .

يعني بالملاحظة ملاحظة الإنسان أخاه الإنسان ، وهو يعمل ويتحرك ، ويعبر عن معاناته في أثناء العمل بإشارات إرادية أو غير إرادية تأتيها جوارحه ، أو بانفعالات ترسمها قسما ت وجهه ، أو بأصوات — والأصوات أهم من الحركات — يطلقها فمه ، مرافقة لأعماله ، مشفوعة بإشارات تزيد أصواته وضوحاً في التعبير ، وقدرة على التأثير ، فتثبت في ذهنه الأصوات مقرونة بإشاراتها ، ويزيدها التكرار المستمر رسوخاً في النفس والذهن ، ثم تتحول إلى عادات مألوفة .

ويعني بالمحاكاة ما يعيده المشاهد من أصوات المشاهد مقرونة بحركاته ، إذا قيض له أن يلبس ما لابس من تجربة وانفعال . وتفسير المسألة أن الملاحظة المستمرة تحمل من الممارس إلى المراقب موقفاً عملياً مشفوعاً بحالة نفسية ، وتعبير لغوي صوتي . وهذه المؤثرات المتعددة الأوجه تتخذ مكانها من نفس المراقب ، فيتأثر بها تأثراً آلياً ، كما يتأثر المراقب بالمتشائب فتعديه الثوباء ، وكما يحاكي الصغير الكبير وفق قانون المحاكاة المنعكسة ، فتتجلى على وجهه أمارات التأثير . وتند عن فيه أصوات عفوية تشبه أصوات الممارس . فإذا تكررت المواقف بدأت الأصوات تفارق الحركات ، واستقلالها عنها قمين بتحويلها إلى رموز لغوية . فتكون اللغة (٢١) .

ومما سوغ هذه النظرية في رأي واضعها أنه وجد في اللغات الأوروبية ألفاظاً متحدرة من أصول قديمة موغلة في القدم ، بعضها إغريقي ، وبعضها سنسكريتي ، تفصح عما ذهب إليه ، إذ ارتبطت دلالاتها بالعمل الملائم لها ، أو بالشئ الذي يقع عليه العمل . أو بالآلة المستخدمة في إنجاز هذا العمل . وهذا الاقتراح يعني ببساطة أن اللغة وليدة العمل أو المحاكاة للأصوات المرافقة للعمل .

(٢٠) انظر كتاب المدخل إلى علم اللغة د . رمضان عبد التواب ص ١١٧ وما بعدها .

(٢١) المصدر السابق ص ١١٨ .

وإذا كنا — نحن العرب — لا نحسن لغات الإغريق والهنود ونعجز عن أن نتخير أمثلة مناسبة توضح هذه النظرية، فإن في العربية ما يفي بالحاجة. وحسبك أن تستعرض أسماء الآلات العربية لتقف على ما يشبه هذه الظاهرة ظاهرة الاقتران بين العمل واللفظ. فإن كثيراً من الآلات في فصحننا جمع اشتقاقه بين لفظ الفعل وعمل الآلة، فالمطرقة للطرق، والمقرعة للقرع، والمشار ينشر الخشب والمشرب يشرب الجلد، والمنظار يعينك على النظر. فلو لم يكن العمل مصدر اللغة ما احتفظت العربية بهذه الظاهرة.

وتستطيع أن تأخذ على هذه النظرية مآخذ، منها أنها لا تقدم قاعدة مطردة يمكن تطبيقها على الكلام كله، بل تقدم قانوناً محدوداً تصدقه أسماء الآلات، وتشذ عنه طوائف كثيرة من الألفاظ ذوات الدلالات الحسية، وأكثر الألفاظ ذوات الدلالات المجردة. ومنها «أنها لا تستطيع أن توضح لنا بأسلوب مفهوم معقول كيف وضعت تلك الأصول العامة الأولى التي يقول صاحب النظرية: إنها تتعلق بأعمال الإنسان أو إشاراته، والتي يعدها الكلمات الأولى التي اشتق منها غيرها من الكلمات»^(٢٢). وآخر المآخذ أن النظرية شكل مطور محور للنظرية الثانية نظرية محاكاة الأصوات الطبيعية، الأولى ردت الكلمات إلى محاكاة الأصوات، وهذه قرنت الأصوات بالحركات، وكلتاهما لم تجاوز مرحلة الافتراض المتوهّم المفتقر إلى الأدلة القاطعة.

و) نظرية الاستعداد الفطري

جوهر هذه النظرية أن الإنسان يمتلك القدرة على التعبير عن عواطفه وأفكاره بالألفاظ يصوغها صوغاً عفويّاً، وأن هذه القدرة كامنة فيه يفيد منها عند الحاجة. ويذهب مكس مولر صاحب هذه النظرية إلى أن هذا الاستعداد الفطري شبيه بآلية الساعة التي تحرك النوابض عقاربها. ومما حمل مولر على القول بما قال ملاحظته الأطفال يسمون الأشياء التي لم يتعلموا أسماءها بالألفاظ يبتكرونها، لأن الحاجة تدفعهم إلى التعبير الفطري عما يراودهم من خواطر «فاستنبط من ملاحظته هذه أن الإنسان مزود بتلك القوة التي تنشأ عنها الألفاظ»^(٢٣).

وفي هذه النظرية ثغرات غفل عنها صاحبها: أولها أن اللغة وعاء الفكر، ولا يمكن صنع اللغة بالطريقة الآلية التي تتحرك وفقها عقارب الساعة. وثانيها أن اللغة لو كانت بنت الفطرة

(٢٢) المدخل إلى علم اللغة د. رمضان عبد التواب ص ١١٨.

(٢٣) المصدر السابق ص ١١٧.

لتساوى الناس في الكلام لتساويهم في الغرائز وفي الملكات الفطرية . فلما اختلفت لغاتهم ولهجاتهم دلّ اختلافها على أنها ليست فيضاً عفويّاً كما تدّعي هذه النظرية . وثالثها أن القدرة الفطرية الكامنة في نفس الإنسان المنطوية على ألفاظ مدخرة ولا تستيقظ من مراضها إلا عند الحاجة أمر متوهم . فمن أين هبطت هذه الذخيرة اللغوية على الإنسان ؟

ز) نظرية التطور اللغوي

لك أن تعد هذه النظرية بنت نظرية داروين Darwin في النشوء والارتقاء . فبعد أن نشر داروين نظريته في التطور العام خيّل إلى أصحاب نظرية التطور اللغوي أن اللغة نشأت وتطورت على نحو بطيء يشبه المراحل التي يمرُّ بها الطفل في تعلمه الكلام ، وهي خمس مراحل :

أولاًها مرحلة الأصوات العفوية التي كان الإنسان الأول يطلقها كما يطلق الوليد أصواتاً لا معنى لها ، تدل على أن أعضائه الناطقة لم تزل غضة عاجزة عن الأداء السليم .
والثانية مرحلة إصدار الأصوات الانفعالية المشفوعة بإشارات كان الإنسان الأول يرسلها من فمه لتساعده على ترجمة رغباته . وهي تعادل ما يستطيع الرضيع أن يصدره من الأصوات في عامه الأول للتعبير عن خوفه من الغرباء والاطمئنان في حضن أمه ، والفرح بمقدمها .

وثالثة المراحل مرحلة الأصوات المقطعية . وفي هذه المرحلة كان الإنسان الأول يكرر أصواتاً من مقطع واحد على النحو الذي يصنعه الطفل في ثلاثة الشهور الأولى من عامه الثاني ، فيلغو بأصوات من نحو : ما ، ما ، با ، با ... ولا يفتأ يكررها حتى تستقرّ في لسانه .
وفي رابعة المراحل انتقل الإنسان الأول من المقاطع إلى الكلمات ، أي : صنع من المقاطع الأحادية الجرس كلمات ، تتضمن الواحدة منها أكثر من مقطع واحد . وفي هذه المرحلة صنعت البشرية ألفاظاً متنوعة المقاطع والأصوات ، فجاءت أتمّ من سابقتها . وكلامها هذا يشبه كلام الطفل في عامه الثاني ، ويدلّ على أن عقده وفمه أخذتا يكتملان .

وفي المرحلة الخامسة — وهي خاتمة المراحل — اكتملت اللغة ، وانتقل الإنسان من القرزمة إلى الإبانة ، ومن صنع الكلمات البسيطة إلى الجمل المفيدة ، ثم إلى اختراع اللغة الكاملة بالمواضعة . وفي هذه المرحلة برهن الإنسان على نضج العقل ، واكتمال الأعضاء الناطقة ، والتهيؤ لصنع الحضارة . وأثبت أنه اكتسب قدراً عظيماً من الثقافة والمعرفة . وبعدها لا قبلها نستطيع أن نقول مطمئنين إلى ما نقول : إن الإنسان الأول راح بعد تاريخ طويل من التطور ، يصنع المصطلحات العلمية ، ويسمي الأشياء بألفاظ يبتكرها ، ويستودعها علومه

ومعارفه . وهذه المرحلة تعادل انتقال الطفل من البيت إلى المدرسة ليدرس العلوم والآداب والفنون^(٢٤) .

ومن خصائص هذه النظرية إخضاعها اللغة للتطور ، شأنها في ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى . وربطها نمو اللغة بالظروف المحيطة بالإنسان ، وجعل تقدم اللغة وارتقائها تعبيراً عن تقدم الإنسان وارتقائه في جوانب الحياة المختلفة ، وإجراء نوع من التوازن بين التفكير والتعبير ، وفتح الأبواب أمام الابتكار والتجديد على أساس الاشتقاق والتوليد . ومد الجسور والقنوات بين اللغة وأوجه النشاط الفكري المختلفة ، والتخلص من النظرة الأحادية التي تعطل نشأة اللغة بعلة واحدة على النحو الذي تجلى في أكثر النظريات الأخرى .

قد تكون هذه النظرية أوسع أفقاً ، وأشمل نظراً من أخواتها ، وأحرص على الإفادة من جوانب الحياة المختلفة . لكنها ، كأخواتها ، لا تبرأ من النقد . فأنت تستطيع أن تأخذ عليها قيامها على أساس متخيل ، وقع كما تصوره أصحاب النظرية ، لا على أساس واقعي . وقع كما تصور أصحاب النظرية وقوعه قبل ألوف السنين . ومنذا الذي يزعم أن كل ما يتصوره الإنسان حق ، ولو كان هذا الإنسان من علماء اللغة؟^(٢٥) .

والمأخذ الثاني أنه لو كانت هذه المراحل الخمس ، كما فصلها مفصلوها ، صحيحة كل الصحة لوجدنا القبائل البدائية التي لقيها المكتشفون في إفريقية والأمريكيتين تصنع لغاتها على هذا النحو ، فترقى بها بعد أن أخذت بأسباب الرقي . إن الذي وقع بالفعل هو أن هذه القبائل تخلت عن لغاتها ، وبعض هذه اللغات من ثلاثمائة كلمة ، واتخذت اللغات الأوروبية ، كما تخلت عن السهام والقصي وتسلحت بالبنادق والمسدسات .

وخلاصة القول في سبع النظريات السابقة التي حاولت أن تفسر نشأة اللغة . هي :

- ١ — نظرية التوقيف استوحت اللغة من السماء .
- ٢ — نظرية المحاكاة استخرجتها من تقليد الإنسان لأصوات الطبيعة .
- ٣ — نظرية الوضع والاصطلاح صنعت اللغة من العقل وبالعقل .
- ٤ — نظرية التنفيس عن الانفعال الحبيس استلهمتها من القرب .
- ٥ — نظرية المحاكاة العملية ربطت اللسان باليد ، واللغة بالعمل .
- ٦ — نظرية الاستعداد الفطري جعلت اللغة نشاطاً آلياً تقتضيه الحاجة الطارئة .

(٢٤) يوقوف على هذه المراحل مفصسه اطر المدخل إلى علم اللغة د . رمضان عبد التواب ص ١١٩ وما بعدها .

(٢٥) انظر المصدر السابق ص ١٢٢ .

٧ — نظرية التطور قرنت نشأة اللغة بنشأة الإنسان ، وتطورها بتطوره . ولم تنظر إلى اللغة بعين واحدة ، أو من زاوية واحدة .
وخلاصة الخلاصات في هذه النظريات كلها أن كلّ واحدة منها عاجزة عن تفسير نشأة اللغة ، وأن لكل منها أنصاراً وخصوماً ، وخصائص ونقائص .



توزع اللغات وفصائلها

أولاً — ابن حنني يعلل تعدد اللغات

إذا عللنا نشأة اللغة بالعلل التي توصلت إليها نظرية المواضعة والاصطلاح فإن هذه العلل تضع بين أيدينا أسباب تعدد اللغات الإنسانية، وعوامل توزعها وتفرعها إلى فصائل وفروع منبثة في أنحاء الأرض، لأن هذه النظرية تعني أن كل مجتمع من المجتمعات القديمة كان قد تواضع على لغة خاصة به.

وإذا أخذنا بنظرية التوقيف القائلة: إن اللغة الإنسانية إلهية المنشأ فهذا الأخذ يعني أن الناس جميعاً كانوا يتكلمون لغة واحدة، هي العربية أو السريانية أو لغة أخرى، نقلها آدم إلى بنيه. فما الذي جعل اللغة الواحدة المستوحاة من السماء لغات متعددة متوزعة على سطح الأرض، على هذا النحو الذي نجده اليوم، أو على النحو الذي وجدته من كانوا قبلنا؟

يجيب ابن حنني [ت: ٣٩٢ هـ] عن هذا السؤال إجابة غير شافية، إذ يذكر كلاماً يعزوه إلى غيره، ويذهب فيه قائله إلى أن الألسن المختلفة كلها توقيف، فيقول: (إن الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية، والفارسية، والسريانية، والعبرانية، والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات. فكان آدم وولده يتكلمون بها. ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه، واضمحلت عنه ما سواها لبعده عهدهم بها^(١)).

ثم يعلق ابن حنني على هذا الرأي تعليقاً يوحى بأنه يتصل من تبعته. وفي هذا التعليق

(١) الخصائص ص ٤١.

تمريض وروغان يدلان على تردد أبي الفتح في قبوله ، فيقول : « وإذا كان الخبر صحيحاً قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده ، والانطواء على القول به » (٢) .

ثانياً — أسباب التعدد عند الباحثين المحدثين

علت الدراسات الحديثة تعدد اللغات ، أو تحوّل اللغة الواحدة إلى لغات متعددة تعديلاً آخر ، إذ رأت أن لانقسام اللغة إلى لغات عوامل كثيرة منها انسياح اللغة في أقاليم واسعة من الأرض ، وبعد أن تنساح اللغة يفلت الزمام من أيدي الحراس على الوحدة اللغوية ، فتتشعب اللغة إلى لهجات ، وتتخذ كل لهجة سمات خاصة تميزها من أخواتها ، ثم تنقلب اللهجة مع مرور الأيام إلى لغة مستقلة (٣) .

ولا تنبع هذه السمات اللهجية التي تحوّل اللهجات إلى لغات من اتساع الأرض فحسب ، ولا من وجود حواجز طبيعية بين الناطقين بها كالجبال والأنهار والبحار فحسب ، بل يؤثر فيها ضعف السلطة المركزية . فمتى عجزت الحكومة المركزية عن الحفاظ على الوحدة السياسية راحت الدولة الكبرى تتحول إلى دويلات ، واللغة الأم إلى لغيات .

فإذا أضفت إلى تأثير الأرض والسياسة تأثير الفروق الاجتماعية والأعراف والتقاليد . وتأثير العرق واللون والثقافة والدين أدركت أن الانقسام واقع . وأن وقوعه مرهون بعوامل تصنعه . ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ (٤) . ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ (٥) .

إن تعدد اللغات آية من الآيات ، وحسبك دليلاً على صحتها أن الإحصاء التخميني أبلغ عدد اللغات في العالم إلى أكثر من ثلاثة آلاف لغة . فالمقل من العلماء ذكر أن البشر يستخدمون (٢٥٠٠) لغة ، والمكثر ذكر أنهم يستخدمون (٣٥٠٠) لغة .

وهذه اللغات متفاوتة في أعداد الناطقين بها ، فالصينية يربو أبنائها على مiliar ناطق ، والكمشدالية (لغة سكان جزيرة كمشاتكا) لا يزيد الناطقون بها على ألفي ساكن . « وقد ظهر من الإحصاء الذي نشره تسنير عام ١٩٢٨م أن تسعة وعشرين لساناً فقط كان لكل

(٢) إحصائص ص ٤١ .

(٣) انظر معام اللهجات العربية د . عبد الحميد محمد أبو سكين ص ٣٠ وما بعدها القاهرة ١٩٧٨ م .

(٤) هود ١١٨ — ١١٩ .

(٥) الروم ٢٢ .

منها ما يزيد على عشرة ملايين ناطق. أما عدد الألسن التي لها ثقافة من نوع ما فهو لا يزيد على سابقه إلا قليلاً. إذ ليس في العالم إلا خمسون لساناً فقط لها أدب مكتوب. وينخفض هذا العدد إلى نصفه إذا كنا بصدد الألسن ذات الأهمية من حيث اتساع رقعة الأرض التي تنتشر فيها، أو من حيث الإنتاج الأدبي والعلمي الذي يكتب فيها»^(٦).

ومما سبق عرضه «يتبين خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالمية (اسبرانتو Esperanto) يتحدث بها الناس جميعاً»^(٧)، لأن هذه اللغة «لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التي تخضع لها اللغات الطبيعية، والتي خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان»^(٨).

ثالثاً — اللغات بين التعدد والتوحد

إن التفكير في إنشاء الاسبرانتو لتغدو اللغة الإنسانية الجامعة ضربٌ من التحدي للنواميس اللغوية. فإن فيه من الحماسة والغرور مثل ما في التعصّب للغة القومية حرصاً على الوحدة الثقافية للأمة. غير أنك تستطيع أن تستثني من هذه النواميس لغتنا العربية التي يعدّ استمرارها موحدة معجزة نادرة، كأن الناطقين بها هم المقصودون بما بعد (إلا) من قوله تعالى: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾^(٩).

ومما يؤيد ظاهرة الإعجاز في اللغة العربية موت أترابها ولداتها من اللغات القديمة، وبقاؤها وحدها حية فنية قوية. ونحوّ اللهجات المتفرعة عن اللغات القديمة، كاللاتينية، إلى لغات قومية رسمية للناطقين بها، وبقاء اللهجات العامية في الوطن العربي مسوخاً لا يُقرهن نظام حاكم، ولا يكتب بهن علم أو أدب.

«فاللغة الهندية الأوروبية الأولى قد انشعبت في ضحى الإنساية إلى مجموعات كثيرة... وقد بقيت اللاتينية مدةً لغةً أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منها (الفرنسية، الإيطالية، الأسبانية، البرتغالية، لغة رومانيا) لكنها لم تلبث أن تنحّت عن ذلك بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات»^(١٠).

(٦) الوجيز في فقه اللغة محمد الأطاكي ص ٦٩ دار الشروق بيروت ١٩٦٩ م.

(٧) علم اللغة د. علي عبد الواحد وافي ص ١٧٨.

(٨) المصدر السابق ص ١٧٨.

(٩) هود ١١٨ — ١١٩.

(١٠) علم اللغة علي عبد الواحد وافي ص ١٧٢.

ولا يفهم من مما سبق أن البنيات المتحدّرات من اللغة الأم يتدابرن ، فلا تبقى بينهن صلة جامعة ، أو يتنافرن ، فيعيا الباحث بالوقوف على ما بينهن من نسب ، بل يحافظن على قدر كبير من التشابه في المفردات والتراكيب والأصوات كما تتشابه الوجوه والجسوم والقسمات في أبناء العشائر المتفرعة من قبيلة واحدة . ولذلك تسمى كل مجموعة من المجموعات اللغوية المتشابهة فصيلة . فما الأسس التي اعتمد عليها الباحثون المحدثون في تمييز فصيلة لغوية من فصيلة أخرى ؟ وما أشهر الفصائل التي اكتشفوها ؟

رابعاً — الفصائل اللغوية

من أهم الأسس التي اعتمد عليها الباحثون في تصنيف اللغات وتقسيمها إلى فصائل مقدار التشابه أو التباين بين لغات الفصيلة الواحدة « في الكلمات وقواعد البنية والتركيب »^(١١) ، أي : « أوجه الاتفاق أو الاختلاف في المفردات وقواعد الصرف والنحو »^(١٢) وما يجمع بين لغات الفصيلة الواحدة من « روابط جغرافية وتاريخية واجتماعية »^(١٣) . وأشهر النظريات في هذا الميدان نظريتان : نظرية ماكس مولر M. Muller ونظرية شليغل Schlegel .

آ (نظرية مولر

أقام مولر نظريته على أساس علمي استنبطه من العناصر التي تتألف منها اللغات ، واعتمد في تصنيفه على مدى التقارب أو التباعد بين الألفاظ والأصوات والتراكيب . فتيين له أن طوائف من الألسن تتشابه في هذه العناصر كما يتشابه أبناء الأسرة الواحدة ، فحملة هذا التشابه على تقسيم اللغات الإنسانية إلى فصيلتين كبيرين : فصيلة الألسن الهندية الأوروبية ، وفصيلة الألسن السامية الحامية ، ومجموعة ثالثة لا تدخل في هاتين الفصيلتين سماها فصيلة اللغات الطورانية .

١ — فصيلة الألسن الهندية الأوروبية : تضم هذه الفصيلة كثيراً من الألسن بعضها حيّ فتي واسع الانتشار ، وبعضها قديم شاخ ، فأهمه بنوه وحفدته ، أو كادوا يهملونه . وأبرز لغات هذه الفصيلة : الإغريقية ، واللاتينية ، والإيرلندية ، والروسية ،

(١١) دراسات في فقه اللغة د . صبحي الصالح ص ٤١ دار العم لملايين بيروت ١٩٨٣ م .

(١٢) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص ٧٢ .

(١٣) دراسات في فقه اللغة ص ٤١ .

والفارسية ، والسنسكريتية ، والأرمنية . واللغات المتفرعة عن اللاتينية ، وأهمها : الإيطالية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا . ومن اللغات الهندية الأوروبية لغات أوروبا الشرقية : البولونية والبلاغرية والتشيكية والليتوانية . ومنها كذلك اللغات الجرمانية : الألمانية والهولندية والسويدية والدانيمركية . ومنها أيضاً اللغات الكلتية : الإنكليزية ولغة بريتاني (غربي فرنسا)^(١٤) ... الخ .

وتستطيع أن تلخص ما عرفت به لغات هذه الفصيلة بالأمور التالية :

- ١ — موطنها الأول أوروبا الشرقية أو بحر البلطيق .
- ٢ — الألسن المنتمة إليها شديدة الاختلاف ، واختلافها الشديد يجعلها كأنها فصائل متباينة .
- ٣ — بعضها جمد فسم يتطور كالليتوانية ، وبعضها تطور وازدهر كالإنكليزية والفرنسية والألمانية .
- ٤ — الناطقون بها مختلفون في ألوانهم وأديانهم وثقافتهم .
- ٥ — الغزو الاستعماري نشرها في القارات الثلاث أمريكا وأوروبا وأستراليا وأجزاء من آسيا وإفريقية .

٢ — فصيلة الألسن السامية الحامية : يدلّ الاسم الذي سمى به مولر هذه الفصيلة على أنها تضم مجموعتين : مجموعة اللغات السامية ، ومجموعة اللغات الحامية ، وتنطوي كل مجموعة منهما على عدد من اللغات تفصلها وتفرّعها على النحو التالي :

(١) مجموعة اللغات السامية ، وهي شعبتان :

آ — شعبة الساميات الشمالية وفروعها : الأكادية ، والآشورية ، والآرامية ، والكنعانية التي تفرعت إلى اللغتين العبرية والفينيقية .

ب — شعبة الساميات الجنوبية ، وفروعها : العربية ، واليمينية القديمة ، والحبشية السامية .

(٢) مجموعة اللغات الحامية ، وهي ثلاث شعب :

آ — الشعبة المصرية وتضم اللغتين : المصرية القديمة ، والقبطية .

ب — الشعبة الليبية أو البربرية وتضم القبية (لغة الجزائر القديمة) والشاوية (في الجزائر) والتماشكية (في صحراء المغرب) والشلحية (في جنوب المغرب قديماً) والجونشية (في شمال الصحراء الكبرى) .

ج — الشعبة الكوشيتية (في قسم من شرق إفريقية) .

(١٤) انظر الوحيير في فقه البعة ص ٧٢ وما بعدها . وعلم البعة د . علي عبد الواحد وا في ص ١٩٧ وما بعدها .

وإليك سمات الفصيلة السامية الحامية :

- ١ — موطنها الأول بلاد العرب ثم الجبهتان الشرقية والشمالية من إفريقية .
- ٢ — الناطقون بها متجانسون يتلاقون في الأنساب ويتقاربون في الأوطان ، ويتفقون في أساليب الحياة ، وفي النظم الاجتماعية ، وفي طبيعة الحضارة بصورة عامة .
- ٣ — مجموعة اللغات السامية أشد تجانساً من المجموعة الحامية ، ويبلغ التشابه أحياناً حدّ التطابق في جذور الألفاظ وفي الأصوات وقواعد النحو حتى تبدو كأنها لهجات متفرعة من لغة واحدة .
- ٤ — المجموعة الحامية يعوزها التجانس ، وأوجه الاختلاف أظهر من أوجه الشبه ، حتى كأن الاسم لا الخصائص عنصر الوحدة الذي يجمعها .
- ٥ — العربية أقوى الساميات والحاميات ، والدليل على قوتها طمسها اللغات القديمة وبقاؤها ، وسيادتها في بقاع شاسعة ، وتأثيرها في اللغات المجاورة كالفارسية والهندية والتركية ، وانتشارها بين المسلمين في العالم كله^(١٥) .

٣ — فصيلة الألسن الطورانية : تضم هذه الفصيلة مجموعة من اللغات لا يمكن إلحاقها بالفصيلتين السابقتين ، وأبرزها اللغة الصينية التي ينطق بها أكثر من مليار ناطق ، واليابانية ، والتركية والمغولية . ومن يقرن خصائص هذه اللغات بعضها ببعض يدرك أنه ليس بينها ما يجمعها في إطار واحد ، أو ما يسوغ تسميتها باسم واحد ، وأهم سماتها :

- ١ — الناطقون بها أكثر من الناطقين بالفصيلة السامية الحامية وأقل من الناطقين بالفصيلة الهندية الأوروبية .
- ٢ — ليس بين الشعوب الناطقة بها جامعة من نسب أو عقيدة أو حضارة .
- ٣ — ليس بين عناصرها اللغوية من أصوات ومفردات وتراكيب تشابه يسوغ جعلها فصيلة واحدة . أي : أن اللغات التي تنتمي إليها تفتقر إلى مقومات الوحدة ، فالتسمية شكلية لا علمية^(١٦) .

وخلاصة القول في نظرية مولر أنها قدمت للباحثين تصنيفاً تقريبياً يستعينون به على دراسة اللغات وتقسيمها إلى فئات . ولكنها لم تُقَمَّ هذا التصنيف على أساس علمي مستمد

(١٥) طر الوحبر في فقه اللغة ، محمد الأصاكي ص ٧٤ — ٧٥ وعم السعة ، د . علي عبد الواحد وإي ص ٢٠١ وما بعدها .

(١٦) انظر عم السعة د . علي عبد الواحد وإي ص ٢٠٦ — ٢١٦ فإن فيه دراسة مفصلة هذه الفصيلة .

من عناصر اللغات : أصواتها ، وألفاظها ، وتراكيبها ، وأساليبها . وإذا كانت قد أصابت حظاً من النجاح فنجاحها يعود إلى دقتها في دراسة فصيلة واحدة أو شعبة واحدة من فصيلة واحدة ، هي شعبة اللغات السامية . وهذه الدقة لا تدلّ على مقدرة الباحث وحسب ، بل تدلّ كذلك على ما في اللغات السامية من ترابط ، وما في العربية من خصائص وضعت بين يدي مولر وأمثاله من الباحثين عناصر الدراسة جاهزة ، فوفق في دراستها ، ولم يوفق في دراسة الفصيلتين الأخرين .

ب) نظرية شليغل

يبدو أن شليغل Schlegel حاول ، وهو يصنف لغات البشر ، أن يستدرك ما فات مولر من أسس راسخة ، ينهض عليها التقسيم ، وأن يستمد مبادئه من عناصر اللغات . ولهذا أقام نظريته على أساسين : أحدهما علمي يستنبط من طبيعة اللغة ، والآخر تاريخي يتألف من الزمن الذي ظهرت فيه اللغة . والمراحل التي شهدت تطورها من طفولتها إلى شبابها ونضجها .

أما الأول فجوهره تحليل اللغة أصواتاً وألفاظاً وجمالاً وصرفاً ونحواً لمعرفة العلاقة بين المبنى والمعنى . وأما الثاني فغايته أن يحث الباحث على مقارنة اللغات المتباينة في الخصائص ، ليعرف أيها السابقة وأيها اللاحقة . والاعتماد على هذين الأساسين أفضى بشليغل إلى التصنيف الثلاثي التالي :

١ — اللغات المتصرفة أو التحليلية : أهم ما يميز هذه اللغات أن ألفاظها متصرفة ، تتغير أبنيثها تغيراً اشتقاقياً ، فيتولد بعضها من بعض ، وتتغير معانيها بتغير أوزانها وصيغها . فمن (العلم) تشتق : علم ، يعلم ، تعلم ، استعلم ... وغيرها من الأفعال ، والعالم والمعلوم والمتعلم ... وغيرها من الأسماء ، ولكل منها صيغة ودلالة . وأبرز اللغات المتصرفة اللغات السامية وأكثر الساميات تصرفاً العربية . ومن هذه اللغات أيضاً « الفارسية ، والهندية ، واللاتينية ، والإغريقية ، والجرمانية » .

٢ — اللغات اللصقية أو الوصلية : سمتها الأولى أن ألفاظها تبني بناء لصقياً ، أي : بإضافة مقطع إلى أول الكلمة . ويسمى هذا المقطع سابقة Prefix ، أو مقطع إلى نهايتها ، ويسمى هذا المقطع لاحقة Sufixe . وبهذه السوابق واللواحق تغنى اللغات ، وتزداد مفرداتها ، وتتغير معانيها . ومن اللغات المنتمية إلى هذه الفصيلة « التركية ، والمنغولية ، والمنشورية ، واليابانية ، ولغات الباسك » .

٣ — اللغات العازلة : تتألف الألفاظ في هذه اللغات من كلمات تنزم كل منها صورة ثابتة

لا تتغير ، وتحمل دلالة واحدة لا تتبدل . وهذه اللغات تفتقر إلى الأدوات الرابطة التي تصل أجزاء الجملة بعضها ببعض ، وتعتمد في تحديد المعاني ، وفي ربط الكلام على ترتيب المفردات في الجملة الواحدة ، أو على السياق العام . ومن اللغات الآخذة بهذا الأسلوب اللغة الصينية ، ولغة التيب (١٧) .

وإذا أردت أن ترتب هذه الفصائل الثلاث ترتيباً زمنياً فقل : أقدمها ظهوراً اللغات العازلة . ثم اللغات اللصقية ، وفي نهاية المطاف ظهرت اللغات المتصرفة ، وهي ، وإن كانت الأخيرة في الظهور ، تُعدّ الأولى في النماء والارتقاء .

ومع أن نظرية شليغل حاولت أن تصف اللغات تصنيفاً علمياً مستمداً من خصائص اللغات ، فإنها لم تبرأ من الهنات ، ولم تنج من النقد ، إذ أخذ عليها النقاد عدة مآخذ أبرزها مأخذان :

أولهما أنها لم تتوصل في التصنيف إلى مقياس دقيق ، إذ تجد العزل واللصق والتصريف سمات عامة في سائر اللغات ، غير أن بعضها يرجح سمة على أخرى . فالعربية . على سبيل المثال . لغة متصرفة لكنها لا تخلو من الإلصاق كصياغة أكرم من كرم بإضافة الهمزة . ولا تخلو من العزل ، نحو : ضرب أخي صديقي لاختفاء حركتي الإعراب ، وتمييز الفاعل من المفعول بالاعتماد على الترتيب .

وثانيهما أن الترتيب الزمني افتراض تخميني ، لاحقيقة يقينية . فربما كانت إحدى اللغات المتصرفة أسبق ظهوراً من بضع لغات عازلة أو لصقية .

وخلاصة القول في نظريتي مولر وشليغل أن اللغة ظاهرة إنسانية معقدة ، وتعدد اللغات زاد في تعقيد السمات ، ولهذا عجزت النظريتان كلتاهما عن الوصول إلى تصنيف علمي دقيق ، تُسلك فيه اللغات الإنسانية كلها ، غير أننا — ونحن نقرُّ بما أخذ على النظريتين — نتقبل تصنيف مولر ، ونجعله منطلقاً إلى دراسة الفصيلة السامية ، ثم إلى دراسة لغتنا العربية ضمن هذه الفصيلة .

(١٧) للوقوف على تحصيل واف ، وقد شاف نظرية شليغل بصر موحيز في فقه اللغة ، حمد الأبطاكي ص ٧٠ وما بعدها ، وعمم اللغة الدكتور علي عبد الواحد وفي ص ١٩٥ وما بعدها .

اللغات السامية

أولاً — تصنيف اللغات السامية وأشهر دارسيها .

ذكرنا قبل أن اللغات السامية والحامية إحدى الفصائل اللغوية الإنسانية، ونزيدها توضيحاً فنقول : « هي جملة من اللغات كانت شائعة منذ أزمان بعيدة في بلاد آسيا وإفريقية، سواء منها ما عفت آثاره وما لا يزال باقياً إلى الآن »^(١)، وتقسم بحسب اندثارها وازدهارها ثلاث زمر :

١ — زمرة اللغات المندثرة، وهي التي انطوت فلم يبق منها إلا عبارات يسيرة، ومثالها الكنعانية القديمة .

٢ — زمرة اللغات دوات النصوص المكتوبة، وهي التي انخرست عن الحياة اليومية، وخلقت نصوصاً مكتوبة تدل عليها، وأكثر نصوصها نقوش تحفظها ألواح الحجارة والفخار، ومثالها الأكادية، والسبئية .

٣ — زمرة اللغات الحية المزدهرة، وهي التي أوتيت من القوة ما حفظ لها البقاء، وأمدتها بعوامل النماء، وأقواها العربية، وتليها العبرية، والسريانية، والحبشية السامية^(٢) .

ويجمع الباحثون المحدثون على أن أول من سماها باسمها (اللغات السامية) هو العالم الألماني شلوتسر Shlozer في بحث نشره عام ١٧٨١ م. ثم شاعت هذه التسمية^(٣) . ولكن سبق إلى التسمية لا يعني سبق إلى الدراسة . فقد عني العرب المسلمون أو من عايش

(١) تاريخ اللغات السامية، إسرائيل ولفسون ص ٢ مصر ١٩٢٩ م.

(٢) مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية، د. هاشم الطعان ص ٣ العراق ١٩٧٨ م.

(٣) المصدر السابق ص ٣.

المسلمين من اليهود بدراسة ما تدعو الحاجة إلى دراسته من اللغات السامية غير العربية . ورد في الأثر « أنه كانت ترد على رسول الله ﷺ كتب بالسريانية ، فأمر زيداً فتعلمها » . و « ذكروا أن أبا سليمان داود بن إبراهيم الفاسي ألف معجماً ضخماً للغة العبرية ، يقع في مجلدين ، وجعل شرحه للألفاظ بالعربية »^(٤) . ومن يعد إلى مروج الذهب للمسعودي يجد فيه ذكراً « لأسماء شهور السريانيين ، ولوصف موافقتها لشهور العرب »^(٥) . وقد نقر الدكتور هاشم الطعان عما أسهم به علماء العرب القدماء في هذا الميدان ، فتحصل له قدر وافر من الإشارات والأخبار الدالة على أن العرب لم يغفوا عن دراسة اللغات السامية ، ولا عن مقارنتها بلغتهم العربية^(٦) . ولكنهم لم يبلغوا في هذا الميدان مبلغ الدارسين المحدثين من عرب ومستشرقين .

ومع ازدهار النهضة الأوروبية واكتشاف الآثار والأوابد والألواح الحجرية التي نقشت عليها نصوص باللغات السامية ، ومع تنافس المؤسسات العلمية والتعليمية والإعلامية في السيطرة على الشرق ازدهرت الدراسات الشرقية ، وازدهرت معها دراسة اللغات السامية ، وراحت الجامعات في أسبانيا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا تنشيء الكراسي المتخصصة بتدريس اللغات العربية والعبرية والسريانية ، مدفوعة إلى ذلك كله بمطامع استعمارية ، ومشفوعة بنوازع دينية ، أو بدوافع بابوية .

ومن أشهر الدارسين الغربيين الذين عنوا بدراسة اللغات السامية رينان Renan ونولدكه Noldeke وريت Wright وزيمير Zimmer وبروكلمان Brokelman^(٧) . ومن يراجع كتاب (المستشرقون) للدكتور نجيب عقيقي يجد فيه عشرات الدارسين من هذه الطبقة المتخصصة ، أو من طبقة أدنى منها ، ويجد مئات البحوث والكتب التي تناولت بالتأريخ والدرس والتحليل والمقارنة لغات الشرق السامية^(٨) .

ثانياً — أقدم اللغات السامية

ذكرنا قبل أن شلوتسر أطلق على مجموعة اللغات التي كانت شائعة في القسم الجنوبي

(٤) المصدر السابق ص ٨

(٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ٢ ١٧٨ دار الأندلس بيروت .

(٦) الفصل الأول من (مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية) .

(٧) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص ٤ — ٥ الصبعة السادسة دار هبة مصر القاهرة .

(٨) انظر (المستشرقون) لنجيب عقيقي دار المعارف ١٩٨٠ م .

الغربي من آسيا وفي القسم الشمالي الشرقي من إفريقية اسم (اللغات السامية) . ومع أن هذه التسمية لم تنج من نقد العلماء الآخرين ، فقد شاعت ، ودل شيوعها على أنها «أصلح وأدق ما اهتدى إليه العلماء»^(٩) .

ومما يسوغ قبول هذه التسمية أنك لو قارنت مجموعة الشعوب الناطقة بفصيحة اللغات السامية بمجموعات الشعوب الناطقة بالفصائل اللغوية الأخرى لوجدت شعوب المجموعة السامية أكثر تجانساً في الأعراق والأخلاق ، وأشد تقارباً في الأمكنة والألسنة . غير أن شرف الفوز بالبذرة السامية الأولى أو بالجذر السامي الأول موضع تنافس ، إذ يتنازع قصب السبق أكثر من شعب ، وأكثر من أرض . وآراء العلماء في هذا الميدان يمكن تقسيمها إلى مجموعتين : إحداهما ضعيفة تعوزها الأدلة المرجحة ، والثانية قوية تستند إلى أدلة معقولة .

١ — تضم مجموعة الآراء الضعيفة ثلاثة أقوال :

أولها يذهب إلى أن الساميين الأوائل هم أهل الحبشة ، ومن باب المندب رحلوا عنها إلى جزيرة العرب .

وثانيها أنهم ظهروا في أعلى إفريقية ، فلما كثروا نفروا إلى أدنى آسيا .
وثالثها أنهم من أرمينيا جارة كردستان . وليس بين هذه الآراء رأي واحد يرقى من أفق التخمين إلى أفق اليقين .

٢ — وتضم مجموعة الآراء القوية ثلاثة أخرى . تستند إلى أدلة تاريخية وشواهد حضارية ترجحها :

أولها رأي رآه غويدي Guidi وخلاصته أن المهد الأول للساميين هو القسم الجنوبي من العراق^(١٠) ، ودليله مجموعة من الكلمات السامية القديمة متصلة أشد الاتصال بطبيعة جنوب العراق مبنوثة في اللغات السامية كلها . وهذا يعني أن تلك الألفاظ خرجت مع الموجة السامية الأولى التي نزحت من العراق ، ثم ثبتت في الألسنة السامية الأخرى بعد أن تشكلت واستقلت . غير أن نولدكه رفض هذا الرأي . وحجته أن نظرية خطيرة في مثل هذا الشأن ، ولها مثل هذا الوزن لا يمكن إثباتها ببضع كلمات . ومما يجعل حجة غويدي داحضة أن في اللغات السامية ألفاظاً كثيرة لا صلة لها بمنطقة العراق الجنوبية ، وهي من الكلمات التي تشترك الساميات في استخدامها . وهذا يعني أن السامية الأولى لم تخرج من سواد العراق إلى المناطق التي تجاوره .

(٩) الوحير في فقه اللغة ص ٨٠ .

(١٠) فقه اللغة د . عي عبد الواحد وافي ص ٦ .

وثاني الآراء القوية أن المهد السامي الأول سورية لا العراق . ففي بلاد الشام ازدهرت حضارة كنعان منذ أزمنة موعلة في القدم ، لأن التاريخ لم يرو ، فيما روى ، أن سورية شهدت حضارة أقدم من حضارة الكنعانيين . أما القسم الجنوبي من العراق فتابع في الحضارة لا متبوع ، إذ سبقت حضارته الأكادية حضارة أخرى هي حضارة سومر ، والسومريون أنفسهم نازحون من سورية لا عراقيون . فإذا أخذنا بهذا الرأي ثبت لنا أن السوريين الكنعانيين أسبق الساميين إلى الحضارة ، أي أنهم المبتكرون الأوائل للغة السامية الأولى . وعندهم أخذ السومريون والأكاديون هذه اللغة ، ثم غيروا وطوروا قبل مولد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثين قرناً .

وثالث الآراء القوية وأقواها قول من قال : إن المنابت الخصبة الأولى للسامية والساميين بلاد نجد والحجاز واليمن . وبهذا الرأي أخذ أكثر المستشرقين ، وعلى رأسهم رينان الفرنسي ، وبروكلمان الألماني^(١١) ، وشفعوا رأيهم بأدلة تاريخية وجغرافية ولغوية ، تثبت أن أرض العرب التي أهدت العالم الإسلام بعد المسيح بستة قرون هي التي أهدت العالم اللغة السامية الأولى قبل المسيح بقرون كثيرة .

أما الدليل التاريخي فخلاصته أن الهجرات البشرية كانت تسير في اتجاه واحد ، إذ تخرج من اليمن والحجاز إلى العراق والشام على نحو متواتر . فمن هذه البقاع خرج الساميون السابقون إلى سومر في العراق ، وأقاموا حضارة بابل . ومنها خرج الساميون اللاحقون إلى سورية ، فشادوا حضارة كنعان . ومنها خرجت ثمود ، فأقامت حضارة خاصة بها في القسم الشمالي من الحجاز . ومنها خرج بنو قيدار ، فبنوا مدائن صالح ، ثم اتجهوا نحو خليج العقبة فعمروه وحضره . ومنها نبت بنو نابت المعروفين باسم النبط ، فشادوا دولة الأنباط في القسم الجنوبي من بلاد الشام . ومنها خرج الغساسنة إلى جلق ، والمناذرة إلى الحيرة . وآخر الهجرات وأبقاها أثراً ، وأوسعها حضارة تلك التي انبثقت من الحجاز مع انبثاق الإسلام ، فكانت هذه الموجة خير أمة أخرجت للناس ، وبقيت لغتها خير لغة أنجبتها السامية ، وأرقاها حتى يومنا هذا .

وأما الجغرافيون فيقولون — والقول بلسان الأمير كيتاني دوتيانو Caetani De Teano^(١١) — : إن الجزيرة العربية من اليمن إلى الحجاز فنجد كانت كثيرة النبات والأقوات ، ثم حلّ بها الجذب بعد الخصب ، فنزح أكثر الخلق إلى الشمال ، نحو بردى والعاصي والفراتين ، وحملوا معهم فيما حملوا لغتهم أم اللغات السامية .

وأما الدليل اللغوي فجوهره أن اللغات السامية بنات البداوة ، والبداوة بنت الشمس الدائمة البروز ، وأم الصراخة الكارهة للغموض ، والعربية ألصق الساميات بهذه السمات ، ولهذا كثرت في مفرداتها الألفاظ الحسية ، حتى إنك لتستطيع أن تردّ أعمق الألفاظ المجردة ، وألصقها بالعقل والنفس إلى أمور حسية . فالعقل نفسه من عقل الجمل ، والنفس من النفس المتردد في الصدر ، والروح من رواح الريح وغدوُّها ، والعفو عن الذنب متحدر من الريح التي تغفو آثار الديار . كل ذلك يدل بلا ريب على أن العربية هي السامية الأولى ، وعلى أن المهد الأول للساميين هو الهلال الذي أعلاه نجد ، وقوسه الحجاز ، وأدناه اليمن .

وإذا رجح لديك أن جزيرة العرب مهد الساميين الأوائل ، فقد رجح لديك كذلك أن لغتهم أم اللغات السامية . غير أن هذا الرجحان لا يعني أن أم الساميات هي عربية امرئ القيس والشنفرى ، وإنما هي الجدة العجوز السحيقة الغور في تاريخ هذه البلاد . وهذه الجدة الولود كانت قد تمخضت عن لهجات قبلية كثيرة ، تحولت فيما بعد بعوامل الانفصال والاستقلال ، واختلاف الأمكنة والأزمنة من لهجات إلى السنة ، هي الأكادية والكنعانية

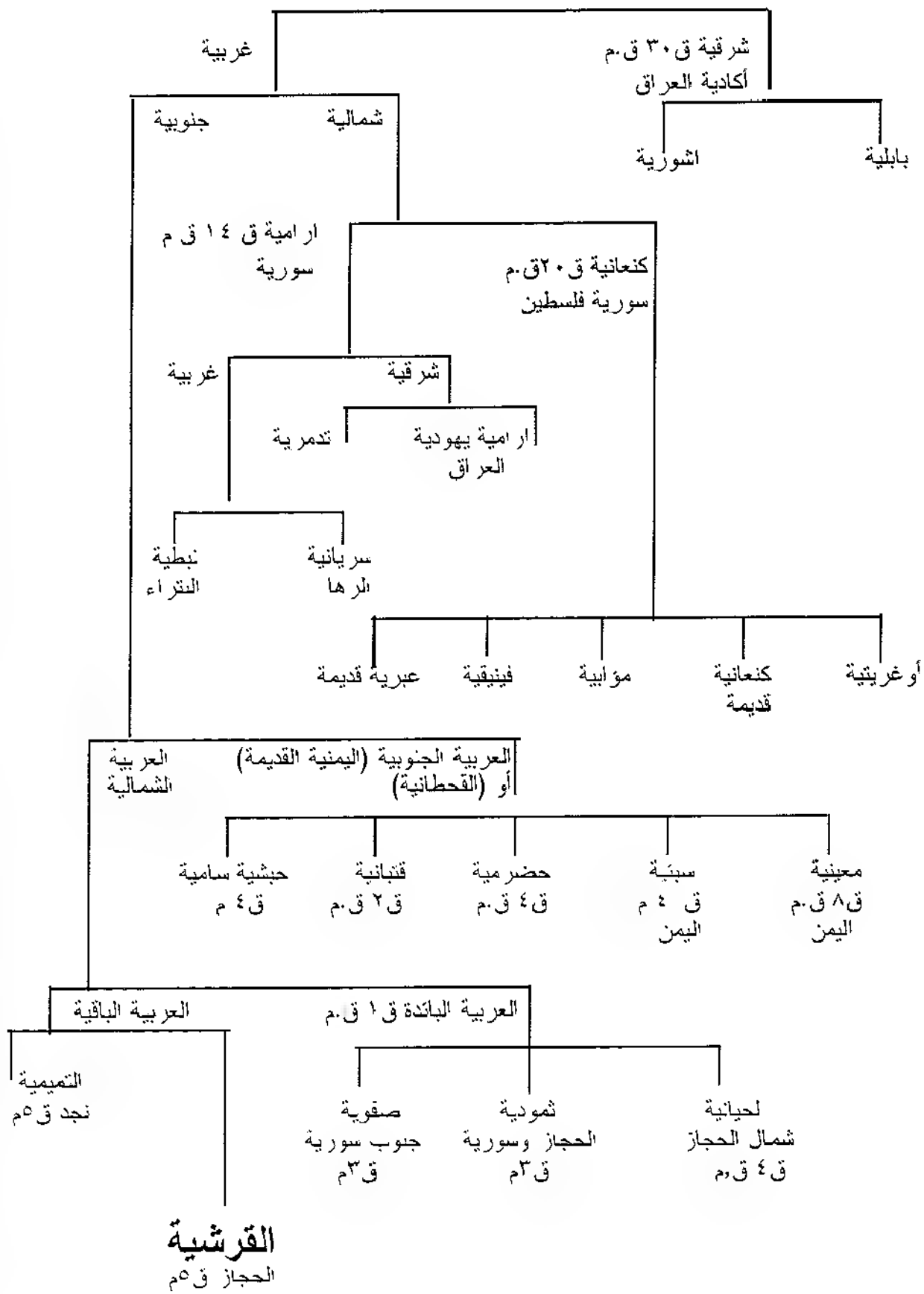
وحرصاً على توضيح الروابط التي تشد هذه اللغات بعضها إلى بعض ، وفروعها إلى أصولها رأينا أن نسكها في مخطط مشجر ، يتيح لقارىء بالنظرة العجلى أن يعزو كل بنت إلى أمها . وقد استنبطنا هذا المخطط الذي أسميناه (شجرة اللغات السامية) من بحث مفصل للدكتور علي عبد الواحد وافي^(١٢) ومن مخططين : أحدهما للدكتور رمضان عبد التواب^(١٣) ، والآخر للأستاذ محمد الأنطاكي^(١٤) .

(١٢) فقه اللغة ص ١٥٧ .

(١٣) فصول في فقه اللغة العربية ص ٣٦ .

(١٤) اوحيز في فقه اللغة ص ١٤٥ .

ثالثاً- شجرة اللغات السامية (فروعها ، ومواطنها ، أزمنة ظهورها)



رابعاً — أبرز اللغات السامية

سواء أكانت العربية الأم الكبرى للغات السامية أم البنيت الصغرى لها، فحسبها وحسب الناطقين بها شرفاً إجماع المستشرقين المنصفين على أن أهلها قدموا للبشرية أكثر من موجة مهاجرة، شادت أكثر من حضارة. وابتكرت أكثر من لغة، بعضها ساد ثم باد، وبعضها ما زال حياً قوياً يثبت حيوية هذه الفصيلة من البشر ومن الألسنة، كما يبرهن على خصبها الحضاري المتجدد الذي لم ينفد مخزونه منذ أربعين قرناً حتى يومنا هذا.

ولما كانت شجرة اللغات السامية كثيرة الأفنان مثقلة بالثمار اليابسة واليانعة ففي عرضها كلها إطالة وملاحة، ولذلك تخيرنا ما نظن أنه أجدر من سواه بالعرض والموازنة.

آ) اللغة الأكادية^(١٥)

في الألف الرابع قبل الميلاد شاد السومريون — وهم شعب غير سامي — بين نهري دجلة والفرات دولة مزدهرة. وفي الألف الثالث غزا هذه الدولة الأكاديون. وهم شعب سامي خرج من جزيرة العرب. ويم شطر العراق، واحتاح بلاد سومر، ومن امتزاج السومريين والأكاديين وعلى أنقاض سومر المنهارة نهضت دولة بابل، ثم دولة آشور. أشهر الزعماء البابيين حمورابي [ت: ٢٠٨١ ق. م] ^(١٦) صاحب القوانين المشهورة، ونبوخذ نصر صاحب الحقائق المعققة، وأشهر ملوك آشور تفلث قلاصر الأول رجل السيف المحارب الغليظ الكبد، وآشور بانيبال باني النهضة وراعي الأدب [ت: ٦٢٦ ق. م] ^(١٧). ومع أن دولة آشور ورثت دولة بابل. ومع أن بناء الدولتين ساميون متحدرون من عرق واحد، فقد كان لكل دولة منهما لغتها وأدبها وفنونها. وسمى الباحثون المحدثون كتنا اللغتين باسم واحد هو اللغة الأكادية.

لولا التنقيب عن آثار الدولتين الذي أظفر المنقبين بالنقوش المكتوبة ما كشف النقاب عن اللغة الأكادية. «وأول من بدأ الحفر في بلاد الرافدين هو بوتّا Botta قنصل فرنسا في الموصل عام ١٨٤٢ م... ثم توالى الاكتشافات بعد ذلك، وشارك فيها كثير من علماء

(١٥) في بعض مصادر نرسم كدية تحذف الألف ويسمى في المصادر الأحيية Akkad والمسوبة إليها Akkadian أي أكادي.

(١٦) قصة الحصاة، ول ديورانت ٢ ١٨٨.

(١٧) المصدر السابق ٢/٢٩٩.

الآثار الفرنسيين والإنكليز والأمريكان ، مثل باروت Parot ولايارد Layard ومالون Mallown^(١٨) .

وفي عام ١٨٤٧ م استطاع الباحث هنري رولنسن H. Rawlinson أن يحل رموز الكتابة الأكادية حينما وجد صخرة نقشت باللغات الثلاث : الفارسية والآشورية والبابلية ، فكانت منزلة هذه الصخرة في علم اللغات كمنزلة حجر رشيد في الكشف عن لغة الفراعنة . ومن يتعقب أطوار اللغة الأكادية بفرعيها البابلي والآشوري يجدها أربعة أطوار : في الطور الأول (في القرن العشرين قبل الميلاد) سادت البابلية . وفي الطور الثاني (من القرن العشرين إلى القرن السابع قبل الميلاد) ضعفت دولة بابل وظلت لغتها سائدة .

وفي الطور الثالث (طوال القرن السادس ق . م) سقطت الدولة في قبضة الفرس ولم تسقط لغتها .

وفي الطور الرابع فرض الآراميون المغيرون على العراق لغتهم على بابل ، فانهزمت الأكادية . وتحولت إلى لغة دين وأدب^(١٩) .

ب (اللغة الكنعانية وما تفرّع منها

يرجح الباحثون المحققون أن الكنعانيين شعب سامي ، نزع من اليمن والحجاز إلى فلسطين وسورية ، وأنه بدأ مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد ينشئ ممالك قوية ، أخذ سلطانها يمتد حتى شواطئ أوروبا الجنوبية . وأشهر الشعوب الكنعانية الفينيقيون والعبريون :

أ — الفينيقيون ولغتهم : لم يبرع الفينيقيون في شيء براعتهم في التجارة والكتابة ، وتفوقهم في الأولى يسّر لهم سبل التفوق في الثانية . فقد تمخضت تجارتهم التي وصلت إلى رأس الرجاء الصالح عن ثراء عريض ، حتى قيل عن مدنيهم : « إن الذهب فيها كالوحد ، والفضة كالتراب »^(٢٠) . وحملتهم التجارة المزدهرة على ابتكار وسيلة كتابية سريعة ، فاخترعوا أعظم المخترعات الثقافية وهو الرسم الأبجدي ، أي الكتابة بالحروف Alphabet .

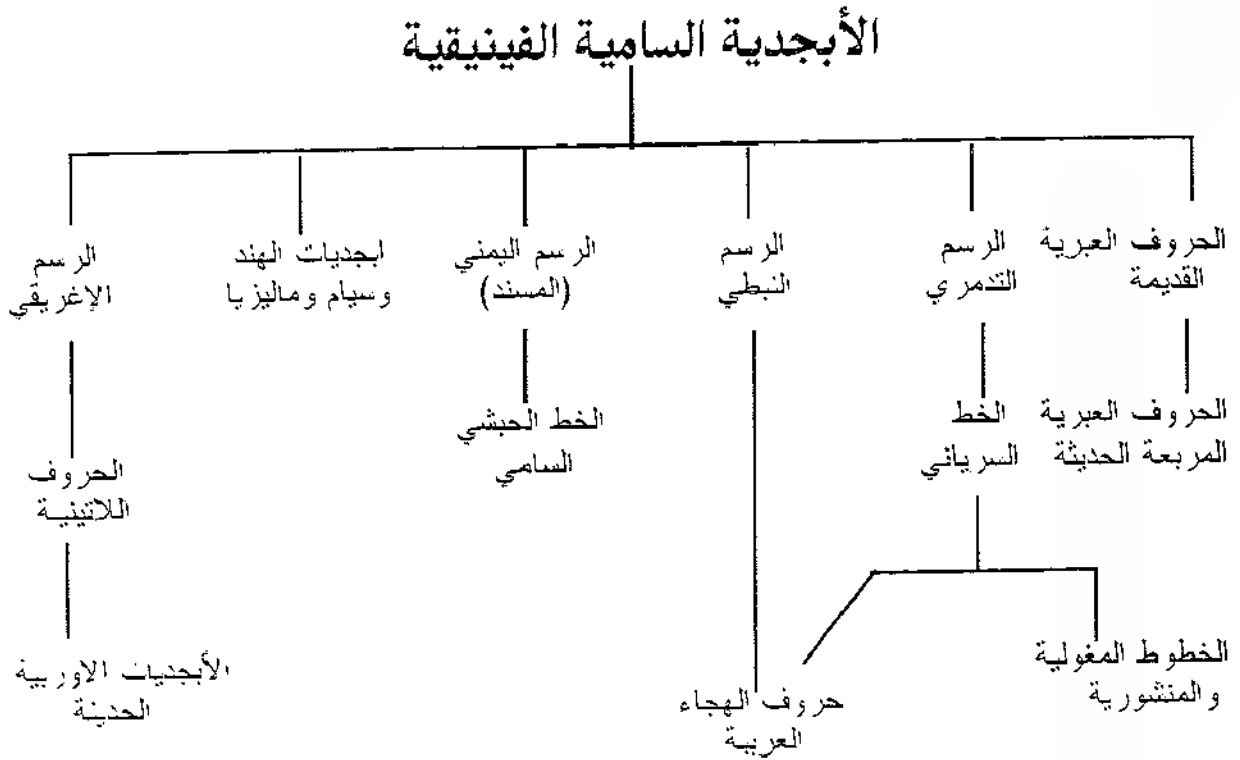
أهم خصائص هذه الكتابة استخدام الرموز أي الحروف التي يرمز كل حرف منها

(١٨) فصول في فقه اللغة ص ٢٦ .

(١٩) انظر فقه اللغة د . علي عبد الواحد وفي ص ٢٨ — ٢٩ .

(٢٠) قصة الحضارة ٣١٤ / ٢ .

لصوت . وهذا الأسلوب يُعدُّ « أسرع الأساليب وأدناها إلى الكمال »^(٢١) . ولذلك برزت الأبجدية الفينيقية الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة ، والخط المسماري الأكادي . فشاعت وتقبلتها الشعوب واللغات ، وتفرعت منها « جميع حروف الهجاء التي استخدمت فيما بعد في مختلف اللغات الإنسانية »^(٢٢) ، على النحو الذي يوضحه هذا التخطيط الذي يسمى شجرة الأبجدية السامية الفينيقية :



وكان المؤرخون يظنون أن الأبجدية الفينيقية ولدت مع مولد القرن التاسع قبل الميلاد ، ودليلهم نقش يعود إلى سنة ٩٠٠ ق . م صنعه الملك الموائي (ميشع) ليسجل فيه بالأبجدية الفينيقية انتصاره على ملك إسرائيل . ثم اكتشف المنقبون في سيناء نقشاً أقدم من نقش ميشع ، يقدر عمره بخمسة وثلاثين قرناً على الأقل . وهذا يعني أن الأبجدية الفينيقية

(٢١) فقه اللغة ، د . عبيد الواحد وافي ص ٣١ .

(٢٢) فقه اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص ٣١ .

استخدمت قبل المسيح عليه السلام بنحو خمسة عشر أو عشرين قرناً^(٢٣).

ولم تبرأ الأبجدية الفينيقية — على جمالها وكملها ويُسرهما — من النقد . وخلاصة ما أُخذ عليها أنها وضعت رموزاً للحروف السواكن (ب ، ت ، ث ...) ولم تُعن العناية الكافية بحروف المدّ اللينة (ا ، و ، ي) . ولهذا اضطرت الأبجديات المشتقة منها إلى أن تضيف رموزاً جديدة ، تمثل حروف المد الطويلة ، (ا ، و ، ي) ورموزاً أخرى تمثل حروف المد القصيرة : الفتحة والضمة والكسرة . وهذه الضوابط القصيرة تعلو الحروف أو تنحط عنها لتنضبط حركاتها في الخطّ العربي . وتعلوها في أغلب الأحيان عند السريان ، وتنحط عنها في الخطّ العبري^(٢٤).

ولما كانت اللغة أصواتاً منطوقة مسموعة قبل أن تكون رموزاً مكتوبة ، فقد درس علماء اللغة ما ظفروا به من نقوش اللغة الفينيقية في جبيل وصيدا وصور وقبرص ليقفوا على نطقها وصرفها ونحوها ، ثم ليقارنوها بالعربية والعبرية . فتبين لهم أنها في النحو والصرف أقرب إلى العربية ، وأنها تبتعد عن العبرية في تركيب الجمل ، ولا تشبهها إلا في الجذور أي : في الحروف الأصلية التي تبنى منها الكلمات المشتقة^(٢٥).

ج) اللغة العبرية

يعتقد اليهود أنهم في عام ٢٢٠٠ ق . م قدموا من سومر إلى فلسطين ، فنزلوا على سواحلها . وهذا النزول وضعهم بير حجري الرحي : المصريين في الجنوب والفينيقيين في الشمال . وإن شئت أن تضيف حجراً ثالثاً فأضيف الآشوريين في الشرق . ولذلك لم يستقر بهم المقام ، وتعرضوا لغزوات كثيرة ، فنزح كثير منهم إلى مصر ، ثم كثروا بالتناسل أيام موسى ، وتعرضوا لغزو الكنعانيين .

واللغة العبرية التي تعد لهجة كنعانية لم تكن لسان العبريين جميعاً ، وإنما كانت لسان « فرع واحد من فروعهم ، وهو فرع بني إسرائيل ، وقد نزح بنو إسرائيل من شبه جزيرة سينا ، وأغاروا على بلاد كنعان »^(٢٦) . « وأهم نص كتب بها هو كتاب العهد القديم »^(٢٧).

(٢٣) المصدر السابق ص ٣٣ .

(٢٤) المصدر السابق ص ٣٤ .

(٢٥) المصدر السابق ص ٣٧ وما بعدها .

(٢٦) فقه اللغة ، د . عي عبد الواحد وفي ص ٤١ .

(٢٧) فصول في فقه اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص ٢٨ .

ثم اصططلحت على العبرية عوامل كادت تحطمها، «إذ كان السبي البابلي، وتخريب بيت المقدس على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق. م تجربة قاسية للغة العبرية»^(٢٨). «ومع ابتداء العصر الهليني انتهت حياة اللغة العبرية، إذ لم يستطع ذلك العدد الضخم من اليهود الذين رحل معظمهم حينذاك ناحية الغرب أن يحتفظ بلغته الأصلية في وسط يتكلم الإغريقية»^(٢٩).

«وكان زوال ملك اليهود السياسي، وتدمير بيت المقدس، عام ٧٠ م بأيدي الرومان من أعظم الحوادث التي أثرت في تاريخ اليهود الديني واللغوي، وغيرت مجراه. فقد أدى شتاتهم في بلاد العالم إلى تأثرهم بلغات تلك البلاد. وكان أكثرها أثراً في لغتهم هي اللغة العربية بعد الفتح الإسلامي. وقد بلغ هذا التأثير درجة جعلت اليهود ينظمون قواعدهم على غرار قواعد النحو العربي، كما اتخذ شعراؤهم من أوزان الشعر العربي قوالب يصبون فيها أشعارهم»^(٣٠).

وربما كان لتدوين العهد القديم نأسفاره الخمسة، ثم لتدوين المشنا والتلمود بشروحه المفصلة الأثر الأول في الحفاظ على اللغة العبرية من الانهيار والاندثار، إذ جعلها هذا التدوين لغة دينية عند اليهود كافة لا عند بني إسرائيل خاصة. غير أن التدوين فصل العبرية الحديثة عن القديمة. «فعبية اليهود الآن في أوروبا تختلف اختلافاً بيئاً عن العبرية القديمة، سواء في ذلك القواعد والمفردات والأصوات. وذلك بسبب من تأثيرات لغوية محلية. واليهود الشرقيون الذين يعيشون في الأرض المحتلة اليوم يقدون اليهود الآخرين القادمين من أوروبا في كل عاداتهم اللغوية»^(٣١).

وليس الخروج عن النطق الصحيح أمراً طارئاً على اللغة العبرية، فقد أصاب لهجاتها المنطوقة، حتى قبل أن يدون بها العهد القديم والمشنا والتلمود، قدر كبير من التحريف. «وفهم مما ورد في الأصحاح الثاني عشر من سفر القضاة أن النطق ببعض الكلمات كان يختلف باختلاف المناطق، وأن بعض المناطق كان يصعب على أهلها النطق بكلمات منتشرة في مناطق أخرى»^(٣٢).

(٢٨) المصدر السابق ص ٢٨ — ٢٩.

(٢٩) المصدر السابق ص ٢٩.

(٣٠) المصدر السابق ص ٣٠.

(٣١) الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي ص ٩٣.

(٣٢) فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وافي ص ٤٣.

ومهما يكن من أمر الحفاظ على النطق القديم أو التفلت منه ، فإن التطور الذي حققته اللغة العبرية في العصر الحاضر مرتبط بعاملين : تعلق دولة إسرائيل بترائها الديني والأدبي ، وتعصب اليهود في العالم عامة ، وفي أوروبا الشرقية خاصة ، وسعيهم إلى إحياء قوميتهم ، واستعمال لغتهم في الأدب والصحافة والتخاطب اليومي . لكن هذين العاملين عجزا عن الاحتفاظ بفصاحة النطق القديم ، حتى إن العرب الذين يتعلمون العبرية تعلماً أفصح نطقاً من اليهود الأوروبيين ويهود إسرائيل نفسها .

أما الخطُّ العبري فقد وقفتك شجرة الأبجدية الفينيقية على أنه فرع من فروع الخط الفينيقي الأول . غير أنه بعد أن تأثرت العبرية بالآرامية اتخذ الرسم العبري شكلاً آخر ، هو الحروف المربعة القائمة أو الحادة الزوايا ، وهو الخط الذي رسم به العهد القديم ، والخط المطبعي العصري . ولم يطرأ عليه إلا تغير طفيف اقتضته العناية بالنطق والحرص على تمثيل أحرف المد القصيرة ، وهي الفتحة والضمة والكسرة ، والضمة الممالة (O) والكسرة الممالة (e) . ولهذا ذيلت الحروف المربعة بإشارات ونقاط كثيرة ، تمثل الحركات المختلفة .

ولما كان رسم الحروف المربعة يحتاج إلى أناة وجهد ، فقد ثقل هذا الخط المطبعي على أيدي الناشئة . فلانت زواياه المكسرة ، ومرنت خطوطه المستقيمة وانحنت . فظهر خط يدوي مدور الحروف قليل الحركات والنقاط سريع الأداء .

د) اللغة الآرامية

بعد ألف سنة من هجرة القبائل الكنعانية إلى الشام والعراق من جزيرة العرب أخذت أرض الجزيرة تضيق بمن بقي فيها ، فانطلقت منها موجة أخرى . انطلقت القبائل الآرامية السامية من بيداها تيمم شطر الشام والعراق . ولم تكن غازية مدمرة ، بل كانت مسالمة ، تزحف زحفاً بطيئاً ، وتسعى إلى وطن آمن تستقر فيه . فلما قويت فرضت سلطانها على آشور وكنعان . وقد سبكت هذه الموجة الآرامية المهاجرة طريقتين ، فتحولت إلى فريقين :

أولهما اتجه نحو الشمال الغربي حتى انتهى به المطاف إلى الشام ، فزاحم الكنعانيين ، ثم زحمهم ، وراحت كل قبيلة تنشئ لنفسها وطناً ودولة ، وتستعير من الكنعانيين الثقافة والأدب وتفرض عليهم لغتها .

والثاني اتجه نحو الشرق حتى بلغ العراق ، وبدأت لغته تصارع الأكادية ، وتنتزع منها معاقلها ، « فلم ينتصف القرن الرابع ق . م حتى كانت الآرامية قد طغت على جميع الألسنة

في هذه المناطق ، وكانت الأكادية في عداد اللغات الميتة في المحادثة» (٣٣) .

والحق أن الآرامية طمست ثلاث لغات ، كانت سائدة في هذه البقاع لالغة واحدة .
« وقد نجم عن غزو الآراميين للبلاد الناطقة بالأكادية والفينيقية والعبرية أن تغلبت لغتهم على هذه اللغات ، مع أن الآراميين المغيرين كانوا في هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين» (٣٤) .

ولم تقنع الآرامية من النصر بطرد اللغات القديمة من الأسواق والمزارع والشوارع ، بل طردتها من ميادين الفكر ومحافل الشعر ، « وأصبحت لسان الأدب والفكر لكل سكان العراق والشام وجزء من الأناضول لعدة قرون» (٣٥) . « ثم امتد نفوذ الآرامية إلى بلاد تدمر والنبط وشبه جزيرة سينا ، كما يظهر ذلك من الآثار التي عثر عليها في هذه المناطق» (٣٦) .
« وقد بلغت عنفوان مجدها ، ووصلت منطقتها إلى أقصى درجات اتساعها في المرحلة المحصورة بين ٣٠٠ ق . م و ٦٥٠ ب . م . فقد بلغت في هذه المرحلة مساحة البلاد الناطقة بالآرامية نحو ٦٠٠ ألف كم مربع» (٣٧) .

ثم أدرك الآرامية الشتات بعد الثبات ، والهرم بعد الشباب ، فانشعبت مجموعتين :
أولاهما المجموعة الغربية التي انتشرت غربيّ نهر الفرات ، وأشهر لهجاتها : الآرامية الفلسطينية التي استخدمها اليهود في ترجمتهم للعهد القديم عن العبرية ، ثم في شرح المشنا المعروف باسم الجمارا ، ومن المشنا والجمارا يتألف التلمود ثاني الكتب اليهودية المقدسة بعد التوراة .

والثانية المجموعة الشرقية المنتشرة شرقيّ نهر الفرات ، وأشهر لهجاتها : السريانية ، وهي لسان مدينة إدسا Edessa كما كان يسميها اليونان ، أو الرها كما كان يسميها العرب . ونجمت شهرة هذه اللغة عن غزارة الآثار الفكرية والدينية والأدبية التي كتبت بها ، ثم عن احتكاكها باليونانية ، إذ أتاح لها هذا الاحتكاك أن تقتبس كثيراً من مفرداتها ومصطلحاتها

(٣٣) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص ٥٣ .

(٣٤) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص ٢٣٢ .

(٣٥) الوحيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص ٩٤ .

(٣٦) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص ٥٤ .

(٣٧) المصدر السابق ص ٥٣ .

العلمية وأساليبها الأدبية ، ومناهج التفكير اليوناني . فغزت مادتها ، وغدت قادرة على تمثل العقائد والفلسفات والعلوم .

ومع أن الآرامية انقرضت تماماً ، ففي العصر الحاضر بعض القرى المسيحية — وأشهرها معلولا الجبيلة — لم تزل متعلقة باللهجة السريانية الغربية كتعلق بعض المناطق الجبلية في شمال العراق بالسريانية الحديثة . وكلتا اللهجتين « أصابها تغير كبير أبعداها عن أصولها الأولى تحت تأثير ما انتابها من عوامل التطور الطبيعي ، وكثرة المراحل التي اجتازتها في هذا السبيل ، وطول عمرها ، وتأثرها باللغات التي احتكت بها ، وخاصة العربية والفارسية والكردية » (٣٨) .

هـ) اللغات اليمنية القديمة

يذكر المؤرخون أن اليمن كانت من البقاع التي نبت فيها الساميون ، وشادوا ممالك ذوات بأس وحضارة . ثم انتشروا ونشروا حضارتهم في بلاد كنعان والحبشة . « وأقدم هذه الممالك مملكة معين التي ظهرت قبل مولد عيسى بن مريم عليه السلام بأربعة وعشرين قرناً . ومملكة سبأ التي ازدهرت بعد مملكة معين بأربعة عشر قرناً ، وجعلت مدينة مأرب حاضرة لها . ثم مملكة حمير التي قهرت مملكة سبأ سنة ١١٥ ق . م وانتزعت منها الرئاسة في السياسة ، والمهارة في التجارة » (٣٩) .

ولغات اليمن أسرة متفرعة من الفصيصة السامية . يذكرها المؤرخون والمستشرقون بأسماء مختلفة . فمن أجمل سمّاها العربية الجنوبية ، ومن فصل سماها بأسمائها الفرعية مثل الحميرية والسبئية .

ولا يذهبن بك الظن إلى أنها شديدة الشبه بالعربية الفصحى لغة القرآن الكريم ، فهي تخالفها مخالفة جوهرية . ولا يبالغ من يزعم أن السريانية والعبرية أقرب إلى العربية من اللغات اليمنية التي تمثلها النقوش . والأدلة على اختلاف عربية النقوش اليمنية عن عربية القرآن الكريم

(٣٨) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٣٩) الوحير في قصة الحضارة لول ديورانت ١٥٣ — ١٦ أوجزه د غاري مختار طليمات دمشق دار طلاس ١٩٩٤ م .

كثيرة . أولها « أن كثيراً من عباراتها لا يزال غير واضح الدلالة ، وذلك لما تشتمل عليه من عبارات دينية مبهمة ، واصطلاحات غامضة ، تتعلق بفن المعمار ، وكلمات غريبة لا نظير لها في اللغات السامية الأخرى . ولذلك كثيراً ما يقنع الباحثون في مثل هذه العبارات باستخلاص معناها العام في صورة تقريبية ظنية على ضوء سياق الحديث »^(٤٠) .

وثانيها ما أشار إليه أبو عمرو بن العلاء في القرن الثاني الهجري ، حينما راعه البون الشاسع بين اللفظين الحجازية واليمينية ، فقال : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعريبتنا »^(٤١) .

وثالثها أن أبا منصور محمد بن أحمد الأزهرى [ت : ٣٧٠ هـ] وأحمد بن فارس اللغوي [ت : ٣٩٥ هـ] — وكلاهما من علماء اللغة الأعلام — حملا على أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي اليميني [ت : ٣٢١ هـ] لإدخاله بعض المفردات اليمينية في معجمه (جمهرة اللغة) . فرمياه باختلاق العربية ، وتهجينها بما ليس منها . قال الأزهرى : « ومن ألف في عصرنا الكتب ، فوسم بافتعال العربية وتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول ، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامهم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي »^(٤٢) . وقال ابن فارس : « النتك هي من يمانيات أبي بكر . قال : وهي شبيهة بالنتف »^(٤٣) .

ويقدر الباحثون أن اليمن لم تكن تنطق ب لغة واحدة ، بل شاعت فيها لغات ولهجات عديدة ، أبرزها المعينية في جنوب اليمن ، موطنها مملكة معين ، وحاضرتها (قرنا) أو (قرنانا) . ويختلف الباحثون في تقدير عمرها : فمنهم من يحدد ظهورها بالقرن الثامن قبل الميلاد^(٤٤) ، ومنهم من يعود بها إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد^(٤٥) . وأشهر ما اشتهرت به هذه المملكة التجارة . والمصدر الوحيد لمعرفة هذه اللغة النقوش التي عثر عليها المنقبون في اليمن أو في الثغور التجارية القريبة من البلاد الكنعانية والآرامية .

وبعد اللهجة المعينية ظهرت اللهجة السبئية ، وهي لسان المملكة التي قوضت ملك المعينيين ، وشادت من أنقاضه حاصرتها الواسعة الشهرة وهي مدينة (مأرب) . واتسعت هذه المملكة ، وطال عمرها حتى قضى عليها الأحباش سنة ٣٧٥ م ، ولكنهم عجزوا عن طمس اللغة السبئية^(٤٥) .

(٤٠) فقه امعة د . عبيد الواحد وافي ص ٧١ .

(٤١) صقات محول الشعراء لاس سلام الحمحي ١ ١١ تح محمد محمود شاكر مصعة المدني .

(٤٢) تهذيب اللغة للأزهري ١ ٣١ تح عبد السلام محمد هارون . المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٤ م

(٤٣) معجم مقاييس اللغة لاس فارس ٥ ٣٨٨ تح عبد السلام محمد هارون القاهرة ١٣٨٩ هـ .

(٤٤) فقه اللغة ، د . عبيد الواحد وافي ص ٧١

(٤٥) الوحير في قصة الحصار لور ديورات ١٦٣ .

العلمية وأساليبها الأدبية، ومناهج التفكير اليوناني . فغزت مادتها ، وغدت قادرة على تمثل العقائد والفلسفات والعلوم .

ومع أن الآرامية انقرضت تماماً ، ففي العصر الحاضر بعض القرى المسيحية — وأشهرها معلولا الجبلية — لم تزل متعققة باللهجة السريانية الغربية كتعق بعض المناطق الجبلية في شمال العراق بالسريانية الحديثة . وكلتا اللهجتين « أصابها تغير كبير أبعدها عن أصولها الأولى تحت تأثير ما انتابها من عوامل التطور الطبيعي ، وكثرة المراحل التي اجتازتها في هذا السبيل ، وطول عمرها ، وتأثرها باللغات التي احتكت بها ، وخاصة العربية والفارسية والكردية »^(٣٨) .

هـ) اللغات اليمنية القديمة

يذكر المؤرخون أن اليمن كانت من البقاع التي نبت فيها الساميون ، وشادوا ممالك ذوات بأس وحضارة . ثم انتشروا ونشروا حضارتهم في بلاد كنعان والحبشة . « وأقدم هذه الممالك ممكة معين التي ظهرت قبل مولد عيسى بن مريم عليه السلام بأربعة وعشرين قرناً . ومملكة سبأ التي ازدهرت بعد ممكة معين بأربعة عشر قرناً ، وجعلت مدينة مأرب حاضرة لها . ثم مملكة حمير التي قهرت مملكة سبأ سنة ١١٥ ق . م وانتزعت منها الرئاسة في السياسة ، والمهارة في التجارة »^(٣٩) .

ولغات اليمن أسرة متفرعة من الفصيصة السامية ، يذكرها المؤرخون والمستشرقون بأسماء مختلفة . فمن أجمل سمّاها العربية الجنوبية ، ومن فصل سمّاها بأسمائها الفرعية مثل الحميرية والسبئية .

ولا يذهبن بك الظن إلى أنها شديدة الشبه بالعربية الفصحى لغة القرآن الكريم ، فهي تخالفها مخالفة جوهرية . ولا يبالغ من يزعم أن السريانية والعبرية أقرب إلى العربية من اللغات اليمنية التي تمثلها النقوش . والأدلة على اختلاف عربية النقوش اليمنية عن عربية القرآن الكريم

(٣٨) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٣٩) الوحير في قصة الحضارة لول ديورانت ١٥/٣ — ١٦ أوحزه د . غازي مختار طليمات دمشق دار طلاس ١٩٩٤ م .

كثيرة. أولها « أن كثيراً من عباراتها لا يزال غير واضح الدلالة، وذلك لما تشتمل عليه من عبارات دينية مبهمة. واصطلاحات غامضة، تتعلق بفن المعمار، وكلمات غريبة لا نظير لها في اللغات السامية الأخرى. ولذلك كثيراً ما يقنع الباحثون في مثل هذه العبارات باستخلاص معناها العام في صورة تقريبية ظنية على ضوء سياق الحديث »^(٤٠).

وثانيها ما أشار إليه أبو عمرو بن العلاء في القرن الثاني الهجري، حينما راعه اليون الشاسع بين اللغتين الحجازية واليمنية، فقال: « ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعريبتنا »^(٤١).

وثالثها أن أبا منصور محمد بن أحمد الأزهري [ت: ٣٧٠ هـ] وأحمد بن فارس اللغوي [ت: ٣٩٥ هـ] — وكلاهما من علماء اللغة الأعلام — حملا على أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي اليمني [ت: ٣٢١ هـ] لإدخاله بعض المفردات اليمنية في معجمه (جمهرة اللغة). فرمياه باختلاق العربية، وتهجينها بما ليس منها. قال الأزهري: « ومن ألف في عصرنا الكتب، فوسم بافتعال العربية وتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامهم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي »^(٤٢). وقال ابن فارس: « التثك هي من يمانيات أبي بكر. قال: وهي شبيهة بالتثف »^(٤٣).

ويقدر الباحثون أن اليمن لم تكن تنطق بلغة واحدة. بل شاعت فيها لغات ولهجات عديدة، أبررها المعينية في جنوب اليمن، موطنها مملكة معين. وحاضرتها (قرنا) أو (قرنانا). ويختلف الباحثون في تقدير عمرها: فمنهم من يحدد ظهورها بالقرن الثامن قبل الميلاد^(٤٤)، ومنهم من يعود بها إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد^(٤٥). وأشهر ما اشتهرت به هذه المملكة التجارة. والمصدر الوحيد لمعرفة هذه اللغة النقوش التي عثر عليها المنقبون في اليمن أو في الثغور التجارية القريبة من البلاد الكنعانية والآرامية.

وبعد اللهجة المعينية ظهرت اللهجة السبئية، وهي لسان المملكة التي قوضت مدك المعينيين، وشادت من أنقاضه حاضرتها الواسعة الشهرة وهي مدينة (مأرب). واتسعت هذه المملكة، وطال عمرها حتى قضى عليها الأحباش سنة ٣٧٥ م. ولكنهم عجزوا عن طمس اللغة السبئية^(٤٥).

(٤٠) فقه اللغة د. علي عبد الواحد وافي ص ٧١.

(٤١) طنقات فحول الشعراء لأبي سلام الحمحي ١١١ تح محمد محمود شاكر مطبعة المدني.

(٤٢) تهذيب اللغة للأزهري ٣١١ تح عبد السلام محمد هارون. المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٤ م.

(٤٣) معجم مقاييس اللغة لأبي فارس ٣٨٨/٥ تح عبد السلام محمد هارون القاهرة ١٣٨٩ هـ.

(٤٤) فقه اللغة د. علي عبد الواحد وافي ص ٧١.

(٤٥) الوحي في قصة الحصار لول ديورانت ١٦/٣

ثم تعاقبت اللهجات اليمنية المتأخرة، وعاشت لهجة سبأ، ولم تقو على قهرها إلا بعد انحسار الحكم الحبشي عن اليمن سنة ٤٠٠ م، وبعد أن وصل الناطقون بهذه اللهجات إلى الحكم. ومن اللهجات اليمنية التي طاولت لهجة سبأ، ولم تبلغ شأوها اللهجة القتبانية. وبنو قتبان الناطقون بها كانوا ذوي مملكة كبيرة في شواطئ عدن، حاولوا مناجزة السبئيين، فلما عجزوا عن قهرهم سالموهم، وذوّبوا لهجتهم في اللهجة السبئية^(٤٦).

وآخر اللهجات اليمنية اللهجة الحضرمية، وموطنها مملكة حضرموت التي اتسعت. وقوي شأنها، وأصبحت تطاول مملكة سبأ، لكنها ضعفت، وتخلّى عنها أربابها، واستسلموا للسبئيين الذين اقتحموا على اللهجة الحضرمية حصونها، وذوّبوها في لغتهم^(٤٧).

وجدير بالذكر أن هذه اللغات وصت إلينا منقوشة على الحجر، وأن ما وصل إلينا منها يمثل اللهجات الفصيحة، لا كلام السوق. ويبدو من دراسة النقوش أنها كانت محافظة على أنماط لا تتغير. « فلا يكاد يوجد فرق يعتد به بين اللغة المدوّنة بها أقدم نقوشها، واللغة المدوّنة بها أحدثها مع أن الفاصل بين هذين النوعين قد يصل أحياناً إلى تسعة قرون. ولا غرابة في ذلك فلغات الكتابة تميل دائماً إلى المحافظة والجمود. أما لغات المحادثة في هذه البلاد فلا بد أن يكون قد نالها كثير من التطور »^(٤٨).

وقد عرفت كتابة اليمن في تاريخ الخط العربي باسم (الخط المسند)، وهو شبيه بالخط الكنعاني في سيره من اليمن إلى الشمال في أغلب الأحيان، وفي أبجديته التي بلغت تسعة وعشرين حرفاً، وفي إهماله حروف المدّ، « وتجرّد هذا الرسم من حروف المد يجعل قراءة كل كلمة محتملة لعدة وجوه »^(٤٩).

قبل ظهور الإسلام بقرنين كانت اللغة الحجازية قد ارتقت، وأصبحت لغة الدين والأدب والتجارة. فزاحمت لغة اليمن. وفرضت نفسها على الأسواق سواء ما كان يقام منها في الحجاز كسوقي عكاظ وذوي المجاز، وما كان يقام فيها في اليمن كسوقي صنعاء والشحر. ولذلك انحسرت اللغة اليمنية عن أسواق اليمن ومراكزها الحضارية، فلما ظهر الإسلام ازدادت هذه اللغة انحساراً وبواراً، ولم يبق منها غير ثلاث لهجات استطاعت أن تحافظ على بقائها حتى

(٤٦) فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وافي ص ٧٢.

(٤٧) المصدر السابق ص ٧٣.

(٤٨) فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وافي ص ٧٤.

(٤٩) المصدر السابق ص ٧٥.

يومنا هذا: الأمهرية في شرق حضرموت، ولهجة أهل الشحر، ولهجة جزيرة سقطرة^(٥٠).

و) اللغات الحبشية السامية

يغلب على ظن المؤرخين أنه قبل مولد المسيح عليه السلام ببضعة قرون غادرت شواطئ اليمن موجة عربية، انصاحت على السواحل الغربية للبحر الأحمر، ثم قرّ قرارها في الحبشة. وهذه الموجة حملت معها بذور الثقافة العربية، وبذور اللغة السامية. ومن هذه البذور نبتت اللغة الحبشية السامية، ثم أخذت جذورها تترسخ، حتى إنك لتجدها اليوم متداولة في نصف الحبشة وارتيريا.

ومع أن هذه اللغة اصطدمت بلغة الأحباش الحامية، ونازلتها أمداً طويلاً، وتأثرت بأصواتها الحامية، واقتضت كثيراً من مفرداتها، فإنها ظلت حتى العصر الحاضر محافظة على طابعها السامي الشديد القرب من لغتي اليمن والحجاز. حتى إن الباحث المدقق يجد أن «وجوه الشبه بينها وبين هذين الفرعين في أصول المفردات والقواعد والأصوات أقوى كثيراً من وجوه الشبه بينها وبين بقية اللغات السامية»^(٥١). وأنها إلى اليمنية القديمة أقرب منها إلى العربية الحجازية.

وأدّل ما يدلّك على هذا القرب أن السامية الحبشية اشتقت من اللغة اليمنية طريقة الكتابة. «ومن الراجح أن هذا الرسم قد ظهر في القرن الثالث الميلادي»^(٥٢). وأنه يشبهه «في تجرده من الرمز إلى أصوات المدّ. فكان يشتمل على ستة وعشرين حرفاً، ترمز جميعها إلى أصوات ساكنة»^(٥٣). ولذلك أضاف الأحباش ستة رموز تعبر عن الأصوات اللينة.

وإذا كان التطور قد أدرك الخط الحبشي ليضيف إلى حروفه ما فاتها من حروف اللين، فإنه قد أدرك اللغة نفسها، فقسمها إلى هجات، أبرزها اللهجة الجعزية، وهي لسان الشعب الجعزي المهاجر من اليمن، ومنشئ الدولة القوية التي حاضرتها أقسوم أو أكسوم. وأهم آثارها نقوش تعزى إلى ثلاثة من ملوكها، وهم: عزانا، وآل عميدا، وتازانا. ونسخة الكتاب المقدس ترجمت عن اليونانية إلى الجعزية^(٥٤). والجعزية — على ما فيها من خصائص تشدّها إلى لغتي الحجاز واليمن — تنفرد بسمات أبرزها خلوها من التذكير والتأنيث والتعريف،

(٥٠) انظر المصدر السابق ص ٧٦ وما بعدها.

(٥١) المصدر السابق ص ٨٤.

(٥٢) المصدر السابق ص ٨٤.

(٥٣) المصدر السابق ص ٨٥.

(٥٤) المصدر السابق ص ٨٦.

واشتغالها على مفردات يونانية وحامية كثيرة. وآخر ما أوصلها إليه التطور تقلص سلطانها، وانحسارها عن الحياة العامة، فهي اليوم لغة أدب ودين لا لغة حياة^(٥٥).

وثانية اللهجات السامية الحبشية تسمى الأمهرية أو (الأمحارية) نسبة إلى القبائل التي كانت تعيش في منطقة أمهرا Amhara. ومن هذه القبائل ظهرت أسرة قوية متحدرة من مملكة سبأ، كانت تعيش في منطقة كوا Choa، وتطمح إلى السيادة على الحبشة، فبلغت ما أرادت، وفرضت لغتها، حتى أصبحت «تستخدم في أمور الدواوين والمكاتبات الرسمية في جميع الأقاليم الحبشية، وظلت مستأثرة بهذه الشؤون حتى العصر الحاضر»^(٥٦). ثم نافست الجعزية في ميادين الأدب والدين والصحافة والعلوم، «فقلَّتْ بذلك أهمية اللغة الجعزية، وأصبحت مجهولة لدى كثير من العلماء ورجال الدين أنفسهم»^(٥٧). وبزغ نجم الأمهرية وغدت لغة الفكر كما كانت من قبل لغة الإدارة.

وخاضت الأمهرية صراعاً آخر، صارعت فيه اللغة الحامية الكوشية بلهجاتها المختلفة، وتمكنت من اختراق الأسوار الكوشية، وطغت على البقاع الجنوبية معقل الكوشية، وأصبحت فيها اللغة الثانية. غير أنها تأثرت بالأصوات الحامية، وقبست كثيراً من الألفاظ. حتى غدا «نصفها على الأقل مستعاراً من الحاميين. أما النصف الثاني السامي الأصل فقد بعد كثيراً عن أصله بسبب التغيرات التي طرأت عليه»^(٥٨). ولهذا كله «اتسعت مسافة الخلف التي تفصل الأمهرية عن بقية أخواتها السامية»^(٥٩) وعلى رأسها الجعزية.

ومما زاد البون بين الأمهرية والجعزية اتساعاً غلبة الصبغة المسيحية على الأمهرية، وبقاء الجعزية محافظة على سماتها الإسلامية برغم انقسامها إلى هجات. «ومن اللهجات الجعزية اثنتان: تسمى أولاهما باللسان التيجري، وتسمى الثانية باللسان التجراي. وأهالي هذين اللسانين من المسلمين. وكان انتشار الإسلام بين أهالي هذين اللسانين سبباً في مقاومتها للسان الأمحاري (الأمهري) المسيحي مقاومة شديدة»^(٦٠).

ولا يجهل أحد من الباحثين مبلغ الأثر الذي تركه الدين في تطور اللغات السامية

(٥٥) انظر فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وإي ص ٨٨.

(٥٦) المصدر السابق ص ٨٨.

(٥٧) المصدر السابق ص ٨٨.

(٥٨) فصول في فقه اللغة، د. رمضان عبد التواب ص ٣٤.

(٥٩) فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وإي ص ٨٩.

(٦٠) الوحيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي ص ١٠٠.

الحبشية ، وفي تفرعها . والدليل على عمق هذا التأثير أن لهجة مدينة هرر المتفرعة من اللغة الأمهرية تفردت بخصائص أبعدها عن أصلها القديم حتى غدا الأمهريون عاجزين عن فهمها . « ويرجع ذلك إلى عاملين : أحدهما أنها تأثرت بلهجات حامية غير اللهجات الحامية التي احتلت بها الأمهرية . وثانيهما أن اعتناق أهلها للدين الإسلامي قد ترك فيها آثاراً من اللغة العربية في صورة ، لا يوجد لها نظير في الأمهرية المسيحية »^(٦١) .

(ز) اللغة العربية

زعم ولفنسون أن العرب هم البدو المترحلون في شبه الجزيرة العربية . وزعمه لغوي المنطلق سياسي الهدف ، يرمي إلى مساواة العبريين بالعرب . إذ ادعى أن الجذر اللغوي الثلاثي للشعبيين (عرب = عبر) واحد ، وأن هذا الجذر يدل على التنقل والعبور^(٦٢) . والحق أن اسم العرب يطلق على أهل المدر وأهل الوبر على السواء ، أما الآخرون فلا يدل اسمهم على غير العبور والترحل .

ومن الحجج التي تدحض رأي ولفنسون أن كلمة (عرب) في العصر الجاهلي أطلقت على أهل الخيام وأهل المدن والقرى ، وأن كلمة (أعراب) خصت بالبدو ، وبذلك نزل القرآن الكريم ، فسمى البداية الحفاة أعراباً^(٦٣) . ومن الحجج الدامغة أن أبا التاريخ الأوروبي هيرودوت — وهو من مؤرخي القرن الخامس قبل الميلاد — سمي اليمن صاحبة الممالك والمدن والبلاد والأسداد (بلاد العرب) .

ومع أن العرب أقدم الساميين ، ومع أن أرضهم هي المهد الأول للشعوب السامية واللغات السامية . فإن ما بلغنا من لغتهم منقوشاً على حجر ، أو محفوظاً في صدر ، لم يكن أقدم ما وصل إلينا من اللغات السامية . « إن أقدم ما وصل إلينا من آثار العربية البائدة لا يتجاوز القرن الأول ق . م ، وأقدم ما وصل إلينا من الآثار العربية الباقية لا يكاد يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد ، ولذلك لا نعلم شيئاً عن طفولة اللغة العربية في مراحلها الأولى »^(٦٤) .

(٦١) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص ٩١ .

(٦٢) تاريخ اللغات السامية ، إسرائيل ولفسون ص ١٦٥ .

(٦٣) في البيان والتبيين ٢/٢٢٤ أرجورة جاء فيها « مهاجر ليس بأعرابي » وفي قوله تعالى [التوبة ١٢٠] ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتحلفوا عن رسول الله ﴾ وفي قوله تعالى [الأحزاب ٢٠] ﴿ وإن يأت الأحرار يودوا أو أهم يودوا في الأعراب ﴾ في هذه النصوص الثلاثة : الأعرابي : البدوي ، لا العربي المتحضر .

(٦٤) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص ٩٣ .

وإذا كان بين الساميات لغة أو لغات تبرز نقوشها النقوش العربية قدماً وكثرة ، فليس بينهن لغة استطاعت أن تقارب العربية بقاء وغماء . والعربية التي ينصرف إليها هذا القول هي العربية الحجازية الباقية أحدث اللهجات العربية ، وأوسع اللغات السامية انتشاراً كما يدل على ذلك الواقع الجغرافي للشعوب الناطقة بها في العصر الحاضر .

تعد العربية الباقية الصورة المثلى للهجات العربية بائدها والحي ، ولهذا فإن المؤرخين ، من أجل الوصول إلى جذور العربية الباقية ، درسوا اللهجات العربية كلها ، وقسموها على أساس تاريخي إلى عربية بائدة وعربية باقية ، وعلى أساس جغرافي إلى لهجات شمالية ولهجات جنوبية . ثم فرّعوا ، فسموا كل لهجة باسم الناطقين بها . ولما تبين لهم أن اللهجات الجنوبية من معينية وسبئية وحضرية وقتبانية واهية الارتباط بالعربية الشمالية درسوها في معزل عن اللهجات الشمالية على النحو الذي قمنا به قبل . وتوفروا على دراسة اللهجات الشمالية مفصولة عن الجنوبية ، لعلمهم يجدون فيها جذور عربيتنا الفصحى . وأهم هذه اللهجات :

١ — اللهجة اللحيانية : لم يختلف المؤرخون قدماءهم والمحدثون في انتماء اللحيانيين إلى العرب ، بل أجمعوا على أن « اللهجة اللحيانية عربية بحتة »^(٦٥) ، لكنهم اختلفوا في الموطن الأول الذي عاشت فيه هذه القبائل ، وسواء أكان موطنهم الأول شمال الحجاز أم جنوبه ، فهم عرب أقحاح ، أقاموا دويلات لهم في البقاع الممتدة من الحجاز إلى تخوم الشام والعراق . ويغلب على ظن المؤرخين أن هذه الدويلات خضعت بعض الخضوع لدولتي الروم والفرس .

والنقوش المتحدرة إلينا من اللهجة اللحيانية تبدو حديثة العهد إذا قورنت بالنقوش الأكادية والكنعانية « ويظهر أن أقدمها لا يتجاوز القرن الثاني أو الأول ق . م وأحدثها لا يتجاوز السادس بعد الميلاد . والخط الذي كتبت به مشتق من الخط المسند ، ويسير مستعرضاً من اليمين إلى الشمال »^(٦٦) .

ومع أن النقوش اللحيانية قليلة العدد ، ويعوزها الوضوح والسلامة لأنها أبعاض نقوش غير متكاملة ، فإن ما سلم منها أو ما فهم يدل على عروبتها ، لأنها متفردة من بين الساميات بأصوات تفردت بها العربية ، وهي (ذ ، ث ، غ . ض) ، ولأنها تشتمل على أفعال التفضيل وحرف التنبيه . وهذه الأمور من خصائص اللسان العربي^(٦٧) .

٢ — اللهجة الصفوية : إذا كانت اللهجة اللحيانية منسوبة إلى قبائل لحيان ،

(٦٥) الوجير في فقه اللغة ، محمد الأصاكي ص ١٠٤ .

(٦٦) فقه اللغة ، د . عبيد الواحد وفي ص ٩٦ .

(٦٧) تاريخ اللغات السامية ص ١٧٧ .

فالصفوية تسمية اصطلاحية لا ترتبط بقبيلة، بل أطلقها المستشرقون على نقوش ظفر بها المنقبون بين تلول الصفاة وجبل الدروز، ثم أطلق الاسم على اللهجة العربية التي استنبطت سماتها من هذه النقوش. وتاريخها أحدث من تاريخ النقوش اللحيانية، إذ «يعتقد الأستاذ ليمان أن الكتابات الصفوية ترجع إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد، ويستدل على ذلك باستعمال الصفويين اسم (أذينة) زوج الزباء الذي عاش في القرن الثالث بعد الميلاد، ولم يكن العرب يستعملون هذا الاسم من قبل» (٦٨).

ومن الأدلة الساطعة على عروبة هذه اللهجة وقربها الشديد من العربية الحجازية الباقية استعمالها الألفاظ العربية الحجازية، ومنها: أسد، وليث، ولبأة، وجمل، وبكر، ومهر، وحمار، وضأن. لكن عروبتها ليست خالية من الشوائب والمؤثرات الدخيلة، «إذ نعثر فيها على شوائب نبطية وآرامية بسبب اختلاط أهلها بالأنباط والآرام» (٦٩).

٣ — اللهجة الثمودية: ذكر القرآن الكريم قوم ثمود بين الأقوام البائدة ستاً وعشرين مرة، وذكر ما حل بهم من دمار واندثار لجعلهم عبرة لأولي الأبصار (٧٠). ويبدو مما ذكره المؤرخون والمفسرون أن ثمود ظهرت ثم اندثرت قبل ظهور الإسلام بزمان طويل.

«وبينما يقرر بطليموس أن مساكن ثمود هي مدينة (أمن) والأراضي الواقعة في جنوب العقبة إلى نواحي شمال ينبع بالقرب من المويبح، نرى الجغرافي بليوس الذي سبق بطليموس بنحو (٢٥٠) سنة يقرر أن مساكن ثمود هي في جنوب مكة إلى تهامة العسير» (٧٠). وكل ما نعلمه عن اللهجة الثمودية مستنبط من نقوش مكتوبة بخط مشتق من الخط المسند، تتجه كتابته من الأعلى إلى الأسفل، ويعوزه النظام والرواء. ويعود القدر الأكبر من نقوش ثمود إلى القرنين الثالث والرابع الميلاديين، أي أن الثمودية أحدث من اللحيانية والصفوية.

ومن يقرن الكتابة الثمودية بغيرها من أشكال الكتابة العربية القديمة، ثم بالكتابة العربية الحديثة يجد الخط الثمودي شبيهاً بغيره من خطوط العرب في العناية برسم الأحرف الساكنة، وإهمال حروف المد، ويجد الأحرف في الكلمة الواحدة منفصلة لا متصلة، مما يدل على أن الوصل بين أحرف الكلمة الواحدة تم في مرحلة متأخرة وبعد تطور بطيء.

أما المقارنة اللغوية بين الألفاظ في النطق والاشتقاق والمعاني فمختلف فيها، فمن

(٦٨) الوحيز في فقه اللغة، محمد الأطاكي ص ١٠٥.

(٦٩) مصدر اسنق ص ١٠٥.

(٧٠) انظر تفسير الآية ٧٣ من سورة الأعراف في تفسير الضري (جامع البيان عن تأويل القرآن) ٢٢٤/٥ —

الباحثين من يرى أنها تدل دلالة قاطعة على أن لهجة ثمود « لهجة عربية صحيحة ، لا تختلف عن لهجة قريش الفصحى إلا في أمور يسيرة جداً »^(٧١) . ومنهم من يلاحظ « أن أصحاب النقوش الثمودية والصفوية هم من العرب ، أو هم أقوام لهم اتصال متين بلغة العرب ، ولكن العناصر الأعجمية الكثيرة البارزة فيها شوهتها وحرفتها كثيراً إلى أن محت شيئاً غير قليل من الروح العربية والأسلوب العربي ، حتى إن اللغة العربية تضاءلت أمام الحضارات الأخرى البارزة في تلك النقوش »^(٧٢) .

وعن مقدار التشابه بين فصحانا وهذه النقوش تنجم مسألة تبحث عن جواب ، وهي : هل يمكن أن نعد هذه النقوش مرحلة من مراحل التطور في حياة اللغة العربية الفصحى ؟

إن الإجابة على نحو علمي تقتضي أن نحدد أوجه الشبه بين لغة النقوش واللغة العربية الفصيحة وأول أوجه الشبه شيوع الإعراب في لغة النقوش على نحو يقارب شيوعه في الفصحى . إذ رفع الفاعل في النقوش بواو لحقت الاسم ، وهي تعادل الضمة : « هرب مذحجو »^(٧٣) ، وجُرَّ المضاف إليه بياء ، وهي تعادل الكسرة : « أعلى بني عمري »^(٧٤) .

والوجه الثاني استعمال اسم التفضيل في بعض النقوش ، وصيغة التفضيل (أفعل من) تعد من الظواهر التي تفرّدت بها العربية بين أخواتها الساميات . فالتفضيل في العبرية يتم بذكر الصفة المشبهة متلوّة بحرف الجر من نحو : (أثّا طوف منو) أي : أنت أحسن منه وطوف بمعنى حسن .

وثالث الأوجه الأصوات التي تفرّدت بها العربية الفصحى ، وهي (ذ ، ث ، غ ، ض) ، فقد ترددت أصداً هذه الأصوات في لغة النقوش .

ورابعها المفردات الكثيرة التي اشتركت في استعمالها النقوش والعربية الفصحى . ومنها : ليث . ولبأة ، وجمل ، وبكر ، ومهر ، وحمار ، وضأن . ولما كان الكلام المنقوش على الحجارة ضئيل المقدار ، فهذا القدر من الألفاظ المتشابهة يعد كافياً لربط اللغتين برابطة النسب ، ولو بلغنا من النصوص مقدار أوفر لتضاعفت الألفاظ المتشابهة . ولهذا لم ينصف شيبثالر A. Spitaler حينما هوّن من شأن هذه النقوش بقوله : « إنه على الرغم من وجود

(٧١) الوحيز في فقه اللغة . محمد الأبطاكي ص ١٠٣ .

(٧٢) تاريخ اللغات السامية . ولفسود ص ١٨٨ .

(٧٣) وردت هذه العبارة في نقش حمامة . انظر قصور في فقه اللغة د . رمصا عد انتواب ص ٦١ .

(٧٤) وردت هذه العبارة في نقش أم الحمام . انظر المصدر اساق ص ٦١ .

النقوش المتعددة فإن قراءتها في كثير من الأحوال غير مؤكدة ، ونتائجها عديمة الجدوى ، لأن مادتها اللغوية على جانب كبير من الضالة» (٧٥) .

خامساً — العربية الباقية أو لهجة قريش .

وسواء أكانت النقوش كثيرة أم قليلة ، فما بلغنا منها يثبت أن بين اللهجات المنقوشة البائدة ، والعربية الباقية قدرًا من التشابه غير قليل ، يكفي لربط المتأخرة بالمتقدمة . ولو أن معاول المنقبين كشفت في الحجار ونجد وغيرهما عن نقوش أخرى لأمكن الوصول إلى أدلة أقوى على نفي الرابطة أو إثباتها . وإلى أن يتم الكشف يستطيع الباحث أن يدعي أن المهّد الأول للعربية الباقية نجد والحجاز ، وأنها انتشرت منهما إلى جزيرة العرب كلها ، ثم انساحت على الشمال الإفريقي ، وعلى قسم كبير من شرق هذه القارة . وإذا أعوزتنا النقوش فنصوص الأدب الجاهلي : شعره وخطبه وأمثاله وقصصه تثبت على نحو قاطع أن العربية الباقية كانت قد اقتصت قبل ظهور الإسلام بقرنين ، وأنها فاقت كل ما جاورها من لغات سامية ولهجات عربية .

وسيادة العربية قبل الإسلام لا تعني أنها كانت لهجة واحدة ، فإن للتطور اللغوي قاعدة تكاد تكون مطردة ، وتنصر على أنه « متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض ... استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمدًا طويلاً . فلا تبت أن تنشعب إلى لهجات ... وهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر » (٧٦) .

وإلى جانب هذه القاعدة ، التي تبين كيف تنقسم اللغة إلى لهجات ، قاعدة أخرى لا تقل عنها قوة واطراداً ، تبين كيف تصبح اللهجة القوية سيادة اللهجات الأخرى الضعيفة . وخلاصتها أنه متى أتيح للناطقين بإحدى اللهجات أن يبرزوا غيرهم في نواحي الحياة السياسية والدينية والاقتصادية صارت لهجتهم ما حولها من اللهجات . ثم صرعتها ، وبسطت سلطانها على ما مجاورها . « وجميع الظروف التي كانت تقتضيها قوانين التغلب اللغوي ... كانت مهياة لتغلب لهجة قريش على اللهجات العربية الأخرى » (٧٧) .

(٧٥) المصدر لسابق ص ٦١ .

(٧٦) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٧٧) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص ١٠٦ .

إن العربية الباقية واحدة من اللغات الإنسانية التي انتشرت في مناطق واسعة من الأرض ، فظهرت فيها أعراض الانقسام إلى لهجات ، وأقوى لهجاتها لهجة قريش ، ولهجة تميم ، فهجة هذيل ... وغيرها من اللهجات المستضعفة . ومع ذلك لم تتحول لهجاتها إلى لغات ، ولم يستقل بعضها عن بعض كما تحولت اللهجات المتفرعة عن اللاتينية إلى لغات . فما السبب الذي عصم العربية الباقية من التبدد ؟

السبب هو القاعدة الثانية التي ذكرناها ، « إذ كان لقريش مكانة دينية ممتازة لقيامهم بسدانة البيت الحرام الذي تفد إليه معظم القبائل لتقديم قربانهم وتقديس آلهتهم ، وشهود منافع لهم »^(٧٨) . أما سلطان قريش الاقتصادي فيتمثل في سيطرة القرشيين على تجارة العرب من اليمن إلى الشام والعراق . ونتيجة لهذين السلطانين برز سلطان ثالث رسخه الإسلام بعد ذلك ، وهو السلطان السياسي الذي أعد القرشيين ليكونوا قادة العرب في الحكم ، كما كانوا قادتهم في الدين والاقتصاد .

ومن يستفقت قوانين التطور اللغوي تفته بأن تفوق اللهجة الحجازية كان حتماً مقضياً . لا مفر من وقوعه . فإلى جانب القاعدة الثانية الموحدة قاعدة ثالثة تؤيدها ، إذ تقرر أن الغلبة في الصراع المبهجي هي لهجة المتفوقة بثقافتها وحضارتها وأدبها ومفرداتها . ولهذا غلبت لهجة قريش ما حولها من لهجات لأنها « كانت أوسع اللهجات العربية ثروة ، وأغزرها مادة ، وأرقها أسلوباً ، وأدناها إلى الكمال ، وأقدرها على التعبير في مختلف فنون القول »^(٧٩) .

ومن المقرر في قوانين علم اللغة أن اللهجة المحلية التي يتاح لها التغلب تصبح لغة الآداب . وتصديقاً لهذا القانون أصبحت لهجة قريش منذ العصر الجاهلي « لغة الآداب عند جميع قبائل العرب ، فيها كان ينظم الشعر ، وتلقى الخطب ، وترسل الحكم والأمثال ، وتدوّن الرسائل ، وتتفاوض الوفود ، ويتبارى الأدباء ، وتجري المناقشات في النوادي والمؤتمرات في مختلف بلاد العرب وقبائلهم »^(٨٠) .

حينما أنست اللهجة القرشية من نفسها القدرة على التبريز لم تدع ميداناً فيه للغة مجال إلا برزت فيه ، ولا منتزهاً إلا انتهزته ، وأفادت منه ، فتضاعف ثراؤها ، إذ قبست من اللهجات الأخرى كثيراً من المفردات والأساليب ، حتى غدا من المتعذر « على ضوء معلوماتنا الحاضرة أن نميز ما كان قرشي الأصل ، وما انتقل إلى لغة قريش من أخواتها »^(٨١) .

(٧٨) معالم اللهجات العربية ص ٦٣ .

(٧٩) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص ١٠٦ .

(٨٠) المصدر السابق ص ١٠٨ .

(٨١) فقه اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص ١١٢ .

لقد غزت قريش أسواق العرب ببضاعة غير البضاعة التي يتجر بها الباعة، غزتها بلغتها، وفرضت أساليبها وثقافتها وقيمها على الأسواق كلها، ما كان يعقد منها في الحجاز، وما كان يعقد في هجر والبحرين وعمان واليمن. واقتحمت ميادين القتال. فما ثار الغبار في يوم من أيام العرب إلا قيل فيه شعر أو رجز بهجة قريش، ولو كان المتحاربون من غير قريش. حتى غدا لسان الشاعر أحد شفرة من سيوف العرب، وأبقى أثراً بعد هذه الحروب، يخمد مثار النقع، وتندمل نوازف الجراح، ويبقى الشعر والرجز يرددان بهجة قريش.

فلما نزل القرآن الكريم، وصيغ الحديث الشريف بهجة قريش لا بسواها اردادت إلى شرفها شرفاً لم تظفر بمثله لهجة عربية أو لغة أجنبية، فارتقت أغراضها ومعانيها وأخيلتها وأساليبها. وغدت لغة التشريع والقضاء، والقص والجدال، والبحث الدقيق العميق في مسائل العقيدة المعقدة. وفيما وراء الطبيعة، ولغة السياسة والقانون، ولغة العلم والفلسفة. فتطورت دلالاتها من أفق الحس إلى أفق التجريد. وظهرت فيها آلاف المصطلحات في كل علم وفن، ابتكرتها من أصولها القديمة بالاشتقاق والنحت، أو بنقل اللفظ من الحقيقة إلى المجاز.

ثم جارت تمارها الخيرة حدود الوطن العربي، «حتى أصبحت المساحة التي تستخدم فيها العربية لغة حديث وكتابة نحو ١٤ مليون كم مربع»^(٨٢). وأصبح الناطقون بها يعدون بمئات الملايين، وراحت مفرداتها وأساليبها وخطها تنقش آثاراً غير محدودة في لغات المسمين غير العربية. وأهم هذه اللغات الفارسية، والتركية، والأردية. «حتى إن معظم مفردات الفارسية الحديثة عربي الأصل... أما صراع العربية مع التركية والقوطية فقد ترك في هاتين اللغتين آثاراً واضحة من العربية. ولكن لم يكد يترك في العربية شيئاً منهما»^(٨٣). «وقد بلغ هذا الأثر مبلغاً كبيراً في بعض اللغات المستخدمة في المناطق الباكستانية والهندية الإسلامية. فنحو ٧٥٪ من مفردات اللغة الأردية مثلاً يتألف من كلمات عربية الأصل أو فارسيته»^(٨٤).

(٨٢) المصدر السابق ص ١٢٤.

(٨٣) المصدر السابق ص ١٢٥.

(٨٤) المصدر السابق ص ١٢٦.

الباب الثالث

مناهج الدراسة في علم اللغة

الباب الثالث

مناهج الدراسة في علم اللغة

الفصل الأول

مناهج الدراسة في العصور القديمة

أولاً - تمهيد

لما كانت اللغة ظاهرة إنسانية قديمة فمن غير المستغرب أن تكون دراستها كممارستها ظاهرة علمية قديمة أيضاً، التقت عندها الأمم التي أتيح لها أن تصيب حظاً من التقدم العلمي، وأن تشارك في بناء الحضارة الإنسانية. ومن غير المستغرب كذلك أن ينتهج الأقدمون، وأبرزهم اليونان والرومان والهنود والعرب، في دراساتهم اللغوية مناهج تنتظمها وتوجهها.

ولا يرمي هذا الكتاب الوجيز إلى الإحاطة بكل ما انتهج السابقون من مناهج، درسوا على هديها لغاتهم. وإنما يرمي إلى أن يقف على ما انتهج العرب في دراستهم اللغة العربية والنحو العربي متأثرين بما أثر عن سواهم أو مستقلين بمناهج ابتكروها. ومن المعروف غلو المستشرقين في تعظيم اليونان وفي تضخيم الأثر الذي تركته ثقافتهم في الثقافة العربية. «ومن المؤكد أن الحركة الاستشراقية كانت تختلط أحياناً دوافعها النبيلة بأهداف الاستعمار الذي يسخرها لمخططاته»^(١).

ويمكن تلخيص المسألة التي أثارها المستشرقون، ومن حذا حذوهم من العرب بأن علماء العرب القدماء، ومنهم الخليل بن أحمد [ت: ١٧٥ هـ]، تأثروا باليونان والهنود حينما وضعوا النحو العربي، وحينما صنعوا المعجم العربي، لكن التأثير اليوناني أوسع وأعمق. فما سمة المنهج اليوناني؟ وما مدى تأثيره في الدراسات اللغوية العربية القديمة؟

(١) في عم البعة العام، د. عبد الصبور شاهين ص ١١ القاهرة ١٩٧٤ م.

ثانياً — منهج اليونان وتأثيره في الدراسات اللغوية العربية

يجمع الباحثون على أن الإغريق كانوا يجنون الفلسفة غاية الإجلال، ويعدونها أم العلوم، ولهذا أتاحوا لها أن تطغى على علومهم وآدابهم، فلم ينج من سلطانها الفلك والرياضيات، فكيف ينجو منه النحو واللغة؟ ولعل أهم ما كان يشغل فلاسفتهم — وهم في الوقت نفسه علماء اللغة — أن يصلوا إلى جذور اللغة الإنسانية وأصولها، أي أن يقفوا على نشأة اللغة. وأبرز آرائهم في هذا الميدان رأيان:

أولهما يذهب إلى أن اللغة توقيفية، إذ يرى «أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهي، هبط على الإنسان، فعلمه النطق وأسماء الأشياء. وإلى هذا الرأي ذهب الفيلسوف هيراقليط Heraclit^(٢). ثم تابعه فريق من الأوربيين، وشفعوا رأيهم بما ورد في سفر التكوين من خبر آدم، ومن وضعه أسماء الحيوانات والطيور منذ خلقها الله^(٣).

وثانيهما «أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق، وارتجال ألفاظها ارتجالاً. وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني ديموقريط Democrite وهو من فلاسفة القرن الخامس ق. م»^(٤)

والكتاب الذي بين يديك كان قد ناقش في حديثه عن نشأة اللغة هذين الرأيين، وأضاف إليهما أن أحمد بن فارس اللغوي [ت: ٣٩٥ هـ] رجح النشأة الإلهية، وأيد رأيه بقوله تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾^(٥)، وأن أبا الفتح عثمان بن جني [ت: ٣٩٢ هـ] أول الآية نفسها تأويلاً قُرب معناها من الرأي الثاني القائل بالتواضع، لكنه لم يرجح رأياً على رأي.

ولا يعيننا ههنا أن نوازن ونرجح، وإنما يعيننا أن نقف على السمة الأساسية التي اتسم بها منهج اليونان في دراسة اللغة. وهي التأمل والنظر والتفكير المجرد غير المشفوع بملاحظة مباشرة. وإنني لفلاسفة اليونان أن يظفروا بمثل هذه الملاحظة حين ناقشوا ما لم يعايشوا، ودرسوا نشأة اللغة بعد أن اكتمت. إنهم كمن يدرس جذور شجرة خفيت في الأرض، وهو لا يرى إلا الغصون والأوراق.

(٢) علم اللغة، د. علي عبد الواحد وافي ص ٩٧.

(٣) سفر التكوين ٢٠/٢.

(٤) علم اللغة، د. علي عبد الواحد وافي ص ٩٨.

(٥) البقرة ٣١.

ولو تهيأت لهم الرغبة في أن يعالجوا نشأة اللغة بأسلوب علمي لما تهيأت لهم القدرة على تحقيق ما يرغبون في تحقيقه، لأنهم تخيروا موضوعاً ينتمي إلى مرحلة طواها الزمان. «المنهج العلمي يبدأ بملاحظة منظمة للظواهر المراد بحثها. وهذا العمل يفترض عملية اختيار وانتقاء وعزل للوقائع التي تهم الباحث في ميدان عمله بين ألوف الوقائع»^(٦). وكل ذلك لم يكن ميسوراً. ولهذا لا يجد الباحث في الدراسات اللغوية اليونانية منهجاً علمياً، بل يجد نظرات محمولة على الظن والتخمين.

حتى النظريات المطروحة للمناقشة في حاجة إلى أدلة وبراهين، وليس في مذهبي هيراقليط وديموقريط دليل واحد قوي، يمكن جعله ذريعة لوسم المنهج اليوناني بالسمة العلمية. ولهذا فنحن «لسنا هنا بصدد نظرية جديدة بالمناقشة، بل بصدد تخمين خيالي وفرض عقيم، يحمل في طيه آية بطلانه»^(٧).

إن هذا التخمين الخيالي العقيم هو الذي ضخمه المستشرقون، وجعلوه أساساً للمنهج العربي في دراسة اللغة. أو جعلوه، على أقل تقدير، أحد المؤثرات البارزة في هذا المنهج. قال المستشرق بارتولد — وقوله غير مشفوع بدليل —: «ألف الخليل كتابه المذكور (يعني العين) في خراسان، ويتضح من هذا القاموس تأثير اليونان في علوم العرب»^(٨). فكيف اتضح له ما اتضح؟

ثم أخذ الباحثون العرب يتبعون خطوات المستشرقين، ليرزوا تأثير اليونان، وجعلوا ترجمة التراث اليوناني إلى لغة العرب برهانهم الأول، فقال قائلهم: «ولعل العرب لم يترجموا عن أمة كما ترجموا عن اليونانية إما مباشرة، أو عن طريق السريانية. ومن المعلوم أن أرسطو كان له نصيب الأسد في الكتب المترجمة إلى اللغة العربية، وأن منطقته أصبح شهيراً في البلاد الإسلامية في العصر العباسي»^(٩).

ولما كان تأثير الترجمة يتصف بالعموم، ويمكن تلمسه في الثقافة كلها لا في الدراسات اللغوية وحدها، فقد نقل الباحث العربي المسألة إلى ميدان ضيق، ورأى أن التأثير وقع على مرحلتين: وهما اختلاط الدراسات اللغوية اليونانية بفلسفة أرسطو عامة وبمنطقه خاصة، ثم انتقال هذا الاختلاط إلى دراستنا اللغوية العربية بصورة خاصة، وإلى نحونا بصورة أخص،

(٦) التفكير العمي، د. فؤاد ركري ص ٣١ سلسلة عام المعرفة الكويت ١٩٧٨ م.

(٧) علم اللغة، د. علي عبد الواحد وفي ص ٩٩

(٨) تاريخ الحصار الإسلامية، بارتولد ص ٣٩ ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف مصر.

(٩) مناهج البحث في اللغة، د. تمام حساين ص ١٦ القاهرة دار الكتب ١٩٥٥ م.

فقال : « هذه الدراسات اللغوية القديمة تختلط إلى حد كبير جداً بالنظريات المنطقية والميتافيزيقية ... وإن من يقرأ ما كتبه أرسطو في المقولات والعبارة والتحليلات الأولى والثانية ليجدها مليئة بالنظرات التي تخلط بين التفكير اللغوي والفلسفي »^(١٠).

ثم خطا الباحث خطوة أخرى ، فذهب إلى أن المناظرات اللغوية والنحوية التي كانت تدور بين حملة الثقافة اليونانية من المسيحيين من ناحية ، ونحاة العرب من ناحية أخرى تبرز تأثير المنطق اليوناني في النحو العربي ، فقال : « وم دارت المناظرات بين هؤلاء المسيحيين وبين علماء الإسلام في قصور الخلفاء وفي خارجها ... وكانت الأدلة في هذه المناظرات تصاغ على مثال الأقيسة الأرسطوطاليسية . وكان منطق أرسطو عند الفريقين مرجعاً نافذ الحكم والقضاء »^(١١) . « وأشهر مناظرة جرت بين النحاة والمناطق تلك التي كانت بين متى بن يونس الفيسوف وأبي سعيد السيرا في النحو سنة ٣٢٠ هـ »^(١٢).

ولا يستطيع الباحث القائل بالتأثير اليوناني ، والمنكر المدافع عن تفرد المنهج العربي أن يصل إلى رأي قاطع في هذا الخلاف إلا بعد دراسة المنهج العربي ، وبعد مقارنة سماته بسمات المنهج اليوناني ، فإذا فعل ذلك أمكنه أن يضع المنهج العربي في مكانه من مناهج الدراسة اللغوية ، وأن يحكم له أو عليه بلا تعنت ولا تزمت ، وبعيداً عن التعصب والتحيز . فما طبيعة هذا المنهج ؟ وما مدى تأثيره بمنهج اليونان ؟

ثالثاً — المنهج العربي الوصفي في دراسة اللغة

لن يكون الحكم على طبيعة المنهج العربي صادقاً إلا بالعودة إلى بداية العناية باللغة ، وتحول هذه العناية إلى رواية ودراية في المراحل الأولى . ثم إلى دراسة منظمة ذات أصول متبعة في المراحل الأخيرة . وبلاحظ المتتبع لهذه المراحل أن التحول تم على نحو بطيء لكنه واع ، أملاه ارتباط الإنسان العربي المسلم بالقرآن الكريم لا محاكاة الثقافة المترجمة .

كانت الخطوة الأولى حماية التلاوة من اللحن الذي فشت فاشيته منذ اختلط العرب بالأعاجم ، فكلف رباد بن أبيه أبا الأسود الدؤلي [ت : ٦٩ هـ] بضبط القرآن الكريم ،

(١٠) المصدر السابق ص ١٤ .

(١١) المصدر السابق ص ١٧ .

(١٢) النحو العربي والدرس الحديث ، د . عمده الراححي ص ٦٦ دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٦ .

فضبط حركاته بنقاط توضع فوق الحرف أو تحته أو بين يديه . ثم كلف الحجاج — وهذا التكليف يعد الخطوة الثانية — نصر بن عاصم [ت : ٨٩ هـ]^(١٣) بإصلاح الرسم للتمييز في قراءة المصحف بين الحروف المتشابهة كالحاء والخاء ، والباء والتاء . فأعجم نصر الحروف . ثم خطا الخليل بن أحمد [ت : ١٧٥ هـ] الخطوة الثالثة ، إذ طَوَّر رموز أبي الأسود ، فضبط الحركات برموز أخرى غير النقاط ، ليميز رموز الضبط من رموز الإعجام . فرمز للفتحة بألف صغيرة تعلو الحرف المفتوح ، وللضمة بواو صغيرة تعلو الحرف المضموم ، وللكسرة بياء صغيرة تذيّل الحرف المكسور^(١٤) .

والخطوة الأولى التي خطاها أبو الأسود أدت إلى تساؤل الناس عن سبب الرفع أو النصب أو الخفض في كل كلمة ضبطها أبو الأسود . فلما فكر أبو الأسود في الإجابة قاده التفكير إلى سر النحو . وسواء أكانت البدور الأولى لهذا العلم من ابتكار علي بن أبي طالب رضي الله عنه أم من ابتكار أبي الأسود ، فإن مجموعة المبادئ التي سجلها أبو الأسود في بضع صحائف سمّيت (التعليقة)^(١٥) . تعد الأساس الأول لعلم النحو . وهو أساس عربي خالص لا أثر للمنطق أو للفلسفة فيه .

ولم تكن الحميّة التي دفعت أبا الأسود إلى التفكير في وضع النحو طائفاً فردياً طاف به وحده ، بل كانت ترجمة لتيّار أخذ يتعاضم ، وتسري مشاعره الخيرة في نفوس الغيارى على كتاب الله وحديث النبي ﷺ . فهبّ المفسرون الأوائل ، ومنهم عبد الله بن عباس [ت : ٦٨ هـ] يجمعون الشعر والأمثال والخطب ليفسروا بألفاظها ألفاظ الكتاب والسنة^(١٦) .

ثم تعاضمت الموحّة ، وعدت رواية الشعر مكرمة يتبارى الناس في حيازتها ، واندفع الرواة — وكلهم قارئ أو حافظ أو نحوي — إلى البادية ، يجمعون الشعر من أفواه الأعراب ، ويستقونه صافياً من منابعه الأولى . ومن هؤلاء الرواة عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي [ت : ١١٧ هـ] وعيسى بن عمر [ت : ١٤٩ هـ] وأبو عمرو بن العلاء [ت : ١٥٤ هـ] والنضر بن شميل [ت : ٢٠٣ هـ] وآخرون . كانوا يذهبون بالصحف والأقلام والحبر إلى نجد والحجاز ، ويعودون بمصيح الشعر مخطوطاً في السطور ، أو محفوظاً في الصدور .

(١٣) انظر التصحيح والتحريف لأبي أحمد العسكري ص ١٠ مطبعة القاهرة ١٩٠٨ م .

(١٤) المحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني ص ٦ — ٧ تح د . عرة حس دمشق ١٩٦٠ م .

(١٥) انظر معجم الأدباء ليقوت الحموي ١٤ ٤٩ القاهرة مكتبة الباني الحسي ١٩٣٦ م .

(١٦) انظر تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ٢٤، ١ صغ الباني الحلبي القاهرة ١٩٥٤ م وتفسير الطبري (جامع البيان) ١٧٥/١ .

ورافقت مرحلة الجمع وأعقبها مرحلة التأليف والتصنيف . نهض بها هؤلاء الرواة ، إذ صنفوا مما جمعوا رسائل وكتباً في اللغة والنحو والصرف وغريب القرآن وغريب الحديث والحيوان والنبات . ألف أبو عمرو بن العلاء النوادر في اللغة^(١٧) ، وألف عيسى بن عمر الجامع والإكمال في النحو^(١٨) ، وألف عبد الله بن أبي إسحاق الهمز^(١٩) في الصرف ، وألف عبد الملك بن قريب الأصمعي [ت : ٢١٣ هـ] في غريب الحديث^(٢٠) ، وألف أبوفيد مؤرج السدوسي [ت : ١٩٥ هـ] في غريب القرآن^(٢١) .

ومن يرجع إلى فهرست ابن النديم ، وإلى ما ذكرته كتب الرجال والتراجم يجد عشرات الكتب اللغوية في الإبل والشاء والمطر وحق الإنسان . وهذه المؤلفات التي لم يكن فيها لفلسفة اليونان ومنطق أرسطو أدنى أثر أو ذكر تثبت أن الدراسات اللغوية — إذا توسعنا في معنى الدراسة وألحقنا بها الجمع والتصنيف — بدأت بداية عربية خالصة ، لا أثر فيها لدخيل .

وفي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري نقل علماء اللغة العرب بحوثهم اللغوية من مرحلة الجمع والتصنيف إلى مرحلة الصنع والتأليف ، ومن الاعتماد على السماع وحده إلى مزج السماع بيسير من القياس العقلي . وحسبنا ههنا أن نشير إلى كتابين يمثلان أرقى ما وصل إليه البحث اللغوي في تلك المرحلة : أحدهما في اللغة ، وهو معجم العين للدخيل بن أحمد [ت : ١٧٥ هـ] . والثاني في النحو ، وهو (الكتاب) لسيبويه عمرو بن عثمان [ت : ١٨٠ هـ] . وكلا الكتابين ينهج المنهج الوصفي الذي تباهي بانتهاجه الدراسات الغربية الحديثة . وتتبدى سمات هذا المنهج فيما يلي :

١ — تحديد الزمان : يرى أصحاب المنهج الوصفي أن اللغة دائمة التغير . ولهذا فكل دراسة لا يُحصرُ موضوعها بفترة زمنية محددة تعد عملاً غير علمي . فرما أدرك التطور الظاهرة المطروحة للبحث قبل أن ينجز الباحث بحثه ، وقبل أن يتوصل إلى نتائج محددة . وحينئذ يضطر إلى العود على البدء ، وإلى اتخاذ بداية ونهاية آخرين ، تحصران بحثه^(٢٢) .

(١٧) الفهرست لابن النديم ص ١٣٠ .

(١٨) أخبار النحويين المصريين لسيرافي ص ٣٢ ، المصنعة الكتوليكية بيروت ١٩٣٦ م .

(١٩) مراتب النحويين لأبي الطيب اللعوي ص ١٢ تح محمد أبي الفصل إبراهيم القاهرة ١٩٥٧ م .

(٢٠) النهاية في غريب الحديث لاس الأثير ٤٠١ تح الراوي والصاحي القاهرة ١٩٦٣ م .

(٢١) إنباه الرواة للقفصي ٣٢٧ ٣ تح أبي الفضل إبراهيم دار الكتب القاهرة ١٩٥٠ م .

(٢٢) انظر مبادئ السابيات ، د . أحمد محمد قدور ص ٢٣ دار الفكر دمشق بيروت ١٩٩٦ م .

ولو ضربنا مافعله الخليل في العين وسيبويه في الكتاب على محك المنهج الوصفي لوجدنا الزمن محدد البداية والنهاية . أما البداية فالقرن الذي سبق الإسلام ، وأما النهاية فسنه ١٥٠ هـ . فكل كلام مات قائله بعد هذه السنة مرفوض لا يحتج به ، أي لا يجوز إقحامه في دراسة اللغة والنحو ، لأن موجة اللحن كانت قد اتسعت مع مرور الزمن ، وهجنت كلام الفصاح .

ولك أن تأخذ على صنيع النحاة تطاول القيد الزمني ، لأن المنهج الوصفي يؤثر الزمن القصير ، ويرى أنه كلما قصر الزمن قربت النتائج من الدقة . وعذر الخليل وسيبويه أنهما لم يدرسا ظاهرة جزئية من ظواهر اللغة العربية ، بل تناولوا اللغة العربية كلها ، فلاضير على منعهما من استطالة الزمن ، فإن تعديل المنهج في سبيل إنجاز العمل أولى من التزامه إذا أدى الالتزام إلى النقص . وإذا كانت البداية في المادة التي درسها الخليل وتلامذته غير واضحة فالنهاية التي وقفوا عندها واضحة كل الوضوح . ومما يشفع لهم ، ويزيد عملهم تحقيقاً وتدقيقاً أن القدر الأكبر من المادة التي درسوها كان حياً تلهج به ألسنة الأعراب الذين يتصل بهم الدارسون صباح مساء .

٢ — تحديد المكان : ويقضي المنهج الوصفي بأن يحدد الباحث مكان المادة المدروسة ، لأن عدم التحديد يعرض هذه المادة للاحتلاط بما يشوبها من الأماكن المجاورة . والمدرسة البصرية — والخليل وسيبويه أكبر رؤوسها — حددت البقعة التي تدرس لغتها ، إذ تخيرت قلب الجزيرة العربية ، وتخيرت من هذا القلب نجداً والحجاز وزهدت فيما سواهما . فاحتجت بلغة قريش وثقيف وهذيل وغطفان . « وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبيشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم . وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية »^(٢٣) .

ثم ضيقت مدرسة البصرة قيد المكان ، إذ رفضت الاحتجاج بكلام الأعراب الذين يارحون البادية ، ويحيون في الحواضر ، لأن تركهم يئتهم يعرض لغتهم للفساد . قال أبو عمرو ابن العلاء : « لم أربدوياً أقام في الحضر إلا فسد لسانه غير رؤية والفرزدق »^(٢٤) .

٣ — تحديد المستوى : القيدان السابقان قيد الزمان وقيد المكان أفضيا بالمنهج الوصفي إلى قيد ثالث ، وهو تحديد المستوى ، لأن الوصفين حينما رسموا للظاهرة المدروسة

(٢٣) مقدمة اس خلدون ص ٦٤٩ لقاهرة ١٩٣٠ م .

(٢٤) حراة الأدب للبغدادى ٢٠٤١ طعة بولاق ١٢٩٩ هـ .

إطاراً تاريخياً وإطاراً جغرافياً قصدوا حصر المستوى اللغوي للظاهرة . وإلى هذه الغاية ذهب نحائنا في تحديد الزمان والمكان قبل وضع القواعد ، إذ رموا إلى اختيار المستوى اللغوي الفصيح ، وانتبأ ما عده من اللهجات المضعوفة والكلام الملحون ، أي : إلى إثارة لغة قريش على مستويات اللهجات التي تسرب إليها اللحن من مخالطة الأعاجم .

ويبدو أن البصريين كانوا أشدّ تقيّداً بقيود المنهج الوصفي من الكوفيين . إذ أجاز الكوفيون لأنفسهم الأخذ من البدو الذين أخذوا يتأثرون بالحضارة ، وهم «أعراب سواد الكوفة من تميم وأسد ، وأعراب سواد بغداد من أعراب الحطمة» (٢٥) .

وإنك لتذكر أن الكسائي لم يظهر على سبيليه في المسألة الزنبورية إلا بحجج واهية ، وشواهد مضعوفة ظاهره بها أعراب الحطمة ، وتذكر كذلك أن البصريين أشبعوا الكوفيين سخراً لخروجهم على المستوى الفصيح ، ولقبولهم هذا النمط المرفوض من الشواهد ، ولذلك قال قائل البصريين : «إنما أخذنا اللغة عن حَرَشَة الضباب وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء (الكوفيون) يأخذونها عن أكلة الشوايز وباعة الكواميخ» (٢٦) .

رابعاً — مقارنة المنهج العربي الوصفي بالمنهج اليوناني

من يقرن المباحث العربية اللغوية بما يشبهها من المباحث اليونانية يجد بوناً شاسعاً بين الفريقين في الموضوعات والغايات والسماط . فالمباحث العربية المعنية ههنا هي ما أنجز قبل نهاية القرن الهجري الثاني .

عالج اليونان أصل اللغة ونشأتها ، ومَرَّ بها العرب غير متبئين لعدم جدواها . فالمفسرون ، ومنهم مجاهد وابن عباس أدلوا بما اعتقدوا ، وعلماء اللغة آثروا الانصراف عن الجذور التاريخية إلى اللغة الحية ، فشغلهم نحو لغتهم عن نبش القبور والتفتيش عن الجذور ، وقال قائلهم : «الصحیح عندي أنه لا فائدة لهذه المسألة ، وهو ما صححه ابن الأنباري وغيره» (٢٧) .

وغاية المباحث اليونانية ربط اللغة بالفلسفة ، وإخضاع النحو للمنطق ، والادعاء بأن مقولات النحو اليوناني مقولات عقلية فلسفية . وبذلك سارت الدراسات اللغوية في ركاب

(٢٥) مدرسة الكوفة ، د. مهدي المحرومي ص ٣٣١ القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢٦) أخبار اسحق بن العباس لسيرافي ص ٦٨ . نج الربيعي وحفاحي مطبعة ساني القاهرة ١٩٥٥ م .

(٢٧) المرهر للسيوطي ٢٦/١ حققه محمد أبو الفصل إبراهيم ورفاقه القاهرة ١٩٥٨ م .

الفلسفة اليونانية التي كانت تهيمن على كل علم وكل فن . ثم امتد أثر الفلسفة اليونانية إلى النحو الأوروبي التقليدي ، فبسطت عليه مفاهيمها . « وهو نحوٌ مستمدٌ أساساً من أفكار أرسطو عن طبيعة اللغة اليونانية وعلم المنطق ، ومزيج من آراء أفلاطون ونظريات الرواقين عن أجزاء الكلام ، وأفكار عن طبيعة المعنى »^(٢٨) .

وسمات المنهجين متباينة كل التباين . والفرق بينهما — وهذا الفرق أهم ما يهنا — فرق جوهري لا مظهري ، يجعل كلاً منهما ينتمي إلى طريقة متميزة في البحث . فطريقة الدراسة التي سلكها النحو اليوناني تسمى في علم اللغة الحديث : طريقة « النحو التقليدي Traditional Grammar ويعنون به منهج النحو القائم على أفكار أرسطو عن طبيعة اللغة اليونانية ، كما تتمثل في أعمال اليونان والرومان القدماء »^(٢٩) .

وطريقة الدراسة في النحو العربي تسمى في علم اللغة الحديث المنهج الوصفي Descriptive Method وهذه الطريقة هي التي التزمها علماء العرب في عصر الخليل ، وهي الطريقة التي تنتهجها في العصر الحاضر أحدث الدراسات اللغوية العربية على النحو الذي سنبسّطه بعدُ . « والفرق الجوهري بين النحو التقليدي والنحو الوصفي التركيبي هو الفرق بين منهج العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية »^(٣٠) .

مما سبق يتبين أن الذين يربطون الدراسات اللغوية العربية القديمة بالمنهج اليوناني يخسون العرب حقهم ، ويحكمون على ظهر المنهج العربي الوصفي أوزار المنهج التقليدي الغربي . والدليل على ما نذهب إليه أن من الذين أزرؤوا بالمنهج العربي وألحقوه بالمنهج اليوناني مَنْ أقرّ للعرب باتباعهم المنهج الوصفي قبل أن تكتشفه الدراسات الغربية ، فقال : « الاتصال المباشر بالواقع اللغوي أصل من أصول النحو الوصفي ... وقد كان أيضاً أصلاً من أصول النحو العربي نتيجة لطبيعة الحياة العربية ، ولطبيعة الحركة العلمية التي نشأت في مناخ عام أساسه النقل والرواية . وقد أدى هذا الاتصال إلى أن يكون في النحو اتجاه وصفي في تناول كثير من ظواهر اللغة »^(٣١) .

ويغيب على الظن أن التبعة في حَمَل المنهج العربي الوصفي على المنهج الغربي التقليدي تعود إلى تأثير المنهجين جميعاً بمنطق أرسطو ، وبما فيه من قياس تائراً تختلف درجته وطبيعته .

(٢٨) مبع السحت الدعوي ، د . علي روين ص ١٠ ودراسة لثقافة العراقية بعدد ١٩٨٦ م .

(٢٩) النحو العربي وادرس الحديث ، د . عده المراححي ص ٤٥ . دار النهضة بيروت ١٩٨٦ م .

(٣٠) المصدر السابق ص ٤٥ .

(٣١) اللغة بين المعيارية والوصفية ، د . تمام حسام ص ٣٧ القاهرة ١٩٥٨ م .

ونحن — على إقرارنا بشيوع القياس والعلة في نحو المتأخرين — نزعم أن المنطق ليس وفقاً على اليونان وأرسطو وأن القياس أصل، أو أسلوب إنساني عام يسلكه العقل في التفكير، فليس كل من علل وقاس تابعاً لليونان.

تلك واحدة، والثانية أن القياس والعلة لم يكن لهما إلا أثر محدود في نحو المتقدمين، وأنهما شاعا بعد ذلك في نحو المتأخرين وبحوثهم اللغوية والصرفية حينما اختفت البيئة الصالحة لنمو المنهج الوصفي باختفاء السلائق الفصيحة والملكات الصحيحة التي كان يستقي منها المتقدمون. ومن المعروف أن الدراسات العربية في أكثر العصور ازدهاراً، وفي أشدها تخلّفاً لم تعترف باللهجات العامية، ولم تجعلها موضع درس ووصف. فكيف يبقى المنهج الوصفي حياً بعد أن ماتت العوامل التي تكفل له البقاء والتماء؟

لقد سبقنا إلى ما يشبه هذا الرأي الدكتور عبده الراجحي، فقال: «إن النحو العربي قد تأثر بالمنطق الأرسطي منذ مراحله الأولى، وإن هذا التأثير صار طاعياً في القرون المتأخرة. وقد أدى ذلك إلى أن يكون النحو العربي صورياً، وليس واقعياً. ومن ثم اهتم بالتعليل والتقدير والتأويل، ولم يركز درسه على الاستعمال اللغوي كما هو» (٣٢).

خامساً — المنهج العربي المعياري في دراسة اللغة

العيار في اللغة القياس، والمعيار المقياس، من عايرت الشيء بالشيء: إذا قسّته به تمتحنه وتعرف صحته. والعيار أو المعيار هو ما جعل مقياساً لندراهم والدنانير ليعرف ما فيها من الفضة والذهب. فلك أن تعد المنهج المعياري في دراسة اللغة، استناداً إلى هذا الأساس، اصطلاحاً حديثاً لما كان يعرف بمدرسة القياس. ويسميه الغريون Prescriptive System ويسمون اللغة الفصيحة التي تُجعل معياراً لغيرها من اللهجات Standard Language (٣٣).

وأصل اللغة المعيارية لهجة من اللهجات القومية. قيّض الله لها من أسباب الرقي والزعامة ما أعلاها على سواها، فأصبحت اللغة الرسمية للأمة، ولغة العلم والأدب. وأفضل مثال عليها لهجة قريش التي بزت في أواخر العصر الجاهلي غيرها من اللهجات، فأقرت لها القبائل بالسيادة والشرف (٣٤).

وأهم العوامل التي بوّأت لهجة قريش هذه المكانة المعيارية سيادة قريش السياسية،

(٣٢) اسحو العربي وإدرس الحديث د. عبده الراجحي ص ٤٨.

(٣٣) منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، د. علي رويس ص ٢٣.

(٣٤) المصدر السابق ص ٢٣.

ومنزلتها الدينية في حماية الكعبة وسدانتها ، وسيطرتها على الأسواق . كل ذلك حمل العرب على أن يؤثرها على لهجاتهم ، وعلى أن يتخذوها اللهجة المثلى في المحافل ، يتحدث بها الوفود ، وتلقى الخطب ، وينظم الشعر .

فلما نزل بها كتاب الله زادت رسوخاً وشموخاً ، وأصبح التزامها واحترامها واجباً دينياً ، يدين به المسلمون على اختلاف ألوانهم وألسنتهم ، بعد أن كانت رابطة قومية ، يعتصم بها العرب وحدهم . وغدت دراستها محور المنهج المعيارى . ونقطة الدائرة في هذا المحور فهم القرآن الكريم وإفهامه .

ولك أن تسأل عن السبب الذي جعل المنهج الوصفي يسبق المنهج المعيارى في دراسة العربية . والإجابة كامنة في طبيعة التطور الذي اجتازته الحركة الفكرية العربية . ففي العهد الأول كان همُّ اللغويين الجمع والإحصاء والاستقصاء والاستقراء ، ثم استنباط الأحكام من الكلام ، وكل ذلك من طبيعة المنهج الوصفي . إن الوصفيين لم يكونوا في حاجة إلى كثير من المنطق . بل كان يكفيهم منه اليسير القادر على تنسيق الدراسة وإسباغ الطابع العلمي المنظم عليها ، تمهيداً لتحويل العلم الذي كشف عنه المنهج الوصفي إلى ميدان التعيم الذي تبنى المنهج المعيارى ، أي : لوضع القواعد في أيدي الناشئة ، بغية دراستها لتعصم ألسنتهم من الدخن .

إن نقل علم اللغة من إطار الدرس إلى إطار التدريس ساعد على نقل المنهج من الوصف إلى المعيار لسبب واضح ، وهو أن التدريس يفرض على المعلم والمتعلم معياراً يحتكمان إليه في تمييز الصواب من الخطأ . ولما كان المعيار القديم الذي احتكم إليه الكسائي وسيبويه وهو البيئة الأعرابية — قد اختفى فإن المرجع الوحيد الذي بقي بين أيدي العلماء هو ما ورثوه من قواعد وشواهد ، ولذلك أخذت المناهج تبتعد عن السماع وتلتصق بالقياس ، حتى أصبح القياس الحَكَم الوحيد في تمييز المقبول من المردول .

ولما كان القياس — وهو العصب المحرك لسحو المعيارى — قد اتخذ وسيلة لضبط التفكير في أكثر العلوم ، لا في علم اللغة وحده ، فإنه سيطر على النحو سيطرة تامة . وأصبح علماء اللغة يؤثرون الصورة على المادة . فانصرفوا عن وصف اللغة وتحليلها إلى تثبيت القواعد الموروثة ، ورصّها في تعريفات وحدود كلية ، توحوا في صياغتها الدقة . لتكون جامعة مانعة ، حتى ظهرت كتب كاملة لا تجد فيها غير التعريفات ، يضيق بعضها فلا يزيد على بضع ورقات . ويتسع بعضها ، فيُعَدّ بالمجندات (٣٥) .

(٣٥) من الصف الموحى رسالة الحدود الأيكة والتعريفات الدقيقة للأصاري تح د . مار المارك . ومن المنطوق الكليات للكفوي

على هذا النحو انقلبت النهاية إلى بداية ، إذ انقلبت النتائج أي : القواعد التي توصل إليها المتقدمون من انتباههم المنهج الوصفي إلى ركائز يعتمد عليها المتأخرون في بناء المنهج المعياري ، وأصبح الخطأ في خمسين مسألة من مسائل السماع أهون على أبي علي الفارسي [ت : ٣٧٧ هـ] من الخطأ في مسألة واحدة من مسائل القياس^(٣٦) . وراح علماء اللغة يلتمسون العلل من أصول الفقه^(٣٧) ، ويقارنون علل النحاة بعلل الفقهاء ، والمتكلمين^(٣٨) ، ويصنفون الأشباه والنظائر في النحو على غرار الأشباه والنظائر في الفقه^(٣٩) ، ويخصصون كتباً مطولة لعلل النحو ، أي لفلسفة النحو المعياري .

وتجلى الكلف بالعلل في مظهرين : أولهما الإسراف في تشقيق العلل وسردها ، حتى إن أبا البقاء العكبري [ت : ٦١٦ هـ] جمع منها مجلدين يقعان في أكثر من ألف صفحة^(٤٠) ، واستطاع أن يعلل المسألة الواحدة باثنتي عشرة علة^(٤١) ، وهي في مجموعها علل عقلية خالصة ، قاد إليها المنطق ، ولم يرد بها السماع .

والمظهر الثاني الذي تجلى به كلف العلماء بالتعليل تشقيق العلل بعضها من بعض وتفريعها وتنويعها وبناء بعضها على بعض . ومن يستعرض عنوانات الجزء الأول من خصائص ابن جني يظفر بأكثر مما تحتاج إليه الدراسة اللغوية لو أنها سلكت غير المنهج المعياري . فبعضها يدعى العلل الموجبة ، وبعضها يدعى العلل ажوزة ، وبعضها يعلل العلة ويسمى علة العلة ، والمعلول قد يعلل بعلتين ، والحكم قد يبقى مع زوال العلة . والعلل قد تتعارض وتتناقض ، وقد تتظاهر وتتآزر^(٤٢) .

(٣٦) خصائص ٨٨٢ وفي صور نحو . سعيد لأفعني ص ٨٦ مكتب إسلامي بيروت ١٩٨٧ م

(٣٧) الخصائص لاس حي ١٦٣/١ .

(٣٨) الخصائص ٤٨١/١ .

(٣٩) الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي .

(٤٠) اللباب في علل الساء والإعراب لأبي البقاء العكبري .

(٤١) اللباب في علل الساء والإعراب للعكبري ١٤٩/١ ص ٥ . عري محتر طيمات ود عبد إله بهار دمشق دار الفكر ١٩٩٥ م .

(٤٢) لموقوف على هذه الأنواع من العلل انظر احصائص ١٠١٦٤ ١٠١٦٤ ١٠١٦٣/١٠١٧٤/١٠١٥٧٣ . ١٩٤/١٠١٦٦/١ .

سادساً — مقارنة المنهج المعياري بالمنهج الوصفي

تخرج من خصائص ابن جني ولباب العكبري معجباً بذكاء النحاة ، غير أن إعجابك بحملك على التساؤل عن الفائدة من التعليل والتأويل ، فتقول : هل الدراسة اللغوية في حاجة إلى كل هذه العلل ؟ وهل فهم العربية وإفهامها في حاجة إلى المنطق اليوناني ؟ ينكر الوصفيون على عدم اللغة حاجته إلى المنطق ، « لأنه يوجد القاعدة أولاً ، ثم يفكر فيما يمكن أن يدخل تحتها من المفردات »^(٤٣) ، ويرون أن الأسلوب الوصفي القديم كان أنجح وأنفع ، لأنه استقرأ ثم قعد ، فمادام عكس المتأخرون طرقي المعادلة ؟

إذا كان لك أن تنصف النحاة المتأخرين من النقاد المحدثين فقل : إن المتأخرين من النحاة وعلماء اللغة حرصوا على سلامة اللغة ، فأثروا صحة المادة على صحة المنهج ، وتخيروا المنهج المعياري لأنه يرسخ الصواب ، ويصبه في قوالب ثابتة ، لا تقلب التغيير . فالصواب إذن هو القاعدة الموروثة للاستعمال المستحدث . فمتى ظهرت صور جديدة في التعبير عرست على القواعد المعيارية ، فإن وافقتها أقرت ، وإن عارضتها رُفضت .

والصواب عند الوصفين المحدثين هو الاستعمال الحيّ الشائع . فمتى شاع التعبير وتقبله المجتمع عدا صواباً . إنه « مقياس اجتماعي يفرسه اجتماع اللغوي على الأفراد »^(٤٤) . وهذا يعني أن الصواب عرصة للتبدل ، لأن التطور الاجتماعي يستتبع تطور اللغة ، وتطور اللغة يفتح باب الابتداء ، والوصفية المحدثنة لا تقف عند حد الإقرار بصحة الابتداء . بل تقلب القاعدة المعيارية ، فتسفه القديم بلا تخرج ، « فما كان صواباً في الماضي يصبح خطأ في الوقت الحاضر ، ويصبح خطأ ليوم صواب الغد إذا رأى المجتمع أن يتبناه في الاستعمال »^(٤٥) .

وينحى عن الموقف المحافظ الذي يقفه المنهج المعياري من الخصاً والصواب أمر آخر ، يتعلق بصياغة الألفاظ الجديدة . فالمعاريون يربطون الصياغة بالمعايير القديمة الثابتة ، أي : بضربونها على محك الصواب قبل إقرارها أو إنكارها . والوصفيون يحتكمون فيها إلى المجتمع . فمتى ساعدت الصيغة مبتدعة — ولوسائل الإعلام السلطان الأكبر في إشاعتها — أقرها الوصفيون ، وهم يستفتونها فيها غير التداول .

(٤٣) مباحث البحث في اللغة ، د. تمام حسام ص ٣٣ .

(٤٤) اللغة بين المعيارية والوصفية ، د. تمام حسام ص ٦٩ .

(٤٥) المصدر السابق ص ٦٥ .

سادسا — مقارنة المنهج المعياري بالمنهج الوصفي

تخرج من خصائص ابن حني ولباب العكبري معجباً بذكاء النحاة . غير أن إعجابك بحملك على التساؤل عن الفائدة من التعليل والتأويل ، فتقول : هل الدراسة اللغوية في حاجة إلى كل هذه العذل ؟ وهل فهم العربية وإفهامها في حاجة إلى المنطق اليوناني ؟ ينكر الوصفيون على عدم اللغة حاجته إلى المنطق ، « لأنه يوجد القاعدة أولاً ، ثم يفكر فيما يمكن أن يدخل تحتها من المفردات »^(٤٣) . ويرون أن الأسلوب الوصفي القديم كان أجمع وأنفع ، لأنه استقرأ ثم قعد . فلماذا عكس المتأخرون طرقي المعادلة ؟

إذا كان لك أن تنصف النحاة المتأخرين من النقاد المحدثين فقل : إن المتأخرين من النحاة وعلماء اللغة حرصوا على سلامة اللغة ، فأثروا صحة المادة على صحة المنهج ، وتخيروا المنهج المعياري لأنه يرسخ الصواب ، ويصبه في قوالب ثابتة ، لا تقبل التغيير . فالصواب إذن هو القاعدة الموروثة للاستعمال المستحدث . فمتى ظهرت صور جديدة في التعبير عرضت على القواعد المعيارية ، فإن وافقتها أقرت ، وإن عارضتها رُفضت .

والصواب عند الوصفين المحدثين هو الاستعمال الحيّ الشائع . فمتى شاع التعبير وتقبله المجتمع غدا صواباً . إنه « مقياس اجتماعي يفرضه المجتمع اللغوي على الأفراد »^(٤٤) . وهذا يعني أن الصواب عرصة للتبدل ، لأن التطور الاجتماعي يستتبع تطور اللغة ، وتطور اللغة يفتح باب الابتداع ، والوصفية المحدثنة لا تقف عند حدّ الإقرار بصحة الابتداع ، بل تقلب القاعدة المعيارية . فتسفه القديم بلا تخرج . « فما كان صواباً في الماضي يصبح خطأ في الوقت الحاضر . ويصبح خطأ اليوم صواب الغد إذا رأى المجتمع أن يتبناه في الاستعمال »^(٤٥) .

وينحى عن الموقف المحافظ الذي يقفه المنهج المعياري من الخطأ والصواب أمر آخر ، يتعلق بصياغة الألفاظ الجديدة . فالمعاريون يربطون الصياغة بالمعايير القديمة الثابتة ، أي : يضرّبونها على محك الصواب قبل إقرارها أو إنكارها . والوصفيون يحتكمون فيها إلى المجتمع . فمتى شاعت الصيغة المبتدعة — ولو سائل الإعلام السلطان الأكبر في إشاعتها — أقرها الوصفيون . ولم يستفتوا فيها غير لتداول .

(٤٣) مدح ببح في اللغة ، د . تدم حساب ص ٣٣ .

(٤٤) لغة من معيارية ووصفية ، د . تدم حساب ص ٦٩ .

(٤٥) مصدر استدق ص ٦٥ .

- وبعد أن وقفت على سمات المنهجين تستطيع أن توجز الفروق بينهما في الأمور التالية :
- ١ — المنهج الوصفي مذهب السماع ، والمعياري مذهب القياس ، ولذلك كان مذهب أهل الكوفة أوضح وصفية من مذهب أهل البصرة .
 - ٢ — الوصفي يبدأ من الاستقراء ، وينتهي إلى القواعد ، والمعياري — بعد أن حُرِّم الاستقراء بحرمانه البيئة الفصيحة — حاصرت القواعد ، فهو لا يكاد يفلت منها حتى يعود إليها محملاً بما هداه إليه المنطق والقياس .
 - ٣ — علم اللغة في المنهج الوصفي أوفر حظاً من الاستقلال لزهده في العلوم الأخرى . وهو في المنهج المعياري يستعير من المنطق والفقه وعلم الحديث كثيراً من الأصول والمصطلحات والأحكام .
 - ٤ — المنهج الوصفي شكلي لاعقلي ، فهو يزهد في التقدير والتأويل ، ويميل إلى الأخذ بظاهر اللغة . والمعياري حريص على التأويل والتقدير ليرد الشذوذ إلى الأطراد ، ويربط الفروع بالأصول ويتكلف الأوجه الضعيفة لكل ما لا يمكن رده وربطه بالقواعد العامة .
 - ٥ — المنهج الوصفي لالتزامه السماع واقعي لا متالي ، وواضح لا غامض ، والمعياري لغوي في تقديس المنطق والعقل جاوز المعقول إلى غير المعقول في بعض الأحيان ، ولا سيما حين درس لغة الشعر ، وعكف على الضرائر يخرجها ويسوغها ، فوفق حيناً وتكلف في أكثر الأحيان . حتى إن أحمد بن فارس اللغوي [ت : ٣٩٥ هـ] عدَّ الضرورة علطاً ، وألف في دمها ، وذمَّ من يرتكبها كتاباً^(٤٦) ، يصف فيه الضرورة باللحن ، فيقول فيمن يتجرأ عليها : « ولو أنه أعرض عن هذا الملحون المعيب لكان أحرى به »^(٤٧) .
- نخلص مما عرضنا من مناهج العرب الأقدمين إلى أنهم سلكوا في دراسة النحو واللغة منهجين : منهجاً وصفياً واقعياً ، ومنهجاً معيارياً منطقياً . فما المناهج التي اتبعتها الدراسات اللسانية الحديثة ، وما الذي يميزها من المناهج القديمة ؟

(٤٦) عنوان الكتاب دم احصا في شعر . وهو رسالة مطبوعة مع كتاب مسوى ، تنسب سنة ١٣٤٩ هـ ومشتورة

في مجلة معهد المخطوطات العربية سنة ١٩٧٩ م العدد ٢٥

(٤٧) مجلة معهد المخطوطات العدد ٢٥ ص ٤٥ .

المناهج الحديثة في دراسة اللغة

أولاً - تمهيد

مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي أخذت الدراسات اللغوية الغربية تخطو خطوات واسعة، فأُنجزت في سنين ما لم تنجزه في قرون. ولم يقتصر تقدم هذه الدراسات على شكل واحد من أشكال الثراء والعطاء، وهو غزارة الدراسات وتنوع الموضوعات، بل حاوز الغزارة في المدروس إلى التعدد في المدارس، والكثرة في المقدار إلى التجديد في المناهج.

وربما كان اكتشاف اللغة السنسكريتية، والكشف عن صلتها الوثيقة باللغتين الأوربيتين العريقتين: اليونانية واللاتينية المُنبثق الذي انبثقت منه هذه الدراسات. وقد كان مقدراً لمثل هذه الدراسات الضاربة إلى ثلاث لغات قديمة بنسب أن تنهج منهاجاً تاريخياً، أو منهاجاً يجمع بين المقارنة والتاريخ. غير أن أرباب هذه الدراسات نهجوا فيما درسوا ثلاثة مناهج، وهي: «المنهج الوصفي، والمنهج التاريخي، والمنهج المقارن»^(١).

ثانياً - المنهج الوصفي

لما كان المنهج الوصفي أوسع المناهج شهرة، وأعناها دراسات ودارسين ومدارس، ولما كان السبّاق في هذا المضمار فقد قدمناه على ما عدها، وجعلنا تفصيل القوم فيه مدخلاً للقول في غيره. فكيف ظهر هذا المنهج؟ ومن أبرز أعلامه؟ وما آراء هؤلاء الأعلام؟ وما الموضوعات التي درسوها؟ وما الأسس التي أقاموا عليها دراساتهم؟ وهل عرفت

(١) انظر المدخل إلى علم لغة، د. رمضان عبد التواب ص ١٨١.

الدراسات الوصفية العربية القديمة بحثاً تعادل الدراسات الوصفية الحديثة في منهجها ونتائجها ؟
(آ) ظهور المنهج الوصفي وأسسـه :

تعدّ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر حدّاً يفصل بين عهدين من تاريخ الدراسات اللغوية الأوروبية والأمريكية ، فقد كانت الدراسات اللغوية التي استأثرت باهتمام العلماء الغربيين منصرفةً إلى البحث في أصل اللغة الإنسانية ونشأتها ، معنيّة بفقه اللغتين اليونانية واللاتينية ، مشغولة بالمقارنة بين اللغات لقياس بعضها على بعض ، أو تفضيل بعضها على بعض في جوانب متعددة ، منها غزارة المفردات ، وضخامة التراث الأدبي ، وروعة البيان ، ثم الحكم لكل لغة أو عليها أحكاماً تتجانب الدقة العلمية ، أو تخالطها النزعات القومية والأهواء الخاصة^(٢) .

ويبدو أن علماء اللغة في هذه الفترة تأثروا بالمنهج العلمية التي تتخذ من الملاحظة والاستقراء والتجربة أساليب لدراسة الواقع واكتشاف ما في الطبيعة من حقائق . فانتبدوا المناهج القديمة ، وآثروا الملاحظة المباشرة والاستقراء الواسع ، واكتفوا بوصف ما تقدمه إليهم اللغات الحية المتداولة ، لا اللغات القديمة المكتوبة من خصائص وسمات^(٣) .

وأقاموا منهجهم الجديد على ثلاثة أسس هي : الزمان ، المكان ، والمستوى .
أما الزمان فركن لا بد من تحديده قبل إقامة الدراسة عليه . وهو قيد يقيد بداية المادة المدروسة ونهايتها بفترة زمنية معينة لسبب معروف ، وهو أن الظواهر اللغوية دائمة التغير ، فإذا لم يحدد الزمان أدرك التغير الظاهرة قبل أن تبغ الدراسة غايتها ، أو قبل أن تفضي الدراسة بالدارس إلى نتائج محددة .

وأما المكان فتحديده لا يقل خطراً عن تحديد الزمان ، لأن الظاهرة اللغوية تحيا في بيئة خاصة بها . فإذا لم يرسم للظاهرة المدروسة إطار من الأرض ، أو سمح للبيئة التي جعلت ميداناً للدراسة بأن تمتد في كل اتجاه اختلطت اللهجة باللهجة ، وتعذرت الإحاطة بالموضوع . ومن المعروف أن اللغات تتأثر بالأرض والمناخ والموقع الجغرافي ، وأن تأثرها بها في موضعين مختلفين قد يؤدي إلى نتائج مضطربة .

وثالث الأسس المستوى ، ويعني الوصفيون به اختيار الظاهرة المطروحة للبحث من فئة اجتماعية خاصة ، أو من طبقة محددة الثقافة ، أو من فرع من فروع العلم أو الأدب . فقد يقبل الدارس على دراسة اللغة في مستواها الأدبي الفني ، وقد يقبل على دراستها في

(٢) انظر علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وآي ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) انظر مبادئ اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص ٢٤ .

مستواها السوقّي، وقد يختار من المستوى الأدبي العام مستوى خاصاً، كأن يدرس السرد في القصة، أو الحوار في المسرحية^(٤). وقد يقتصر وهو متجه إلى المستوى العامي على دراسة لهجة في بلد أو قرية، أو على ما تلغو به ألسنة الشطار والعيّارين. وكلما كان المستوى أدقّ تحديداً، وأوضح أبعاداً، وأضيق مكاناً، وأقصر زماناً كانت النتائج أقرب إلى الصدق، وأشبه بالحق^(٥).

ولتوضيح هذه الأسس الثلاثة نذكر القارئ بما صنع نخاة العرب الوصفيون، فقد قيدوا النحو العربي بقيد المكان حينما اكتفوا بما بلغهم من عرب نجد والحجاز، وقيدوه بقيد الزمان حينما منعوا الاحتجاج بما قيل بعد سنة ١٥٠ هـ. ولكنهم توسعوا في الأساس الثالث، أي في المستوى حينما احتجوا بالقرآن الكريم والحديث الشريف وبكلام العرب منشوره ومنظومه. ولو ضيقوا المستوى، فجعلوه قاصراً على الكتاب والسنة والمنثور وزهدوا في الشعر لجاء نحوهم أقرب إلى الاطراد، وأبعد عن الشذوذ، ولكنهم أدخلوا الشعر فيما درسوا فاضطروا إلى تفريع الضرائر، واضطروهم التفريع إلى مجاوزة المنهج الوصفي. وحملهم على اللجوء إلى التأويل والتقدير والتخريج المتعسف.

ب — تطور المنهج الوصفي وأشهر أعلامه ومدارسه :

يخطيء من يظن أن المنهج الوصفي طريقة واحدة في البحث محددة السمات، أو قواعد ثابتة، لا يصيبها التغير. صحيح أن أهم سماته وصف اللغة أو اللهجة المدروسة في مستوياتها المتباينة، وعناصرها المتعددة، والتوفر على تحليل أصواتها وأبنيتها وتراكيبها، وصحيح كذلك أن اللهجات فازت بالخط الأوفى من عناية الوصفيين، لأن اللهجة المحلية أضيق نطاقاً من اللغة القومية، ولأن الباحث أقدر على الإحاطة بها، غير أن المنهج الوصفي لم يلتزم أصولاً ثابتة، بل تفرع إلى طرائق، بعضها اتسع في ميدان الدرس بعض الاتساع، وبعضها ضيق ميدانه كل التضيق، حتى إن أنطوان ميه A. Meillet زعم أن المنهج الوصفي يكتفي بدراسة الاستعمال اللغوي عند شخص معين في زمان ومكان معينين^(٥).

كان ذلك في القرن التاسع عشر، ومع بداية القرن العشرين انشعب المنهج الوصفي إلى مدارس. تعتمد لاحقاً على السابقة وتفيد من تجربتها، وتنقدها، وتحورها، ثم تبني مدرسة جديدة. وهكذا تعددت صور المنهج الوصفي، واختلفت تحليلاته. وظهرت فيه مذاهب فرعية مند أن وضع أسسه فرديناند دو سوسير F. De Saussure [ت: ١٩١٣ م]^(٦).

(٤) انظر مدخل إلى علم اللغة، د. محمد حسن عبد العزير ص ١٣٨ وما بعدها.

(٥) انظر المدخل إلى علم اللغة، د. رمضاد عبد التواب ص ١٨١ - ١٨٢.

(٦) المصدر السابق ١٨٢ وأصر علم اللغة د. عبيد الواحد وافي ص ٦٧.

وأشهر مدارسه ثلاث: المدرسة البنيوية، ومدرسة النحو التوليدي التحويلي، ومدرسة القوالب.

١ — المدرسة البنيوية Structural Linguistics : منشئ هذه المدرسة اللغوي

السويسري فرديناند دو سوسير ، فهو الذي أرسى أسسها بعد أن ضاق صدره بالمنهج التاريخي . واتضح هذه الأسس في المحاضرات التي ألقاها في جامعة جنيف ، ونشرها طلابه تحت عنوان (محاضرات في علم اللغة العام) .

وأبرز ما يتجلى في هذه المحاضرات من المنهج الوصفي تحديد المادة المدروسة ، والخروج من التعميم إلى التخصيص ، والفصل بين أمرين قد يترأى للمرء أنهما أمر واحد . وهما (الكلام) و (اللسان) . فالكلام عند دو سوسير « كلام الفرد أو المنطوقات الفعلية » التي يقولها إنسان واحد . أما اللسان « فهو المواضع والإشارات التي يشترك فيها جميع أفراد مجتمع لغوي معين . وتتيح لهم من ثمة الاتصال اللغوي فيما بينهم »^(٧) .

وبهذا الفصل استطاع دو سوسير أن يميز المستوى الفردي الذي يتأثر بذكاء الفرد وثقافته وإرادته (أي الكلام) من المستوى الاجتماعي الذي هو البنية التحتية للغة المشتركة بين أفراد المجتمع . وهي البنية التي يعمل البنيويون على كشفها ووصفها ودراستها ، وهي كما يسميها دو سوسير (اللسان) .

وبعد أن تمّ الفصل قرر دو سوسير أن اللسان نظام من العناصر المترابطة . تشترك في بنائه الأصوات والمفردات والتراكيب على نحو ما ، ويتجلى في صورة من الصور . ولهذا فاللغة عنده شكل لا مادة ، وهذا الشكل هو الجدير بالدراسة الوصفية ، والدراسة الوصفية للأنظمة اللغوية الشكلية أساس علم اللغة عنده . وعند من بنى بعده على نظريته البنيوية .

وأبرز المتأثرين بهذه النظرية فرانز بوعز F. Boas^(٨) . وأبرز ما قبسه منها الاهتمام البالغ بدراسة الأصوات والنظام الصرفي والصيغ ، والإيمان بأن التحليل الوصفي المجدي في الدرس اللغوي هو ذلك الذي ينصب « على كل لغة على حدة وفقاً لأحوالها الخاصة »^(٩) . وهذا الرأي ترك صداه البعيد فيمن جاء من بعده من اللغويين ، وأصبح أحد المعتقدات الأساسية في الدراسات اللغوية الأمريكية التي انتهجت النهج الوصفي .

ومن أعلام البنيوية إدوارد سابير E. Sapir تلميذ بوعز . وقد أتم ما بدأه أستاذه أي عمه

(٧) المدخل إلى علم اللغة ، د . مصال عبد التواب ص ١٨٤ .

(٨) في (العربية وعلم اللغة السيوي) ، د . حمي حيل ص ١١٨ رسم اسمه بوار .

(٩) المدخل إلى علم اللغة ، د . مصال عبد التواب ص ١٨٤ .

ما خصصه بوعز ، ودعا إلى تطبيق المنهج الوصفي البنيوي على اللغات التي تجمعها روابط مشتركة . ورأى « أن الوحدات الأساسية كالاسم والفعل ، والعمليات النحوية الأساسية كترتيب الكلمات هي أمور قائمة في جميع اللغات المشتركة التي يحتمل أن تكون لها عناصر كلية مشتركة »^(١٠) .

ولم يصب سابير وبوعز من الشهرة ما أصاب خلفهما ليونارد بلومفيلد L. Bloomfield ، إذ استطاع بلومفيلد منذ نشر كتابه اللغة Language سنة ١٩٣٣ م أن يهيمن على ساحة الدراسات اللغوية الغربية طوال ثلاثين سنة .

وأشهر ما اشتهر به بلومفيلد اعتقاده أن عالم اللغة عينٌ ترصد ما يجري ، ولهذا فعليه أن يقصر عمله على مراقبة الظواهر اللغوية الخارجية التي تقبل القياس . والقياس الذي مارسه بلومفيلد محدود النطاق ، يطبق على الظواهر الشكلية من اللغة ، لأن على العالم اللغوي أن يعنى بأصوات الألفاظ أكثر من عنايته بمعانيها . ومع أنه لم ينصرف عن دراسة المعاني انصرافاً كلياً فإن الدراسة الصوتية للألفاظ (الفونولوجيا) والدراسة الصرفية الشكلية (المورفولوجيا) طغت في مدرسته على دراسة المعاني .

لقد بقيت دراسة المعاني نقطة الضعف في نظرية بلومفيلد ، وأورثها من جاؤوا بعده ، « فذهبوا شوطاً بعيداً حين حاولوا استبعاد المعاني من دائرة التحليلات اللغوية »^(١١) . وهذا الموقف يجعل تدرس اللغوي باللغة كتمرس الموسيقى بالنغم . ونحن . مهما تبلغ بنا محابة البنيويين ، لا نستطيع أن ننسى أن اللغة وعاء الفكر وأن تحليل المبنى لا يغني عن دراسة المعنى .

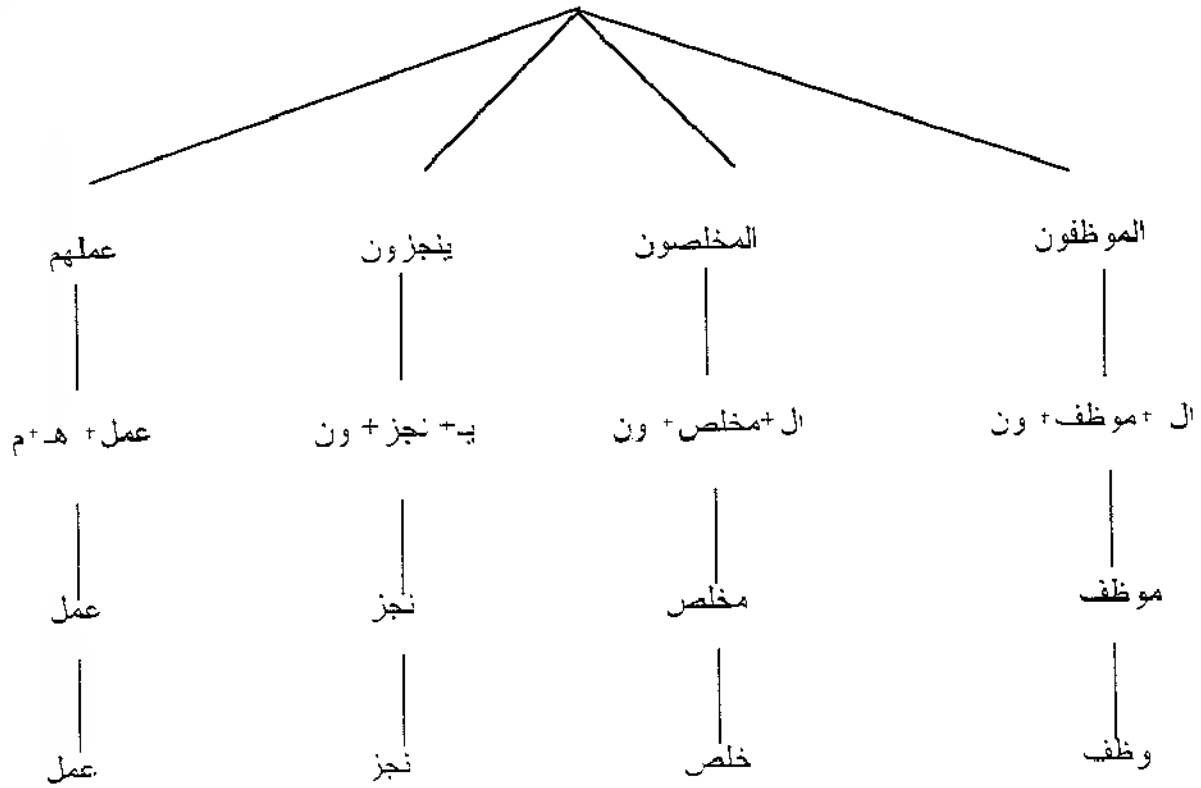
وأبرز ما في التحليل البنيوي الانتقال من المركب إلى البسيط ، ومن البسيط إلى الأبسط ، أي من الجملة كما تسمع من أفواه الناس إلى الكلمات التي تتألف منها هذه الجملة ، ومن الكلمات إلى العناصر الصوتية التي تتألف منها كل كلمة ، وكل عنصر من العناصر الصوتية يسمى مورفيم^(١٢) Morpheme وفيما يلي جملة محللة على الأسلوب البنيوي :

(١٠) المصدر السابق ص ١٨٥ .

(١١) المصدر السابق ص ١٨٦ .

(١٢) عرف الأستاذ محمد الأطاكي رحمه الله المورفيمات في (الوحير في فقه اللغة ص ٢٩٤) فقال : « هي أصوات تصاف إلى العناصر لصوتية المعبرة عن امهيات » وهي على أنواع : ١) مورفيمات من صوت واحد كضمة الإسناد في جاء أحمد . ٢) مورفيمات من مقصع واحد كحروف : من ، عن ، في . ٣) مورفيمات من عدة مقاطع كالهمزة والسين والتاء في استححر واستسقى . واستعمل ح . س . كاتفورد مورفيم بمعنى الوحدة الصرفية الصغرى . نظر كتابه (نظرية لغوية في الترجمة) ص ١٥ — ٢١ .

(١٣) الموظفون المخلصون ينجزون عملهم



وإن شئت أن تسم بنيوية بلومفيلد وأتباعه بسمات تدخصها فقل: أهم موضوعاتها دراسة النصوص اللغوية، ومنهجها وصفي يعتمد على وسائل الاستكشاف، وهدفها تصنيف العناصر اللغوية المدروسة، والشكل عندها أهم من المعنى، وهو أي: الشكل يختلف من لغة إلى لغة أي أن لكل لغة بنية خاصة تنفرد بها^(١٤).

٢ — مدرسة النحو التوليدي التحويلي Transformational Generative Grammar

أوضح السمات في هذه المدرسة الوصفية أنها جعلت موضوعها قدرة المتكلم على إنشاء جمل لم تطرق سمعه من قبل. وأنها تبنت أسلوباً وصفيّاً يجمع بين الحدس والتخمين من ناحية، وإجراء الاختبار لتقويم الفروض المتعارضة من ناحية أخرى. وأنها رمت إلى تحقيق غاية محددة، وهي دراسة السلاسل اللفظية لتمييز بين ما يشكل منها جملاً مفيدة، وما لا يشكل مثل هذه الجمل. فإذا ما زت نوعاً من نوع كان عليها أن تدرس السلاسل ذوات الجمل المفيدة — وفي كل لغة عدد لا ينتهي من الجمل — وأن توجه دراستها إلى هدف رسمته لنفسها، وهو الكشف عن القواعد النحوية الكامنة وراء بناء الجمل^(١٥).

(١٣) انظر الألسية العربية د. رمون طحان ٥٣/٢.

(١٤) انظر المدخل إلى علم اللغة ١٨٧.

(١٥) انظر الألسية أحدث العلوم الإنسانية، مجلة الفكر العربي العددان ٨ — ٩ ص ١٢٧ عام ١٩٧٩ م.

ظهرت هذه المدرسة نتيجة لدراسات اضطلع بها اثنان من اللغويين الأمريكيين أولهما زيلينغ هاريس Z. S. Harris واضع النظرية التحويلية Transformational Theory وثانيهما أفرام نعوم تشومسكي A. N. Chomsky صاحب علم اللغة التوليدي Generative Linguistics والفرق بينهما أن التيار التحويلي في دراسة اللغة ينصرف إلى البحث في العلاقات التي تنتظم عناصر الجملة الواحدة ، والعلاقات التي يمكن أن توجد في الجمل المحتمل وجودها في كل لغة من اللغات . وأن التيار التوليدي يفتح الباب واسعاً أمام ابتكار جمل جديدة يدرسها ، لإيمانه بأن كل لغة من اللغات قادرة على أن تنتج مقداراً لا ينتهي من الجمل . وعمله هو دراسة هذه الجمل المحتملة والكشف عن العلاقات التي تنتظم عناصرها^(١٦) .

« وقد ميز هاريس بين مجموعتين فرعيتين من الجمل النحوية الكلية القائمة في لغة كالإنكليزية مثلاً : ١ — الجمل النواة Kernel Sentences ٢ — الجمل غير النواة Nonkernel Sentences وغير النواة يتم اشتقاقها من الجمل النواة بواسطة قواعد تحويلية »^(١٧) .

ولتوضيح الفرق بين هذين التمثيلين من الجمل نضرب مثلاً من اللغة العربية . فالجملة النواة مثل قولك : حفظ الطالب النص . وغير النواة (أي الجملة المشتقة من النواة) قولك : حفظ النص . وليس من العسير أن يدرك القارئ ما بين الجملتين من علاقة تحويلية ، إذ تحولت الثانية عن الأولى بالبناء للمجهول . ويظهر تحولها من المقارنة بين عناصر الجملتين على النحو التالي :

فعل متعد مبني للمعلوم + مورفيم المعلوم + اسم (رقم ١ الطالب) + اسم (رقم ٢)
النص .

فعل مبني للمجهول + مورفيم المجهول (ضم الحاء) + اسم (رقم ٢) مع تغيير حركة الإعراب .

أما تشومسكي الذي « نشأ في مدرسة تطبق طريقة بلومفيلد في البحث اللغوي ، ورغم استقرار هذه المدرسة وازدهارها فإنه وجه إليها وإلى النحو الوصفي على العموم نقداً عنيفاً »^(١٨) .

وخلاصة هذا النقد أن مدرسة بلومفيلد اقتصرَت في دراستها على الأنماط الشكلية في اللغة ، واقتنعت من الدراسة بالوصف ، وأنها خوفاً من السقوط في التأويل غير الواقعي جمعت

(١٦) المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص ١٨٨ .

(١٧) المصدر السابق ص ١٨٩ .

(١٨) تشومسكي فكره اللغوي وآراءه النقاد فيه ، د . صري إبراهيم السيد ص ٥٥ .

الإنسان آلة تنتج الأصوات التي يدرسها اللغوي دراسة سطحية. «إن الإنسان عند تشومسكي ليس هذه الآلة... وليس من المعقول أن تتحول اللغة الإنسانية إلى مجرد تراكيب يسعى الوصفيون إلى تجريدتها من المعنى ومن العقل في هذا الوصف السطحي»^(١٩).

ولم ينكر تشومسكي على المنهج البنيوي قدرته على تحليل الجملة وردها إلى مورفيمات وفونيمات، لكنه رأى أن هذه القدرة ضئيلة الجدوى «لأن في كل لغة عدداً محدوداً من الفونيمات والمورفيمات. غير أن عدد الجمل في أية لغة واقعية هو عدد غير متناه، إذ ليس هناك حدّ لعدد الجمل الجديدة التي يمكن إنشاؤها، ولا تستطيع البنيوية تفسير ذلك»^(٢٠).

«وسعى تشومسكي للوصول إلى قواعد شاملة تنتظم تركيب الجملة في جميع اللغات على أساس أن هناك عوامل مشتركة بين البشر»^(٢١). وفحوى هذا الأساس — والقول قول إيلوار —: «أن أنماط التفكير التي التزمها العقل البشري قد فرضت على اللغات كافة»^(٢٢).

إن التقاء البشر عند هذا القدر من التشابه لا يلغي الموهبة الإبداعية Creativity التي تتمتع بها كل لغة من اللغات الإنسانية، وتتجلى هذه القدرة في مبدأ الاختيار، أي: في قدرة الفرد على اصطفاء النمط الذي يؤثر على سواه في بناء الجملة.

ومفتاح الاختيار عند تشومسكي لا تمسك به يد المتكلم الفرد وحدها، بل تمسك به أيضاً يد اللغة التي تمي هويتها على الجملة، فإذا الكلمة الأولى في الجملة تستتبع ما يناسبها. فإن قلت في العربية: هذه الحديقة مزدهرة، فاعلم أن (هذه) أملت عليك أن تؤنث البدل (الحديقة) والخبر (مزدهرة). أما إذا قلت (هذا) فعليك أن تذكر البدل والخبر كأن تقول: هذا البستان مزدهر.

ومن مبادئ المدرسة التحويلية التوليدية انطلاقها في دراسة الجملة من أساس مفترض، وهو «وجود علاقة بين الكلمات المتلاصقة، أي المتابعة بانتظام»^(٢٣). وهذا الافتراض غير مطرد، إذ يمكن أن يؤدي تطبيقه العملي إلى توليد جمل غير مقبولة. فإن أفضى بك التحويل والتوليد إلى أن تسبك جملة غامضة المعنى أو مرتبكة التركيب فاحتكم إلى

(١٩) المصدر السابق ص ٥٥. وانظر النحو العربي والدرس الحديث، د. عبده الراححي ص ١١١ — ١١٢.

(٢٠) المدخل إلى علم اللغة د. رمصا عبد لوب ص ١٨٩.

(٢١) مبادئ السائيات، د. أحمد محمد قدور ص ٢٥٧.

(٢٢) المصدر السابق ص ٢٥٧.

(٢٣) المصدر السابق ص ٢٥٩.

حدسك اللغوي العفوي فيما يجوز ، وفيما لا يجوز ، وستجد أن لديك لدى كل مجموعة من البشر تجمعها لغة واحدة حدساً رهيفاً لا يخطيء في حكمه . وهذا الحدس في نظر تشومسكي دليل مستقل صادق ، يستطيع أن يميز المقبول من المردول ، والمشروع من الممنوع .

وللتحويل في كل لغة نموذجات ، يستند كل منها إلى أصل راسخ في طبيعة اللغة وطباع الناطقين بها . ففي العربية مثلاً تحويل بالقلب ، وتحويل بالتثنية ، وتحويل بالجمع ، وتحويل بالتقديم والتأخير ، وتحويل بالحذف ... الخ . والتحويليون يُفيدون من هذه النماذج في إقامة نوع من التوازن بين العام المشترك الشائع في كل اللغات ، والخاص الذي تنفرد به كل لغة . على هذا النحو من العناية بالشكل أقام تشومسكي مذهبه التحويلي التوليدي ، ثم تبين له سنة ١٩٦٥م أن قواعده شكلية خالصة ، أي تنظر إلى الجملة بعينين : عين المستوى التركيبي للألفاظ syntactic Level وعين المستوى الصوتي (الفونولوجي) Phonological Level وتهمل النظر إليها بعين المعنى . حينئذ طلع تشومسكي على قرائه بنظرية تحويلية أقوى بناءً ، ضمّن كتابه مظاهر النظرية التركيبية Aspects of the Theory of Syntax . وفي هذا الكتاب استدرك تشومسكي ما فاتته قبل ، فوضع دلالات الألفاظ في مكانها من بناء القواعد ، وميز الكفاية اللغوية من الأداء الكلامي ، والبنية العميقة من البنية السطحية^(٢٤) .

ومهما يبلغ حظ هذه النظرية الأخيرة من الوضوح والقوة فإن النهج الذي انتهجه تشومسكي لا يميل إلى وضع نظرية ثابتة للنحو التحويلي التوليدي . وكيف يطمئن إلى نظرية كائناً من كان واضعها وهو يؤمن « بأن كل فرضية في إطار الألسنية التوليدية والتحويلية هي صحيحة ما لم تبرهن المعطيات اللاحقة على عدم صحتها »^(٢٥) . وما أكثر الفرضيات التي نسجها ثم نقضها !! وهذا يعني أن ما يصل إليه الباحث التوليدي اليوم قد ينكشف له عواره غداً ، فيضطر إلى تصحيحه .

والدليل على ذلك أن تشومسكي نفسه رجع عن بعض ما ابتدع ، وأن كتب المدرسة التحويلية التوليدية ليست على قلب رجل واحد ، بل ينقد بعضها بعضاً ، أو يعدّل بعضها بعضاً ، وأن المآخذ التي أخذت على فكر تشومسكي اللغوي بلغت ثمانية وعشرين مأخذاً^(٢٦) .

(٢٤) انظر المصدر السابق ص ٢٦٣ .

(٢٥) المصدر السابق ص ٢٥٧ .

(٢٦) انظر كتاب (تشومسكي : فكره اللغوي وآراءه القاد فيه ، د . صري إبراهيم السيد ص ٣٤٧ وما بعدها .

٣ — مدرسة القوالب Tagmemic Analysis : تعد هذه المدرسة ثلاثة المدارس

الوصفية التحليلية ، لكنها لا تسرف في التحليل إسرائف بلومفيلد وتشومسكي . فإذا كان تشومسكي يميز في دراسة اللغة الكفاءة اللغوية من الأداء الكلامي ، والبنية العميقة من البنية السطحية ، فهذه المدرسة ترى « أن مهمة علم القواعد في أسسه الأولية تتمثل في إعطاء نموذج أو نقل صورة لجانب الكفاءة »^(٢٧) .

وإذا كانت مدرسة بلومفيلد البنيوية قد حلت الجملة تحليلاً متعدد المراحل ، يرد المركب إلى البسيط ، والبسيط إلى الأبسط ، حتى تتفتت الجملة ، وتتحول الكلمات إلى عناصر صوتية هي المورفيمات والفونيمات ، فإن مدرسة القوالب التي طوّرها كنيث بايك K. Pike تقوم بنمط آخر من التحليل الوصفي أقل تعقيداً ، وأشدّ حفاظاً على البنية التقليدية .

التحليل اللغوي في هذه المدرسة « طائفة من الإجراءات لوصف اللغة ، ويعتمد على وحدة أساسية تسمى القالب Tagmeme . وتردّ هذه الوحدة ضمن مركب على هيئة سلسلة ، وتقع ضمن مستويات معينة من المستويات النحوية »^(٢٨) . فالمسند إليه — وهو المبتدأ في الجملة الاسمية كالنحو من قولك : النحو مفيد ، وهو الفاعل من قولك : يفيد النحو الطلاب — وحدة لفظية ، أو قالب ورد في أول السلسلة الأولى أي الجملة الاسمية ، وفي وسط السلسلة الثانية ، أي الجملة الفعلية . والمستوى النحوي الذي ورد فيه هذا القالب هو مستوى الإسناد .

وإذا تابعت هذه المدرسة في تحليلها وجدت أن معنى القالب في نظرها هو الارتباط بين الموقع الوظيفي Functional State وفئة من المركبات Items التي تشغل هذا الموقع ، وأن المركبات التي تشغل هذا الموقع مؤلفة من شكل Form ووظيفة Function . والمواقع الوظيفية يمكن أن تكون متنقلة المواضع في السلسلة اللغوية . ففي قولك : ضرب زيدٌ عمراً ، ثلاثة مواقع وظيفية تحتمل التنقل ، وهي موقع المسند (ضرب) وموقع المسند إليه (زيد) وموقع المفعول به (عمراً) . ومواضع هذه المواقع تحتمل الترتيب على ثلاث صور هي :

١ — ضرب زيد عمراً ٢ — ضرب عمراً زيد ٣ — عمراً ضرب زيد .
وهذا التغير أصاب المواضع ، ولكنه حافظ على المواقع الوظيفية النحوية ، أي أن تغيير الترتيب لم يغير الوظيفة النحوية التي اضطلع بها كل قالب^(٢٩) .

(٢٧) المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص ١٩١ .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٩٢ .

(٢٩) انظر المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص ١٩٣ .

وهذه المدرسة ترى أن كل موقع وظيفي يمكن أن يشغله أكثر من شاغل ، والشاغلـات Fillers على أنواع : فأنت تستطيع أن تجعل المسند إليه في الجملة الاسمية اسماً ظاهراً ، كأن تقول : محمد صائم ، وضميراً ، نحو : هو صائم ، ومصدراً مؤولاً ، نحو ﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾^(٣٠) . والترابط بين الموقع الوظيفي والشاغلـات هو في الحقيقة ترابط بين وظيفة وشكل^(٣١) .

ويقضي المنهج الوصفي الذي انتهجته هذه المدرسة بالتمييز بين القوالب ، وتقسيمها إلى أنواع :

أولها القالب الإجمالي ، وهو الذي لا بدّ من ظهوره في كل بنية لغوية تنتمي إليه ، ورمزه (+) للدلالة على وجوبه .

وثانيها القالب الاختياري ، وهو الذي يحق له أن يظهر وأن يختفي كالمفعول به في نحو : قرأ الطالب النص ، ورمزه (±) للدلالة على احتمال الذكر والحذف .

وثالثها القالب الأساسي ، وهو الذي يشكل ركني الجملة الفعلية ، أي الفعل والفاعل في نحو : ظهر الحق ، وركني الجملة الاسمية ، أي المبتدأ والخبر في نحو : الباطل زهوق .

ورابعها القالب الثانوي ، وهو الذي يأتي تكملة ، ولا ينعقد به إسناد كالظرف والجار والمجرور ، في نحو : يظهر الحق على الباطل كل حين .

وخامسها القالب الثابت ، وهو الذي يتمتع بوضع ثابت بالنسبة إلى غيره من قوالب التركيب .

وسادسها القالب المتحرك ، وهو الذي يستطيع أن يغير موضعه بالنسبة إلى غيره من القوالب^(٣٢) .

وفي تحليل المثال التالي توضيح لهذه الأنواع من القوالب : قرأ الطالب النص قبل المحاضرة . إن (قرأ الطالب) قالبان إجباريان أساسيان ، لأن الجملة لا تنعقد إلا بهما ، وهما ثابتان ، إذ لا يمكن أن يتقارضا موضعيهما ، فلا يجوز أن تقول : الطالب قرأ . و (النص) قالب اختياري ، إذ تستطيع أن تكتفي بقولك : قرأ الطالب . و (بعد المحاضرة) قالب ثانوي ، إذ يمكن أن يستغنى عنه . وهو أيضاً قالب متحرك ، إذ يمكن تقديمه ، كأن تقول : قبل المحاضرة قرأ الطالب النص .

(٣٠) القـرة ١٨٤ .

(٣١) انظر المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص ١٩٣

(٣٢) المصدر السابق ص ١٩٤ وما بعدها .

ثالثاً — المنهج التاريخي

لا يذهبن بك الظن إلى أن المنهج التاريخي في دراسة اللغة هو ذلك المنهج المعني بدراسة النشأة الأولى للغة الإنسانية، ثم بتعقب تطورها البطيء طوال ألوف السنين، ليقف الباحث على ما أنجزه هذا التطور في كل عصر من عصور التاريخ. فقد سبق أن أشرنا إلى أن علماء اللغة بعد اختلافهم غير المجدي في نشأة اللغة قرروا الإقلاع عن الخوض في هذا الموضوع، لأن كل ما قيل فيه متعارض متناقض. ولا يفضي إلى نتائج علمية مقبولة، ولا يستند إلى واقع لغوي تُستمد منه عناصر الدراسة.

فإن قيل: لقد كشفت البحوث عن لغات موعدة في القدم منها اللغتان السنسكريتية والهيروغليفية وغيرهما من اللغات التي حفظتها النقوش، قيل: إن هذه اللغات تمثل مرحلة متطورة لا مرحلة النشأة الأولى. ولو كشفت معاول التنقيب عن لغات أقدم من هذه اللغات لما عدها علم اللغات ممثلة لنشأة اللغة، لأنها «تمثل لغات قد تطورت، وتركت خلفها تاريخاً ضخماً لا نعرف عنه شيئاً». فإن كان الأمر كذلك فما طبيعة هذا المنهج؟ وما الفرق بينه وبين المنهج الوصفي والمعياري؟ وما المواضيع التي يجدي استخدامه فيها؟

إذا كان المنهج الوصفي يدرس اللغة دراسة مقيدة بقيدي المكان والزمان وقيد المستوى، فالمنهج التاريخي يفلت عن يدي اللغة هذه القيود، إذ يطلقها من إसार المكان، ويترك لها حرية التنقل ليرصد ما يجري فيها من تبدل، وما يطرأ عليها من سمات متعددة متجددة. ويمد لها عنان الزمان ليتعقب ما يصيب أصواتها ودلالاتها وأساليبها وتراكيبها. ويتفقت من قيد المستوى لأن المستوى في المنهج التاريخي ليس أرضاً مسورة تحصر فيها اللغة، وإنما هو خاتمة لمرحلة من مراحل التطور، وبداية لمرحلة أخرى. فاللغة في المنهج التاريخي مستويات متعددة لا مستوى واحد.

«إن المنهج التاريخي يدرس اللغة دراسة طويلة، بمعنى أنه يتتبع الظاهرة اللغوية في عصور مختلفة، وأماكن متعددة ليرى ما أصابها من التطور، محاولاً الوقوف على سر هذا التطور وقوانينه المختلفة»^(٣٣). ومعنى هذا أن المنهج التاريخي مؤمن بالحركة لا الثبات، وأنه يضع اللغة في موضعها من الحياة التي تتفاعل عناصرها وتؤثر في اللغة: في أصواتها ودلالاتها وصيغها وتراكيبها، فلا ينجو من التأثير نحو ولا صرف، ولا تعتصم منه عامية ولا فصيحة^(٣٤).

(٣٣) المصدر السابق ص ١٩٦.

(٣٤) قارن ما جاء هنا بالمدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد اتواب ص ١٩٦.

وحركية المنهج التاريخي المناقضة لثبات المنهج الوصفي لا تعني تناقض المنهجين في كل شيء، فكلاهما يدرس اللغة دراسة تسجيل ومراقبة، تصف الواقع الحي، أو القديم الموروث، ولا يدرسها دراسة معيارية تحتكم إلى القواعد لتحكم على الظاهرة المدروسة بالخطأ، أو تحكم لها بالصواب. وكلاهما يربط اللغة المدروسة بأمرها وأمرها أي: بالبيئة والمجتمع المتغيرين باستمرار، لا بما رسخ من قواعد صارمة الأحكام^(٣٥).

واعتماداً على أوجه الشبه هذه نقول: المنهج التاريخي منهج وصفي متعدد المراحل، متجدد المادة، لأنه يلاحق اللغة، ويستعين على دراستها بتراتها القديم ونصوصها الحية. فإن أردت أن تدرس الأصوات العربية بدأت بصفاتها ومخارجها كما حددها الخليل وأثبتها سيبويه^(٣٦)، ثم انتقلت بعد ذلك إلى ما أصابها من تغير بعد أن خالط العرب الأعاجم من العصر الأموي إلى العصر الحاضر، ثم شفعت هذه الدراسة بما يقودك إليه الاستقراء من تغير يملأ حناجر الناس، وتسجله الآلات الصوتية الدقيقة، غير آبه بالمفاضلة بين ناطق وناطق، أو بين قطر وقطر، أو بين عصر وعصر، وغير مكترث بما يعتقد المعياريون أنه خطأ أو صواب، فأنت راصد لا ناقد، ومؤرخ لا مصلح.

ومعنى هذا أن المنهج التاريخي يغير على المنهج الوصفي، فيفيد من أسلوبه، ويسخر مصطلحاته في خدمة الدراسات التطبيقية التي يستخدمها، «لأن كل المصطلحات التي استعملت تحت العنوان الوصفي قابلة من الناحية العملية للاستعمال مع الفرع التاريخي»^(٣٧). «وهنا نجد المنهجين التاريخي والوصفي يدخلان في شكل انسجامي تعاوني مثمر»^(٣٨).

ويحسن ههنا أن نشير إلى أن المنهج التاريخي لا يحصر نفسه في دراسة اللغات التي انقرضت، ولم يبق منها إلا النقوش والنصوص القديمة كالآرامية والهيروغليفية. ولا في اللغات التي انحسرت عن الحياة العامة، ولازمت المعابد والمعاهد والجامعات المعنية بدراسة اللغات القديمة كالسريانية واليونانية القديمة، ولا في الأمهات البواتي اسحبين من ميادين الحياة، وأخلينها لبنات المتحدرات منهن كاللاتينية التي أنجبت الإيطالية والفرنسية والأسبانية. وإنما

(٣٥) المصدر السابق ص ١٩٧.

(٣٦) أشرنا قبل إلى ما قام به في هذا الميدان د. عبد الرحمن أحاح صالح. وإلى محاضراته في جامعة دمشق سنة ١٩٧٤ م.

(٣٧) المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص ١٩٨.

(٣٨) المصدر السابق ص ١٩٨.

ثالثاً — المنهج التاريخي

لا يذهبن بك الظن إلى أن المنهج التاريخي في دراسة اللغة هو ذلك المنهج المعني بدراسة النشأة الأولى للغة الإنسانية، ثم بتعقب تطورها البطيء طوال ألاف السنين، ليقف الباحث على ما أنجزه هذا التطور في كل عصر من عصور التاريخ. فقد سبق أن أشرنا إلى أن علماء اللغة بعد اختلافهم غير المجدي في نشأة اللغة قرروا الإقلاع عن الخوض في هذا الموضوع، لأن كل ما قيل فيه متعارض متناقض، ولا يفضي إلى نتائج علمية مقبولة، ولا يستند إلى واقع لغوي تُستمد منه عناصر الدراسة.

فإن قيل: لقد كشفت البحوث عن لغات موعلة في القدم منها اللغتان السنسكريتية والهيروغليفية وغيرهما من اللغات التي حفظتها النقوش، قيل: إن هذه اللغات تمثل مرحلة متطورة لا مرحلة النشأة الأولى. ولو كشفت معاول التنقيب عن لغات أقدم من هذه اللغات لما عدها علم اللغات ممثلة لنشأة اللغة، لأنها «تمثل لغات قد تطورت، وتركت خلفها تاريخاً ضخماً لا نعرف عنه شيئاً». فإن كان الأمر كذلك فما طبيعة هذا المنهج؟ وما الفرق بينه وبين المنهجين الوصفي والمعياري؟ وما المواضيع التي يجدي استخدامه فيها؟

إذا كان المنهج الوصفي يدرس اللغة دراسة مقيدة بقيدي المكان والزمان وقيد المستوى، فالمنهج التاريخي يفلت عن يدي اللغة هذه القيود، إذ يطلقها من إसार المكان، ويترك لها حرية التنقل ليرصد ما يجري فيها من تبدل، وما يطرأ عليها من سمات متعددة متجددة. ويمد لها عنان الزمان ليتعقب ما يصيب أصواتها ودلالاتها وأساليبها وتراكيبها. ويتفقت من قيد المستوى لأن المستوى في المنهج التاريخي ليس أرضاً مسورة تحصر فيها اللغة، وإنما هو خاتمة لمرحلة من مراحل التطور، وبداية لمرحلة أخرى. فاللغة في المنهج التاريخي مستويات متعددة لا مستوى واحد.

«إن المنهج التاريخي يدرس اللغة دراسة طويلة، بمعنى أنه يتتبع الظاهرة اللغوية في عصور مختلفة، وأماكن متعددة ليرى ما أصابها من التطور، محاولاً الوقوف على سرّ هذا التطور وقوانينه المختلفة»^(٣٣). ومعنى هذا أن المنهج التاريخي مؤمن بالحركة لا الثبات، وأنه يضع اللغة في موضعها من الحياة التي تتفاعل عناصرها وتؤثر في اللغة: في أصواتها ودلالاتها وصيغها وتراكيبها، فلا ينجو من التأثير نحو ولا صرف، ولا تعتصم منه عامية ولا فصيحة^(٣٤).

(٣٣) المصدر السابق ص ١٩٦.

(٣٤) قارن ما جاء هنا من مدخل إلى علم اللغة، د. مصد عند اتواب ص ١٩٦.

وحركية المنهج التاريخي المناقضة لثبات المنهج الوصفي لا تعني تناقض المنهجين في كل شيء، فكلاهما يدرس اللغة دراسة تسجيل ومراقبة، تصف الواقع الحي، أو القديم الموروث، ولا يدرسها دراسة معيارية تحتكم إلى القواعد لتحكم على الظاهرة المدروسة بالخطأ، أو تحكم لها بالصواب. وكلاهما يربط اللغة المدروسة بأمرها وأبيها أي: بالبيئة والمجتمع المتغيرين باستمرار، لا بما رسخ من قواعد صارمة الأحكام^(٣٥).

واعتماداً على أوجه الشبه هذه نقول: المنهج التاريخي منهج وصفي متعدد المراحل، متجدد المادة، لأنه يلاحق اللغة، ويستعين على دراستها بتراتها القديم ونصوصها الحية. فإن أردت أن تدرس الأصوات العربية بدأت بصفاتها ومخارجها كما حددها الخليل وأثبتها سيبويه^(٣٦)، ثم انتقلت بعد ذلك إلى ما أصابها من تغير بعد أن خالط العرب الأعاجم من العصر الأموي إلى العصر الحاضر، ثم شغعت هذه الدراسة بما يقودك إليه الاستقراء من تغير ميملاً حناجر الناس، وتسجله الآلات الصوتية الدقيقة، غير آبه بالمفاضلة بين ناطق وناطق، أو بين قطر وقطر، أو بين عصر وعصر، وغير مكترث بما يعتقد المعياريون أنه خطأ أو صواب، فأنت راصد لا ناقد، ومؤرخ لا مصلح.

ومعنى هذا أن المنهج التاريخي يغير على المنهج الوصفي، فيفيد من أسلوبه، ويسخر مصطلحاته في خدمة الدراسات التطبيقية التي يستخدمها، «لأن كل المصطلحات التي استعملت تحت العنوان الوصفي قابلة من الناحية العملية للاستعمال مع الفرع التاريخي»^(٣٧). «وهنا نجد المنهجين التاريخي والوصفي يدخلان في شكل انسجامي تعاوني مثمر»^(٣٨).

ويحسن ههنا أن نشير إلى أن المنهج التاريخي لا يحصر نفسه في دراسة اللغات التي انقرضت، ولم يبق منها إلا النقوش والنصوص القديمة كالآرامية والهيروغليفية. ولا في اللغات التي انحسرت عن الحياة العامة، ولازمت المعابد والمعاهد والجامعات المعنية بدراسة اللغات القديمة كالسريانية واليونانية القديمة. ولا في الأمهات اللواتي انسحب من ميادين الحياة، وأخلينها للنباتات المتحدرات منهن كاللاتينية التي أنجبت الإيطالية والفرنسية والأسبانية. وإنما

(٣٥) المصدر السابق ص ١٩٧.

(٣٦) أشرنا قبل إلى ما قام به في هذا الميدان د. عبد الرحمن الخاح صاح. وإلى محاضراته في جامعة دمشق سنة ١٩٧٤ م.

(٣٧) المدخل إلى علم اللغة، د. مصال عند سواب ص ١٩٨.

(٣٨) المصدر السابق ص ١٩٨.

يمتد نشاطه إلى دراسة اللغات الحية ليربطها بأصولها، ويكشف عما أصابها من تطور في الأصوات والصيغ والدلالات^(٣٩) ... الخ .

وإذا قيّض الله لهذا المنهج من يحملون تبعاته، ويفيدون من سماته، فقد يصنعون للغات التي يدرسونها معجمات تاريخية تنافس الأطالس اللغوية وتبزهها، إذ تدرس تطور الألفاظ، وتكشف عن تغير نطقها ومعانيها لتأثرها بالعوامل الاجتماعية والجغرافية والسياسية والدينية على النحو الذي أشار إليه أحمد بن فارس في حديثه عن تأثير الإسلام في كثير من الألفاظ العربية القديمة، فقال: « فلما جاء الله جلّ ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ... وثقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع آخر »^(٤٠) .

ويستطيع علم صيغ الألفاظ (المورفولوجيا) بالتعاون مع علم الدلالة أن يؤرخ ظهور صيغ واختفاء أخرى، وانتقال بعض الصيغ من زمرة دلالية إلى أخرى تلبية لحاجة العصر المتطور . ومن ذلك على سبيل المثال نقل فعالة من المبالغة التي كانت تلازمها (مدّاحة نواحة) إلى معنى الآلة الطارئة عليها في العصر الحديث (سيارة طائرة) .

ويستطيع علم الأصوات (الفونولوجيا) أن يدرس الأصوات دراسة تاريخية، تتعقب تطورها في أفقين: أفق الأصوات المفردة وما يعرض لها من تغير في المخارج وترقيق وتفخيم وإبدال . وأفق التنظيم الصوتي وما يعرض لبعض الأصوات من تغير بسبب المجاورة . فمن الأفق الأول تأريخ صوت الجيم وما عراه من تغير في مصر والخليج . وتأريخ صوت الضاد التي تزحف نحو الظاء، وتأريخ الذال والثاء اللتين أخذتا تفارقان اللثة وتلحقان أحرف الصفيح . ومن الأفق الثاني صوت السين الذي تحول إلى صوت الصاد في السنة المصرية إذا تلتها الحاء (ساخن = صاخن)^(٤١) . ومن واجب المنهج التاريخي أن يحدد هذه الانحرافات تحديداً زمنياً ومكانياً، وأن « يبحث كذلك عن أسبابها، ويعمل على كشف العوامل التي أدت إليها »^(٤٢) .

رابعاً — المنهج المقارن

إن الأساس الذي يقوم عليه المنهج المقارن Comparative Method هو « الموازنة بين

(٣٩) انظر منهج البحث اللغوي بين اثراث وعلم اللغة الحديث، د. عبيد رويس ص ٣٦ وما بعدها .

(٤٠) الصاحبي لأحمد بن فارس ص ٧٨ تح السيد صقر .

(٤١) انصر علم اللغة، د. علي عبد الواحد وإي ص ٣١٠ .

(٤٢) المصدر السابق ص ٤٨ .

الظواهر اللغوية في طائفة من اللغات لاستنباط خواصها المشتركة ، وللوقوف على وجوه الاتفاق والخلاف في عواملها ونتائجها ، وللوصول من وراء هذا كله إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها في مختلف مظاهرها» (٤٣) .

من هذا التعريف الشامل للمنهج المقارن تستطيع أن تستنبط أموراً هامة تضبط المنهج ، وتجنب من ينتهجه المزالق المفضية إلى الخروج عن حدوده ، أو الخطأ في فهمه وتطبيقه .

أولها أن الموازنة لا تعقد بين لغتين تنتميان إلى أسرتين مختلفتين كالعربية السامية ، والإيطالية اللاتينية . وإنما تعقد بين لغتين تجمعهما وحدة الأرومة كالإيطالية والفرنسية اللاتينيتين ، والعربية والعبرية الساميتين .

ثانيهما أن الموازنة لا تعقد بين الظواهر اللغوية التي تطورت حتى أبلغها التطور مرحلة من الاختلاف بلغت حدّ التدابر والتنافر ، بل تعقد بين الظواهر أو الصيغ القديمة الأولى التي يغلب على ظن الباحث أنها من الموروث المشترك المتحدر من اللغة الأم التي أنجبت اللغتين . ثالثها أن الغرض من الموازنة استنباط الخواص المشتركة ، وهذه الخواص أعمق من استعارة المفردات . فالعربية — على سبيل المثال — أعارت الأردية والفارسية والتركية سيلاً من المفردات ، تشكل ثلاثة أرباع الأردية ، ونصف التركية ، وكثيراً من كلام الفرس . ولكنها لم تعر هذه اللغات أصواتها وصيغها وأساليبها في بناء التراكيب ، ولهذا لا جدوى من مقارنة العربية بهذه اللغات غير السامية (٤٤) .

ورابعها أن الغرض من المقارنة الوصول إلى أوجه الشبه وأوجه الخلاف بين اللغتين ، وتحديد العوامل الاجتماعية والسياسية والدينية والجغرافية التي عملت عملها البطيء حتى تمّ انقيار اللغتين . وههنا يبرز المنهج التاريخي ليبدلي برأيه في هذه المقارنة لقدرته على الغوص في أغوار اللغتين وكشف جذورهما .

وخامسها أن الارتقاء بالنتائج التي تتمخض عنها الدراسة المقارنة بين لغتين متحدرتين من أسرة واحدة إلى الأفق الإنساني يشق الطريق أمام علم اللغة العام . إن مقارنة هذه النتائج بما تتوصل إليه دراسة مقارنة أخرى بين لغتين أخريين من أسرة لغوية أخرى تمهد السبيل لمعرفة النواميس اللغوية الإنسانية العامة التي تنظم جميع اللغات ، وتحدد سيرها وتطورها (٤٥) .

(٤٣) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وفي ص ٤٩ — ٥٠ .

(٤٤) المصدر السابق ص ٥٠ .

(٤٥) انصر المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص ١٩٩ وما بعدها . واللغات السامية لبودكه ترجمة د . رمضان عبد التواب ص ١١ القاهرة ١٩٦٣ م .

ومن ينتقل من الجانب النظري إلى الجانب التطبيقي في المنهج المقارن يقف على فوائد جمّة، جناها علم اللغة من التهدي بهدي هذا المنهج. فبعد أن قارن العلماء الأوروبيون بين عدة لغات متحدرة من الأسرة الهندية الأوروبية تبين لهم أن هذه اللغات تشترك في ثلاثة أشياء، وهي: التراكيب الأساسية، والمفردات البدائية، والفونيمات (الأصوات) التي تشكل نوعاً من التقابل الصوتي^(٤٦).

وربما كانت المقارنة بين لغتين متحدرتين من أصل ساميّ أدلّ على جدوى المنهج المقارن لقرب الأسرة السامية من أفهامنا. وإذا كان قدماء العلماء قد زهدوا — على إدراكهم هذه الحقيقة — في عقد المقارنة بين العربية وأخواتها الساميات فإنهم لم يغفلوا الإشارة إلى أوجه الشبه بين هذه اللغات.

قال الخليل بن أحمد [ت: ١٧٥هـ]: «وكنعان بن سام بن نوح ينسب إليه الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية»^(٤٧).

ووضح ابن حزم الأندلسي [ت: ٤٥٦هـ] صفة العربية بالعبرية والسريانية توضيحاً عمياً، يدل على إلمامه باللغات السامية، وعلى إدراكه اتفاقها في الأصول واختلافها في الفروع، ويسمّ على فهمه عوامل التطور المؤثرة في توحد اللغات وتفرقها، فقال: «من تدبّر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان، ومجاورة الأمم، وأنها لغة واحدة في الأصل»^(٤٨).

فدما أدرك المستشرقون الغربيون عامة والألمان خاصة هذه الحقيقة أولّوا المقارنة بين الساميات ما لم يولها أبنائها، وراحوا يدرسون أصواتها وألفاظها ونحوها وصرفها دراسة علمية دقيقة. وأبرز هؤلاء المستشرقين إيفالد Ewald وألسهوزن Olshausen ونولدكه Noldeke وبروكلمان Brockelmann^(٤٩). ثم حذا حذوهم الباحثون العرب، فكشفت بحوثهم عن حقائق هامة، وعن مجموعة من أوجه الشبه بين الساميات، يمكن إيجازها بما يلي:

١ — اللغات السامية قليلة الاحتفال بحروف المد (ا، و، ي)، ولهذا أضافت الحركات إلى الرسم.

٢ — أغلب ألفاظها مشتقة من جذور ثلاثية، ومعظم أسمائها متحدرة من الأفعال خلافاً

(٤٦) انظر أسس علم اللغة ماريوني ص ١٧٠.

(٤٧) العبر لـ خليل بن أحمد ١، ٢٣٢ تح عبد الله درويش عدد ١٩٦٧.

(٤٨) إلهكام في أصول الأحكام لابن حزم ١، ٣٠ مطبعة الإمام.

(٤٩) انظر المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص ٢٠٢ وما بعدها.

- لرأي البصريين ، أي : أصل المشتقات في الساميات الفعل ، وبذلك يقول الكوفيون .
- ٣ — الساميات متشابهة في الضمائر ، وفي أسلوب اتصال الضمائر بالأفعال والأسماء والحروف . فضمائر الرفع العربية : أنا ، أنت ، أنت ، هو ، هي ، نحن ، أنتم ، أنتن ، هم ، هن . تقابلها في العبرية : أَنِي ، أَتَا ، أَتْ ، هُوَ ، هِي ، نَحْنُو ، أَتُمْ ، أَتْنُ ، هِمُ ، هِنُ .
- ٤ — الساميات متشابهة في ألفاظ العدد ، فالأعداد العربية : واحد ، اثنان ، ثلاثة يقابلها في العبرية : إِحَادُ ، شِينَايِمُ ، شِلُوشَا ، أَرْبَعَا ، حَمِشَا ، شِشَا ، شِثْعَا ، شِمْوْنَا ، تَشْعَا ، عَسْرَا .
- ٥ — صياغة الأسماء المشتقة كاسم الفاعل واسم المفعول واسمي الزمان والمكان متشابهة .
- ٦ — كلتا اللغتين تتضمن حروف الإطباق والحق التي تفتقر إلى معظمها معظم اللغات غير السامية (ص ، ط ، ظ ، ح ، ع ، غ) وتتميز العربية بحرف الضاد^(٥٠) .

(٥٠) عن كتاب دروس في اللغة العبرية ، د . ربحي كمال ص ١٩ — ٢٠ .

الباب الرابع

الدراسات الصوتية

الدراسات الصوتية القديمة

تعريف وتقسيم

الصوت في علم الفيزياء « ظاهرة طبيعية تنشأ عن اهتزاز الأجسام ، وندركه عن طريق حاسة السمع »^(١) . ويتخذ الاهتزاز شكل أمواج متتابعة ، تتحول إلى ما يسميه علم وظائف الأعضاء الموجات السمعية Sonic Waves . وللموجات المسموعة تردد معين « تنقل الأذن تأثيرها إلى المخ الذي يترجمها إلى الأصوات والنغمات المسموعة »^(٢) .

أما الصوت اللغوي فهو « أثر سمعي تنتجه أعضاء النطق الإنساني إرادياً في صورة ذبذبات ، نتيجة لأوضاع وحركات معينة لهذه الأعضاء »^(٣) . وإذا كان علم الفيزياء يدرس الأصوات عامة فإن علم الصوت اللغوي « يدرس الصوت الإنساني من حيث النطق به ، وكيفية صدوره ، ومخرجه ، وصفته ، وانتقاله في موجات صوتية عن الهواء ، واستقباله في أذن السامع من حيث موقع الصوت في الكلمة ، ومجاورته لغيره ، وتأثره به ، وتأثيره فيه »^(٤) .

وينشعب علم الصوت اللغوي إلى شعبتين : علم الأصوات العام General Phonetics ويدرس نطق الصوت ، والأعضاء الناطقة ، وانتقال الصوت من الفم إلى الأذن ، ومن الأذن إلى المخ ، وما يعقب الانتقال من إدراك . وعلم الأصوات الخاص Phonology (فونولوجيا) . ويعنى بتصنيف أصوات اللغة ،

(١) علم اللغة النفسي ، د . عبد المجيد سيد أحمد منصور ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧ .

(٣) علم اللغة وفقه اللغة ، د . عبد العزيز مصر ص ٣١ .

(٤) المصدر السابق ص ٣١ .

واختلافها وفق الاختلاف في اللهجات ، وبالمقاطع الصوتية التي تتألف منها كل كلمة ، وبموقع كل صوت فيها ، كما يعنى بدراسة النبر ، أي الضغط على مقطع من مقاطع الكلمة لإبرازه ، وبتنغيم الكلام ، أي : بتنوع الصوت وفق أساليب القول من أمر ونهي وتعجب واستفهام^(٥) .

ومع أن علم الأصوات الخاص (الفونولوجيا) يوصف بأنه «علم حديث النشأة» فإن دراسة الهنود واليونان للأصوات اللغوية بصورة عامة ، ودراسة العرب لها بصورة خاصة مهدتا السبيل أمام هذا العلم قبل أن يتخذ صورته العلمية في العصر الحديث . فما الجوانب التي تناولتها الدراسات القديمة ؟ وما طبيعتها ؟

أولاً — الدراسة الصوتية عند الهنود واليونان والرومان

إنصافاً للشعوب القديمة ، وإقراراً بالفضل لذويه ينبغي أن نعزو إلى الشعوب الكنعانية — وعلى رأسهم الفينيقيون — الخطوة الأولى التي شقت الطريق أمام الدراسات الصوتية القديمة . إنهم باختراعهم الأبجدية وضعوا أيدي الناس على مفتاح الدراسات الصوتية ، إذ أوحوا إليهم أن اللغة مؤلفة من عناصر صغيرة ، هي الأصوات التي يُصَبُّ كل صوت منها في حرف ، له شكل مرسوم مرقوم . وشكله هذا ينقله من اللسان إلى العين ، وبقراءة الشكل مقرونة بالصوت المنطوق ، ينتقل من العين إلى الأذن تمهيداً لدراسته^(٦) .

ومن الإنصاف كذلك أن نذكر أن فضل الأبجدية على اليونان مقطوع فيه ، وأن في فضلها على الهنود بعض الشك . فاليونان اقتبسوا الأبجدية الفينيقية ، والهنود ظلوا محافظين على الكتابة المقطعية ، لكنهم لم يعدلوا دافعاً آخر قوياً ، يحملهم على الاهتمام بأصوات اللغة . واللغة — كما يرى جون ليونز J. Lyons — لم تكن مكتوبة في العهود القديمة . أو قل : إنها كانت أصواتاً منطوقة مسموعة قبل أن تصبح مقاطع مرسومة أو حروفاً مرقومة . فلما رُقمت الحروف تمايزت الأصوات ، فغدا كل صوت منها ملء السمع والبصر^(٧) .

(٥) الوحيز في فقه اللغة . محمد الأبطاكي ص ١٥٠ — ١٥١ والمصدر السابق ص ٣٢ — ٤٠ .

(٦) انصر تاريخ علم اللغة ، جورج موناك ص ٧٨ ترجمة بدر الدين القاسم حلب ١٩٨١ م .

(٧) انظر نظرية تشومسكي اللغوية ، جون ليونز ص ٤١ — ٤٢ ترجمة د . حمي خليل الإسكندرية ١٩٨٥ م .

ولعل الدافع الذي حمل الهنود على أن يدرسوا لغتهم دراسة صوتية هو قداسة السنسكريتية التي انسحبت من ميادين الحياة، واعتكفت في المعابد، يرددها الكهنة في المحارب، وتُرتل بها الصلوات. وانسحابها أدى إلى عزلتها، وعزلتها أدت إلى غربتها وثقلها على ألسن الناس. ولذلك خشي عليها الكهنة من اللحن، فدرسوا أصواتها دراسة تعد مبتكرة إذا قيست بما وصلت إليه دراسة اللغة المكتوبة كتابة مقطعية في ذلك العصر.

وبرع في هذا الميدان عالم هندي يدعى بانيني Panini وهو، كما يقدر بوتلينغ Böhtlingk مترجم كتابه، من رجال القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد. وأهم ما في كتابه العناية بصفات الأصوات وتحديد مخارجها، والحديث عن الأعضاء التي تنطقها. وهذه الدراسة الوصفية تمخّضت عن الإشارة إلى ارتباط الأصوات بالمعاني^(٨).

ويظهر أن الإغريق الذين بزّوا غيرهم في ميادين الدراسات الإنسانية كالفلسفة والأدب والفن لم يبلغوا مرتبة الهنود في تحليل الأصوات. إنهم طوروا الأبجدية الفينيقية، ورسوموا ما فات الساميين رسمه، فسجلوا الأحرف الصائتة (ا، و، ي) التي أسقطتها الأبجدية الفينيقية من الرسم، وأثبتتها الألسنة في النطق، وصنفوا الأصوات بتقسيمها إلى مجموعتين: مجموعة الأصوات الصائتة، وهي: الضمة، والفتحة، والكسرة، والواو، والألف، والياء وأمثالها مما ليس له في العربية نظير. والمجموعة الثانية مجموعة الأصوات الصامتة، وهي القدر الأكبر من أصوات الأبجدية (ب، ج، د، ...)^(٩).

وللأصوات عند اليونان تصنيف آخر يقرب من التقسيم الحديث المستند إلى التمييز بين الأصوات المجهورة والأصوات المهموسة. «فالأصوات التي يصدق عليها أنها مهموسة مقابلة في تصنيفهم للأصوات الانفجارية النَّفسية، بدلاً من أن تكون مقابلة لما يصدق عليها أنها مجهورة، واعتبروا الأصوات التي نسميها مجهورة متوسطة بين المهموسة والانفجارية»^(١٠). وأهم ما يميز آراء اليونان الصوتية «أنها تقوم في جملتها على ملاحظات الآثار السمعية التي تتركها الأصوات في الأذن»^(١١). ولا تقوم على الدراسة أو الملاحظة المباشرة لأعضاء النطق، وتوزع الأصوات على المخارج. ولذلك فقدت كثيراً من الدقة. ومن المعروف في تاريخ الحضارة أن الرومان قلدوا اليونان في جوانب ثقافية كثيرة، ومن

(٨) انظر تاريخ علم اللغة، جورج مونان ص ٦٤ وما بعدها.

(٩) انظر مبادئ السانيات، د. أحمد محمد قدور ص ٣٦ وما بعدها.

(١٠) علم اللغة، د. محمود السعراي ص ٨٩.

(١١) المصدر السابق ص ٨٨.

هذه الجوانب دراسة الأصوات على النهج الذي انتهجه اليونان . ومن ينقر عن آراء الرومان الصوتية التي ردّدها نخاتهم ، ومنهم بريسكيان Priscian وترنتيانوس Terentianus يسمع فيها أصداء اليونان مطبقة على اللغة اللاتينية^(١٢) .

ويحسن بنا ههنا أن نشير في خاتمة الحديث عن اليونان والرومان إلى أنهم كانوا مقصرين في درس الأصوات وتحليلها ، وأن تقصيرهم امتد إلى ورثة الحضارتين اليونانية والرومانية ، ولهذا لم يؤثر عن علماء اللغة الأوربيين في العصور الوسطى علم لغوي له شأن ، يمكن قياسه بالدراسات الصوتية الراقية التي قدمها العرب .

ثانياً — الدراسة الصوتية عند العرب

١ — صلتها بقراءة القرآن :

إذا كانت علوم العربية عامةً أفناناً في دوحة القرآن الكريم ، فعلم الأصوات خاصة ألصق هذه الأفنان بالقرآن ، وأحرصها على سلامته من الانحراف . وإذا كان كتاب الهمز لعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي^(١٣) [ت : ١١٧ هـ] أول المؤلفات الموصولة بالنسب بعلم القراءات ، فمن المرجح أن الخليل بن أحمد [ت : ١٧٥ هـ] رتب معجمه (العين) وفق المخارج الصوتية متأثراً بالقراءات ، معرضاً عن الترتيب الأبجدي الذي كان متبعاً في اللغات السامية . وعن الخليل قبس سيبويه [ت : ١٨٠ هـ] علم الأصوات ، فأفرد للإبدال والإدغام بابين كبيرين في الجزء الثاني من كتابه .

٢ — أعضاء النطق :

ليس من طبيعة هذا الكتاب الذي بين يديك — وهو ينتمي إلى علم اللغة العام لا إلى فقه اللغة العربية — أن يفصل القول في تاريخ الدراسة الصوتية العربية . ولهذا احتزاً من هذا العلم بعلمين هما ابن جني وابن سينا وبأهمّ المباحث في ميدان الأصوات .

أما أبو الفتح عثمان بن جني [ت : ٣٩٢ هـ] فقد أفرد للأصوات أبواباً واسعة من كتابه الخصائص وخصها بكتابين نفيسين : أولهما (سر صناعة الإعراب) وثانيهما (المصنف) ، وقف الأول على درس الأصوات (الحروف) العربية ، وتناول في الثاني علم الصرف عامة بما يشتمل عليه من دراسات صوتية ، وفي هذا الكتاب استخدم ابن جني مصطلح الأصوات لأول مرة .

(١٢) المصدر السابق ص ٨٨

(١٣) مراتب الحويين لأبي الطيب السعوي ص ١٢ .

وأطرف ما في سر الصناعة وسائل الإيضاح التي قرب بها ابن جني جهاز النطق البشري وطريقة النطق بالحروف إلى عقل القارئ، إذ شبه الفم والحلق والحنجرة والقصبة الهوائية جميعاً بمزمار الزامر وأوتار الضارب، فقال: «إذا وضع الزامر أنامده على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامده اختلفت الأصوات. وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق»^(١٤). وقال بعد أن شبه جهاز النطق بأوتار العود: «الوتر في هذا التمثيل كالحلق، والخفقة عليه بالمضرب كأول الصوت من أقصى الحلق، وجريان الصوت فيه غفلاً غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا»^(١٥).

وأما الطبيب الفيلسوف أبو علي الحسن بن سينا [ت: ٤٢٩ هـ] فقد ألف رسالة صغيرة، لكنها فريدة في موضوعها، سماها (أسباب حدوث الحروف)، وذكر فيها سبب حدوث الأصوات بصورة عامة، ثم سبب حدوث الحروف الإنسانية بصورة خاصة، وأجرى في الحنجرة واللسان مباضع التشريح، ووصف مخارج الحروف العربية ووصف الطبيب الخبير بآلة النطق، ثم وصف ما يشبه هذه الحروف من الأصوات الأعجمية. والسمة الغالبة على هذه الرسالة الطب لا اللغة. إنها كلام طبيب استقل بعلمه ومصطلحاته عن اللغويين^(١٦).

٣ - مخارج الأصوات :

لا يفهم من مما سبق أن العرب قصرُوا دراستهم الصوتية على وصف الأعضاء الناطقة هذا الوصف الفني الذي برع فيه ابن جني، أو ذاك الوصف الطبي الذي أتقنه ابن سينا، بل شفعوا الوصف بتحديد مخارج الأصوات من الجوف والحلق إلى الشفتين والخيشوم فبلغت المخارج أربعة عشر أو ستة عشر مخرجاً. ثم وزعوا الأصوات على المخارج زمراً، فبلغت عدتها إحدى عشرة زمرة، هي :

١ - الأصوات الجوفية الثلاثة : الألف والواو والياء الممدودات . ومعنى الجوف ههنا فراغ الحلق والفم .

٢ - الأصوات الحلقية ستة ، وهي : الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء .

٣ - الصوتان اللهويان ، وهما : القاف والكاف .

(١٤) سر صناعة الإعراب ٩، ١ تحقيق اسقا ورملائه القاهرة ١٩٥٤ م .

(١٥) المصدر السابق ٩/١

(١٦) أنصر أسباب حدوث الحروف لابن سينا . القاهرة ١٣٥٢ هـ .

- ٤ — الأصوات الشجرية، وهي ثلاثة: الجيم والشين والياء غير الممدودة، وشَجَرُ الفم ما بين وسط اللسان وما يقابله من الحنك الأعلى.
- ٥ — الأصوات الذلقية ثلاثة: اللام، والنون المظهرة، والراء. وذلق اللسان طرفه.
- ٦ — الأصوات النطعية ثلاثة: الطاء، والذال، والتاء. والنطع سقف غار الحنك الأعلى.
- ٧ — الأصوات الأسلية أو أصوات الصفير ثلاثة: الصاد، والسين، والزاي، والأسلة رأس اللسان.
- ٨ — الأصوات اللثوية ثلاثة: الظاء، والذال، والتاء. واللثة مغارس الأسنان، أو ما حولها من اللحم، والمراد ههنا اللثة العليا.
- ٩ — الأصوات الشفهية ثلاثة: الباء، والميم، والواو غير الممدودة.
- ١٠ — الأصوات التنفوية الأسنانية: العربية لا تعرف منها غير صوت واحد، وهو الفاء.
- ١١ — أما صوت الضاد فصوت فريد خاص بالعربية ومخرجه حافة اللسان^(١٧).
- وإذا كان لك أن تخلص من استعراض المخارج بسمتين تسم بهما أصوات اللغة العربية تميزها من سواها فقل: إن سمتها الأولى سعة المدرج الصوتي، وإن سمتها الثانية توزعها العادل على أجزاء هذا المدرج من أقصى الحلق إلى الشفتين. فهي لذلك لا تتراكم، ولا تتداخل، ولا يحسّ الناطق بها شيئاً من التعشك^(١٨). وهذا الجانب وحده يدل دلالة واضحة على مبغ التقدم الذي أحرزه علم الأصوات عند العرب.
- وسنفصل بعد ما أجمالنا ههنا في الحديث عن مخارج الأصوات العربية مقرونة بما يعادلها أو يقاربها من الأصوات الإنكليزية لنقف على ما أنجزه العرب في هذا المضمار.

٤ — صفات الأصوات :

- سار علماؤنا القدماء في مضمار الدراسة الصوتية شوطاً آخر. حينما شفعوا مخارج الأصوات بصفات تسم كل زمرة، وكل صوت من زمرة بسمات أوفت على الغاية في الدقة والوضوح. وهذه الصفات :
- آ — الهمس : هو جريان النفس عند النطق بالحرف لضعف الاعتماد على المخرج، وأصواته عشرة يجمعها قولهم : فتحته شخص سكت. وتميزها الدراسات الحديثة بأن نطقها لا يهز وتري الحنجرة.
- ب — الجهر : هو انجباس النفس عند النطق بالحرف لقوة الاعتماد على المخرج، وأصواته

(١٧) انحارج مقتبسة من فقه اللغة، د. صبحي الصاح دار العم للملايين بيروت ١٩٦٠ م.

(١٨) انظر فقه اللغة وحصائص العربية، محمد المبارك ص ٤٧.

تسعة عشر صوتاً، تتحصل لك بطرح المهموسة من الأبجدية العربية، وعلامتها عند المحدثين اهتزاز وترى الحنجرة بنطقها.

ج — الشدة: هي الانقباس القوي للنفس عند نطق الصوت ليبلغ الاعتماد على المخرج أقصاه. والحروف الشديدة هي (أ، ب، ت، ج، د، ط، ق، ك).

د — الرخاوة: هي جريان النفس عند النطق بالصوت لضعف الاعتماد على المخرج. والحروف الرخوة هي (ث، ح، خ، ذ، ز، س، ش، ص، ض، ظ، ع، ف، هـ، و، ي، ا).

هـ — التوسط في الشدة: معنى التوسط في الشدة أن ينفت الحرف من مكمنه قبل أن تتمكن أعضاء النطق من حبسه حبساً تاماً. ومجموع الأحرف المتوسطة الشدة خمسة، هي (ر، ع، ل، م، ن).

و — الاستعلاء: هو ارتفاع اللسان إلى الطبق (وسط الحلق) عند إخراج الصوت. والأصوات المستعلية سبعة هي (خ، ص، ض، ط، ظ، غ، ق).

ز — التسفل: هو انخفاض اللسان إلى قاع الفم عند إخراج الصوت. وحروفه اثنان وعشرون وهي (أ، ب، ت، ث، ج، ح، د، ذ، ر، ز، س، ش، ع، ف، ك، ل، م، ن، هـ، و، ي، ا).

ح — الإطباق: هو أن ينطبق اللسان على ما يقابله من الحلق عند النطق بالصوت، وأصواته أربعة، هي (ص، ض، ط، ظ).

ط — الانفتاح: هو انفتاح اللسان وانفصاله عن الحلق لإخراج الهواء عند النطق بالصوت، وأصواته كل الأصوات العربية ما عدا أصوات الإطباق.

ي — الإذلاق: هو خروج الصوت من ذلق (طرف) اللسان، أو من ذلق الشفة. فالذقية اللسانية ثلاثة هي (ر، ل، ن) والذقية الشفهية ثلاثة أيضاً، هي (ب، ف، م).

ك — الصفير: هو خروج الصوت من بين الثنايا العليا وطرف اللسان وأصواته ثلاثة هي: (ز، س، ص). وصفير هذه الأحرف يشتد إذا سكنت.

ل — القلقلّة: هي اضطراب الصوت واهتزازه، وقوة الضغط في النطق به يُسمع له نبر وحركة سريعة. وأصواته خمسة هي (ق، ط، ب، ج، د) ويجمعها قولهم: قطب جد.

م — اللين: هو إجراء الصوت بلا عنت ولا كلفة هيئاً مرسلأً، وصوتاه الواو والياء الساكنتان.

ن — الانحراف: هو ميل الحرف عن مخرجه إلى طرف اللسان وصوتاه اللام والراء.

س — التكرار: هو ارتعاد طرف اللسان عند النطق بالصوت، وصوته الوحيد هو الراء.

ع — التفشي : هو انتشار الصوت وشيوعه في الفم عند نطقه لرخاوته . وصوته الوحيد هو الشين .
ف — الاستطالة : هي امتداد الصوت في مخرجه من أول حافة اللسان إلى آخرها . وصوته
الوحيد الضاد^(١٩) .

فصفات الحروف سبع عشرة صفة . ويضيف بعض الباحثين صفة أخرى ، وهي
الإصمات ، والإصمات نقيض الإذلاق ، ومعناه في الأصل المنع . وحروفه أصوات العربية
ما عدا أصوات الذلاقة الستة . وسميت مصممة لامتناع وقوعها أصولاً في الكلمات الرباعية
والخماسية ما لم يكن في كل كلمة حرف أو أكثر من أصوات الذلاقة^(٢٠) . وما نرى أن لهذه
الصفة موضعاً ههنا ، وهي بالصرف أشبه .

٥ — أصوات العربية بين الثبات والتبدل اللهجي :

ليست الصفات السبع عشرة التي ذكرناها نعوتاً تاريخية نُعتت بها أصوات اللغة
العربية ، ثم انطوت مع شيوع اللهجات العامية ، ومحاصرتها الفصحى في الكتب والمعاهد .
وإنما هي سمات حية يتلى بها القرآن الكريم صباح مساءً . وهذه التلاوة المضبوطة بالسماع
والمشاهدة والمشاركة أضافت إلى الأصوات العربية صفة تكاد تنفرد بها بين اللغات العريقة ،
وهي ثبات مخارجها .

أما ما أصاب بعضها من تبدل لهجي فيما نقول ونسمع من أحاديثنا اليومية فله شأن
آخر ، تبرأ منه الفصحى ، وتفسره القوانين اللغوية الصوتية العامة . وهو ليس وقفاً على لهجاتنا
العامية ، بل تحسّ في أصوات اللغات الأخرى . ولضبطه وُضعت له قواعد عامة ، تكاد تكون
صحيحة الأحكام . ومن المعروف في دراسة الأصوات العربية أن علماءنا القدماء أدركوا هذا
التبدل ، ونهوا عليه ، وحذروا منه في قراءة القرآن ، ونصحوا للقراء بأن يلتزموا لهجة قريش .

وأهم الظواهر اللهجية التي كانت متداولة ، تم طواها الزمان : عننة تميم وأسد .
وفحفة هذيل ، وكشكشة ربيعة ومضر وقيم ، وكسكستها ، وشنشنة اليمن ، ووتمها ،
وطمطمانيه حمير ، وعجعة قضاة ، واستنطاء هذيل والأزد ، وإبدال الجيم ياء عند عرب

(١٩) لخص صفات الأصوات من كتب التوحيد ورسالة (من تجويد العربية) ، د . مارن المارث ص ٨ وما بعدها .
ودراسات في فقه اللغة . د . صبحي الصاح ص ٢٨١ وما بعدها .

(٢٠) انظر مقدمة الحمهرة لاس دريد ص ٦ حيدر آباد ١٣٤٤ هـ . ودراسات في فقه اللغة . د . صبحي الصاح
ص ٢٨٣ .

الخليج . وأغلب هذه الظواهر اللهجية من باب الإبدال^(٢١) .

٦ - المقاطع الصوتية في عروض الخليل

لك أن تضيف إلى الدرس الصوتي علماً لاصلة له بالصرف وقراءة القرآن الكريم ومخارج الأصوات ، وهو علم العروض الذي تهذى إليه الخليل بن أحمد [ت : ١٧٥ هـ] وصنعه من الصوت الخالص ، وأخذ ينتقل فيه من العام إلى الخاص ، ومن المركب إلى البسيط ، أي : من البيت إلى التفعيلة ، ومن التفعيلة إلى المقطع ، وأطلق على المقاطع الصوتية بحسب أصواتها المتحركة والساكنة أسماء استمدتها من أجزاء الخيمة ، ذاهباً إلى أن بيت الشعر الموزون يعدل بيت الشعر المسكون^(٢٢) . ثم ربط كل مجموعة من الأوزان برابطة صوتية سماها (دائرة) . ومن الدائرة تتفرع الأوزان المتقاربة النغم .

ومن يحلل أصوات وزن من أوزان الخليل يدرك السرّ الصوتي المقطعي في هذا البناء القوي . فالطويل ، على سبيل المثال ، بُني من تفعيلتين أي : من وحدتين صوتيتين تتكرران أربع مرات . أولاهما (فعولن) تتألف من مقطعين (فعو // °) وهو وتد مجموع . و (لن / °) وهو سبب خفيف . والثانية (مفاعيلن) تنحلّ إلى ثلاثة مقاطع صوتية ، وهي : (مفا // °) وهو وتد مجموع ، و (عي / °) سبب خفيف ومثله (لن / °) .

ويحسن بنا ههنا أن نشير إلى أن للمقطع في الدراسات الصوتية معنى آخر ، أساسه تقسيم الأصوات إلى طليقة وحبسية . فالطليقات « أصوات لا يجد الهواء معها عقبة تعترض طريقه »^(٢٣) ، ولولا اهتزاز الوترين في أثناء الضوق - هن ما سمعت هن نأمة . والطليقات العربية

(٢١) الاعمه قب الهمزة عيأ . يا بيت أا رباب - عما تراب والفحفة قنبا حاء : حتى حين - عني . والكشكشة إبدال كاف الأنتى شيباً فعيث عياها : فعيث . والكسكسة قلب كاف امدكر سيباً أو زيادة سين عليها : أعطيتك أعطيتكس أو أعطيتكس . والتشيشة قلب الكاف مطلقاً شيناً : لبيت انهم لبيش . والوتم إبدال السين تاء : الناس البات . وانطمطمانية إبدال لام التعريف ميماً : طاب اهواء طاب امهواء . والعجحة جعل الباء المشددة جيماً : أبو علي أبو علي . والاستطاء إبدال العين الساكنة نوباً إذا حورت الصاد : أعصياك - أنطياك . ولك أن تسمي إبدال الحيم ياء يأياًة : سحرات شيرات . انظر الصاحي ص ٣٦ وما بعدها والمر ١ ٢٢١ وما بعدها ومعالم اللهجات العربية ٨٥ - ٨٩ وأعله أن هذه الظواهر اللهجية سميت في الصاحي والمر : الرديء المدموم من اللغات .

(٢٢) انظر تفصيل ما أجملناهما في كتابنا عروض الشعر العربي من المعينات إلى شعر التفعيلة ص ١١ - ١٣ دار طلاس دمشق ١٩٩٤ م

(٢٣) الوحير في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص ٢٢٧ .

ثلاثة طوال هي الألف والواو والياء، وأخرى قصار هي الفتحة والضمة والكسرة. والحبيسات هن اللواتي يحسن في الخارج، فيعرض لهن الاحتكاك أو الانفجار، وهن بقية الأصوات. أي كل الأصوات الصوامت.

«أما المقطع فهو مجموعة من الأصوات المفردة تتألف من صوت طليق واحد معه صوت حبيس واحد أو أكثر»^(٢٤). وعلى هذا الأساس فإن (فعو) مقطعان: أولهما (ف) لأنه مؤلف من حبيس هو الفاء وطيّيق قصير هو الفتحة. و (عو) مقطع مؤلف من حبيس هو العين، وطيّيق طويل هو الواو.

وأبرز ما في هذا الفن الذي أبدعه الخليل توزيع الأصوات العربية على أساس مقطعي، يخالف الأساس الحرفي المتبع في الدراسات الصوتية الأخرى، وتجرد هذا التوزيع من المقاصد التي لابتست دراسة الصرف واللهجات، وخلوصه للموسيقا مما لم يكن للعربية عهد بمثله^(٢٥).

وإذا كانت الدراسة المقطعية العروضية من العلوم الصوتية التي أضافها الخليل إلى إنجازهم، وهو وضع المعجم على أساس صوتي أيضاً، فإن فضل الدراسات الصوتية العربية على ما سبقها من دراسات اليونان والرومان لا يتجلى في الموضوعات وحدها. «فالتصنيف اليوناني والروماني تنقصهما الدقة الواجبة في هذا المجال. أما التصنيفان الهندي والعربي فيقومان على فحص وظائف أعضاء النطق، وعلى تحديد مواضعها بالنسبة لكل صوت، وعلى درجة اتصالها»^(٢٦).

(٢٤) المصدر السابق ص ٢٥٤.

(٢٥) رأى أحمد بن فارس — ورأيه لا يستند إلى أدلة كافية — أن العروض من العلوم اللغوية التي كانت معروفة عند العرب، ثم دثرت، ثم نشرت. وناشرها الخليل بن أحمد وأمثاله من علماء اللغة والعروض والسحو والصرف.

(٢٦) علم اللغة، د. محمود السعراي ص ٩٠.

الدراسات الصوتية الحديثة

علم الأصوات العام

تمهيد

ذكرنا قبل أن الغربيين — وهم ورثة الحضارتين اليونانية والرومانية — لم يجدوا فيما ورثوا من علوم الأقدمين اللغوية غير شذرات صوتية ، لم يستطيعوا أن يصوغوا منها علماً له شأن كالعلم الذي صاغه العرب . ولهذا أصاب الركود والعقم هذا العلم في الغرب ، وظل الأوروبيون طوال العصور الوسطى يرددون أصداء اليونان والرومان .

« ومنذ القرن السابع عشر أخذت الدراسة اللغوية في أوروبا في النهوض . ومن أهم فروع هذه الدراسة التي تقدمت في القرن الثامن عشر هذا الفرع الذي يسمى بعلم الأصوات اللغوية . فازدياد معرفة اللغويين بالتقدم الذي أصابه علم الطبيعة ، وعلم وظائف الأعضاء ، وازدياد اتصالهم بلغات مختلفة ، واشتغالهم بوصفها وبالمقارنة بين أنظمتها الصوتية كل أولئك وغيره كان عاملاً من عوامل تقدم الدراسة الصوتية وإعطائها درجة أكبر من الدقة والضبط » .

ويقضي الإنصاف البريء من الغلو بآلا يبالغ الباحث في إطراء ما قدمه الأوروبيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر من بحوث صوتية « في صورة ناقصة ، وبطريقة تبعد كثيراً عن مناهج البحث العلمي . فمن ذلك بعض نظرات في أصوات اللغة (الفونيتيك) وردت في مؤلف لكورديموا Cordemoy ظهر في سنة ١٦٦٨م ، وبعض ملاحظات وتجارب على الصوت قامت بها المدارس المنشأة في القرن الثامن عشر لتعليم الصم البكم » .

والحق أن نهاية القرن الثامن عشر شهدت بداية النهضة الحقيقية في الدراسات اللغوية ، وأن اكتشاف العلاقة بين اللغة السنسكريتية Sanscrit من ناحية واللغات اليونانية واللاتينية والجرمانية من ناحية أخرى هو المنطلق الذي انطلقت منه الدراسات اللغوية بصورة عامة . وبعد هذه الانطلاقة القوية المسلحة بمناهج علمية اتسعت ميادين الدراسات اللغوية ،

وتعددت موضوعاتها، وظفرت الأصوات اللغوية بالخط الأوفى منها. وبعد فترة انتقالية اختلفت فيها الموضوعات والأفكار انقسمت الدراسات الصوتية إلى علمين: علم الأصوات العام General Phonetics وعلم الأصوات الخاص Phonology. وأهم الموضوعات التي عني بها علم الأصوات العام — وعليها وقفنا هذا الفصل — أعضاء النطق، ومخرج الأصوات وتقسيمها إلى زمر وفق المخرج.

أولاً — أعضاء النطق

ربما كانت دراسة أعضاء النطق وما نجم عنها من تحديد المخرج الثمرة الأولى التي اقتطفها علم الأصوات العام من شجرة العلوم الحديثة، وعلى رأسها الفيزياء بما صنعتها من آلات تصوّر وتسجل، والتشريح بما أجراه في الجسم من مباحث تشريح وتوضيح، والفسيولوجيا بما انتهت إليه من معرفة علمية تحدد العمل الذي خلق له كل عضو من أعضاء النطق. إن التعاون بين هذه العلوم خطا بالدراسات الصوتية الغربية من التخمين الصادق عند العرب إلى اليقين الأصدق عند الغربيين، ومن محاكاة العصور الوسطى لعصري اليونان والرومان إلى الاستقلال بالرأي والاعتماد على الملاحظة المحكمة الأحكام، والتجربة القطعية النتائج في العصر الحديث.

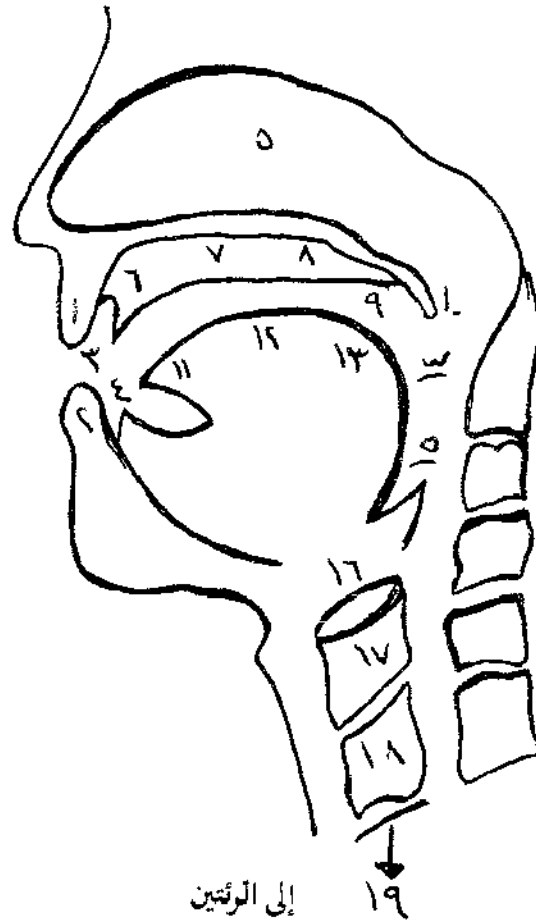
وقبل أن نستعرض أعضاء النطق، ونعزو إليها وظائفها الكلامية، وقبل أن ندعي أن علم الفسيولوجيا جعل الوظيفة الأولى لأعضاء النطق صنع الكلام يحسن بنا أن نشير إلى حقيقة من حقائق الخلق، هي «أن تلك الأجزاء المسماة بأعضاء النطق ليست وظيفتها الأولى النطق، وإنما تؤدي وظائف أخرى أساسية في بقاء الكائن الحيّ مثل التنفس والأكل»^(١). وحسبك أن تقارن الإنسان — وهو الحيوان الوحيد الناطق — بالحيوانات العجماء. وبالبكم من البشر لتدرك أن إخراج النفس لصنع الكلام يُعد ثانوياً إذا قيس بإدخاله لتنقية الدم، وأن تنقل اللسان بين مخارج الحروف دون اللوك والدفع للبلع. فما هذه الأعضاء؟ وما أجزاءها الناطقة؟ وما الأصوات التي يخرجها كل جزء؟

لاتزيد الأعضاء التامة الناطقة على بضعة أوصال هي: الرئتان والقصبية الهوائية الممتدة من الرئتين إلى الخنجرة، والخنجرة التي تلتصق على جانبي فوهتها العليا لحمتان

(١) أسس علم اللغة، ماريوناي ص ٧٩.

تسميان الوترين الصوتيين ، وتغلق هذه الفوهة لحمية نبتت من جدار الحلق الأقصى لتغطي الحنجرة عند البلع ، تدعى لسان المزمار ، وجوف الفم الذي يتوسطه اللسان ، ويزدان من الأمام بقوسين من الأسنان ، وتغلقه عند الحاجة إلى إغلاقه الشفتان . وآخرها وأعلاها موضعاً جوف الأنف .

هذا هو التقسيم العضوي ، أما التقسيم الذي يؤثره عم الأصوات الحديث — وهو يكاد يطابق التقسيم العربي القديم — فيقوم على أساس صوتي ، إذ يقسم الجهاز الناطق إلى محطات ، أو مراكز ناطقة وفق الأصوات التي تصدر عن كل محطة ، فيجعلها بضعة عشر مركزاً ، وهي من خارج الجسم إلى داخله : ١ — الشفة العليا ٢ — الشفة السفلى ٣ — الأسنان العليا ٤ — الأسنان السفلى ٥ — تجويف الأنف ٦ — اللثة (أصول الأسنان) ٧ — الغار (مقدم الحلق) ٨ — الطبق (وسط الحلق) ٩ — أقصى الحلق ١٠ — اللهاة ١١ — الذلق (طرف اللسان) ١٢ — وسط اللسان ١٣ — مؤخر اللسان ١٤ — الجدار الخفي للحلق ١٥ — لسان المزمار ١٦ — الوتران ١٧ — الحجرة ١٨ — القصبة الهوائية ١٩ — الرئتان .



ثانياً — مخارج الأصوات (الحروف)

لعل أفضل الأساليب التي تمكننا من الوقوف على مخارج الأصوات أن نراقب رحلة الهواء من الرئتين إلى الشفتين، لأن الهواء — وهو المادة الأساسية التي تُصنع منها الأصوات — يتعرض في أثناء عبوره جوف الحلق فالقمة فالشفَتين إلى الاحتكاك أو الاصطدام بأشياء تصنع منه الأصوات.

إن مرَّ الهواء من الرئتين إلى الحلق والفم مروراً عفوياً لم تتغير له أوضاع الأعضاء الناطقة تغيراً إرادياً كان زفيراً صامتاً، وإن اتخذ اللسان والشفَتان أوضاعاً إرادية معينة، فضاقت طريق الهواء أو اتسع، وانخفض اللسان أو ارتفع، وتدوّرت الشفتان أو انبسطتا. ولم يصطدم الهواء بعقبة تقطعه أو تمنعه خرجت الأصوات الصائتة Vowels. وإن عرض للهواء شيء يستوقفه ثم يقذفه، أو يهزّه ويهتّز به خرجت الأصوات الصامتة Consonants. وإليك تفصيل ما أجملنا:

١ — الأصوات الجوفية: إذا أراد الناطق أن يصنع الأصوات الجوفية (نسبة إلى جوف الحلق والفم) وهي الألف والواو والياء الممدودات، وما يقاربها من أصوات أجنبية (o, e, u) لا مثيل لها في العربية أجرى الهواء من رئتيه في جوف الحلق والفم بلا عقبة تعترضه، غير أن اللسان «يمكن أن يرتفع من مقدمه أو وسطه أو جزئه الخلفي»^(٢). أما الشفتان فتفتحان مع الألف، وتنبسطان مع الياء، وتندوران مع الواو كمن يتهيا للثم طفل. وتسمى هذه الأصوات الثلاثة مع ما يقاربها من الأجنيات أصواتاً صائتة Vowels^(٣). فإذا تحركت الواو في نحو (وَلَد) تحولت إلى زمرة الصامتة Consonants وصنفت مع الأصوات الشفوية.

٢ — الأصوات الحلقية: أما (الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء) فالعلماء القدماء من العرب يسمونها حلقية. «ويخصون الهمزة والحاء بأقصى الحلق، والعين والحاء بأوسطه، والغين والحاء بأدناه. غير أن الدراسات الحديثة أثبتت أن الهمزة والحاء من الخنجرة، والغين والحاء من الطبق، وأن الذي يخرج من الحلق هو العين والحاء»^(٤). وتصنف العين والغين مع الأصوات المجهورة، وتصنف الهمزة والحاء والحاء مع المهموسة. والجهر يهز وترى الخنجرة، والهمس يريحهما من الاهتزاز.

ومع أن أصوات الحلق أشيع في اللغات السامية — ولا سيما العربية — منها في

(٢) أسس علم اللغة، ماريوباي ص ٧٩.

(٣) يطبق مصطلح الأصوات الصائتة في بعض الكتب على الرمرة الأخرى: الباء، التاء، الجيم... الخ انظر فقه اللغة للمبارك ص ٥٢.

(٤) المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص ٢٢٢ — ٢٢٣.

اللغات الغربية ، فقد تجد بعضها في اللغات الأوروبية ، إذ تجد فيها صوتاً يشبه الهمزة ، ويسمى Glottal Stop نجده « في اللغة الإنكليزية حين النطق بكلمة مثل Co-operate »^(٥) . وتجد الحاء في الألمانية ، لكنها أرق من الحاء العربية المفخمة . أما صوت الهاء فيماثلته في الإنكليزية « الصوتُ الحنجري الاحتكاكي المهموس H في نحو Head »^(٦) .

٣ — الصوتان اللهويان : وهما في العربية القاف والكاف ، ويتم نطقهما بطريقة تكاد تكون واحدة . فإذا عزمت على إخراج القاف رفعت مؤخر الطبق حتى يسدّ المجرى الأنفي ويلصق الجدار الخلفي للحلق ملاصقة محكمة ، ورفعت مؤخر اللسان ليتصل باللهة وبجدار الحلق الخنفي أيضاً . حينئذ ينحبس الهواء وراء هذا القفل المحكم ، ثم ينفجر ، فيخرج الصوت .

والكاف كالقاف إلا أنه أقل عمقاً ، ومخرجه مؤخر الحلق ، لكنه إلى الغار أقرب ، والقاف إلى اللهة أقرب . ولتجاوز المخرجين يحدث نوع من الزحف في بعض اللهجات العربية العامية ، فيتقدم مخرج القاف نحو مخرج الكاف حتى ينتبس الصوت بأخيه ، ويظهر هذا الزحف في لهجة قسم من أهل فلسطين . وكلا الصوتين شديد مهموس . وإذا كان القاف غير معروف في الإنكليزية فالكاف كثير الشيوخ ، ويرسم بأكثر من صورة ، لكن اختلاف الرسم لا يعني اختلاف النطق ، مثل : Cut, Quick .

٤ — الأصوات الشجرية (الغارية) : هي ثلاثة أصوات :

أولها الشين ، وهو صوت رخو مهموس مرقق ، ينطق برفع مقدمة اللسان نحو الشجر (الغار) ، ويرفع الطبق ليلتصق بالجدار الخلفي للحلق . ويسدّ المجرى الأنفي . فإذا مرّ الهواء في المجرى الضيق بين اللسان والغار حدث صوت الشين من الاحتكاك والصفير .

وثانيها الجيم ، وهو صوت مجهور آخذ من الشدة بنصيب ومن الرخاوة بنصيب . ويتم نطقه بأن يرتفع مقدم اللسان ليلتصق بالغار ، فيحبز الهواء ، ثم يطلقه ببطء نسبي ، يؤدي إلى احتكاكه بمخرجه ، غير أن هذا الصوت تعرّض لكثير من التغيير : أصبح قريباً من صوت (g) الإنكليزي في السنة القاهريين ، وباء في منطقة الخليج ، وقارب الشين في دمشق ولبنان .

ويَدْعِي المستشرق إنو ليتمان E. Littmann أن النطق الأصلي لهذا الصوت هو الجيم

(٥) أسس علم اللغة ، ماريوباي ص ٧٧ .

(٦) مبادئ علم اللسانيات الحديث ، د . سامي عياد حنا د . شرف الدين الراححي ص ٢٣٦ الإسكندرية

القاهرة، وحجته أن نطق هذا الصوت في العبرية شبيه بالنطق القاهري^(٧). ودعواه مردودة لأمرين:

أولهما أن قراءة القرآن المأخوذة بالتواتر والمشافهة لا تعرف هذا الصوت. وثانيهما أن الأصوات العبرية ليست حجة على العربية، لأن كل صوت منها يقابل صوتاً عربياً أو أكثر وصوت (الجيم) العبري المنطوق بجيم القاهرة « يقابله ج، وقد يقابله غ أو ق، أو ك، أو ط »^(٨). ومهما يكن من أمر هذا الادعاء فإن تغير الأصوات في العربية يحدث وفق قوانين صوتية عامة، ولا علاقة بها للعبرية، ولما يقابل الأصوات العربية من الأصوات العبرية. والصوت المعادل لصوت الجيم القرآنية الفصيحة يمثله الرمز الإنكليزي (j)، وتسمعه في نحو: Judge.

وثالث الأحرف الشجرية الياء المتحركة غير الممدودة، في نحو: يذهب. وهو صوت مجهور، إذا أردت نطقه فاسمح لمقدمة لسانك بأن تصعد نحو وسط الحلق، واترك الهواء المار من الفراغ الباقي بين اللسان والغار يتسرب تسرباً احتكاكياً. حينئذ تسمع صوت الياء. وقريب من الياء العربية المتحركة الصوت الإنكليزي الذي تسمعه في نحو: Yesterday.

٥ — الأصوات الذلقية: وهي: اللام والراء والنون. ويسمى بعضها بعض الباحثين الأصوات الثثوية^(٩)، ويسمى آخرون الأصوات المائعة^(١٠).

أما اللام فصوت جانبي مجهور، ينطق بأن يتصل طرف اللسان باللثة، ويرتفع الطبق، فيسد المجرى الأنفي، ويرافق نطقه اهتزاز في وترى الحنجرة. والأصل فيه الترقيق. غير أنه يفخم في لفظ الجلالة (الله) ما لم تسبقه كسرة. ويتم الترقيق بخفض مؤخرة اللسان، والتفخيم يرفعها. ويبدو أن تنوع النطق بهذا الصوت شائع في غير العربية، وتستطيع أن تلمسه بالإصغاء إلى كلمتي Love و Milk. ويُعَلَّل حدوث الفرق باختلاف موضع الانعلاق الناجم عن رفع اللسان إلى الطبق^(١١).

وأما الراء فصوت مجهور مكرور، يرقق ويفخم، ونطقه يهز وترى الحنجرة وذلك اللسان، وترقيقه يتم بخفض مؤخرة اللسان. وتفخيمه ينجم عن رفعها. ولترقيق والتفخيم

(٧) انظر المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص ٥٢.

(٨) تضاد في صوء اللغات السامية، د. رحي كمال ص ٢٢ دار النهضة بيروت ١٩٧٥ م.

(٩) المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص ٤٧.

(١٠) أسس علم اللغة، ماريوناي ص ٨٦.

(١١) المصدر السابق ص ٨٦.

مواضع وضوابط يتقنها القراء المجودون ، إذ يرققون الراء المكسورة أو الساكنة المسبوقة بكسرة مثل : رضوان وفريعة ، ويفخمونها فيما عدا ذلك . ويختلف تكرار الراء في اللغات الأوروبية ، فهو خفي في الفرنسية واضح بعض الوضوح في الإنكليزية ، وكلّ الوضوح في الإيطالية . وتسمى الراء بسبب ما يصحبها من جهر وكرور صوتاً مهتزاً Vibrant^(١٢) .

وأما النون فصوت ذلّقي مجهور ، إذا هممت بنطقه فألصق طرف لسانك بلشك العليا ، واخفض الطبقة لتفتح المجرى الأنفي . فإذا جرى الهواء من الرئتين هزّ الوترين ، وخرج من الأنف . ولهذا يقترح ماريوباي تسمية النون صوتاً أنفياً Nasal^(١٣) . ويلاحظ باحثون آخرون أن صوت النون الساكنة يختلف باختلاف الأصوات التي تعقبها ، ويسمون هذا الصوت : أسنائياً ، ولثوياً ، وغارياً ، ولهوياً^(١٤) . ولو أنصفوا لالتزموا ما اصططح عليه علم التجويد من إظهار وإخفاء وإدغام ، أو أفادوا من هذه المصطلحات .

٦ — الأصوات النطعية : هي ثلاثة أصوات : الدال ، والتاء ، والطاء .

الدال صوت أسناني لثوي مجهور . إذا أردت أن تنطقه فألصق مقدمة اللسان بالأسنان واللثة العليا تمنع الهواء من المرور ، ولتسد التجويف الأنفي . وبسط مؤخرة اللسان ، ودع الوترين يهتزان ، ثم أطلق الهواء الحبيس ، فمتى انفجر ثمّ نطقه . ولما كان النطق به يحتاج إلى تفجير الهواء بعد حبسه فقد اقترح بعض الغربيين تسميته وأمثاله الأصوات الانسدادية Occlusives أو الانفجارية Plosives^(١٥) .

والطاء والتاء نظيراً الدال . كلاهما صوت شديد مهموس ، إلا أن صوت الطاء مفخم ، لأن مؤخرة اللسان ترتفع نحو الطبقة عند نطقه ، وصوت التاء مرقق . لأن مؤخرة اللسان لا ترتفع .

٧ — الأصوات الأسلية أو أصوات الصفير : هي ثلاثة أصوات : الزاي ، والسين ،

والصاد .

صوت الزاي رخو مجهور مرقق ، إذا هممت بنطقه فارفع طرف اللسان (أسلته) نحو الأسنان العليا ، ومقدمته نحو اللثة العليا ، وسدّ المجرى الأنفي بالطبق ، وذلك بأن ترفع الطبقة نحو الجدار الخلفي للحق ، ودع الهواء يمرّ بين اللسان واللثة والأسنان مروراً احتكاكياً ،

(١٢) المصدر السابق ص ٨٦ .

(١٣) المصدر السابق ص ٨٦ .

(١٤) ماهج البحث في اللغة ، د . تمام حسان ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(١٥) أسس علم اللغة ، ماريوباي ص ٨٢ .

القاهرة، وحجته أن نطق هذا الصوت في العبرية شبيه بالنطق القاهري^(٧). ودعواه مردودة لأمرين:

أولهما أن قراءة القرآن المأخوذة بالتواتر والمشافهة لا تعرف هذا الصوت. وثانيهما أن الأصوات العبرية ليست حجة على العربية، لأن كل صوت منها يقابل صوتاً عربياً أو أكثر وصوت (الجيمل) العبري المنطوق بجيم القاهرة « يقابله ج، وقد يقابله غ أو ق، أو ك، أو ط »^(٨). ومهما يكن من أمر هذا الادعاء فإن تغير الأصوات في العربية يحدث وفق قوانين صوتية عامة، ولا علاقة بها للعبرية، ولما يقابل الأصوات العربية من الأصوات العبرية. والصوت المعادل لصوت الجيم القرآنية الفصيحة يمثله الرمز الإنكليزي (j)، وتسمعه في نحو: Judge.

وثالث الأحرف الشجرية الياء المتحركة غير الممدودة، في نحو: يذهب. وهو صوت مجهور، إذا أردت نطقه فاسمح لمقدمة لسانك بأن تصعد نحو وسط الحلق، واترك الهواء المار من الفراغ الباقي بين اللسان والغار يتسرب تسرباً احتكاكياً. حينئذ تسمع صوت الياء. وقريب من الياء العربية المتحركة الصوت الإنكليزي الذي تسمعه في نحو: Yesterday.

٥ - الأصوات الذلّقية: وهي: اللام والراء والنون. ويسمّيها بعض الباحثين الأصوات اللثوية^(٩)، ويسمّيها آخرون الأصوات المائعة^(١٠).

أما اللام فصوت جانبي مجهور، ينطق بأن يتصل طرف اللسان باللثة، ويرتفع الطبق، فيسد الجرى الأنفي، ويرافق نطقه اهتزاز في وتري الحنجرة. والأصل فيه الترقيق، غير أنه يفخم في لفظ الجلالة (الله) ما لم تسبقه كسرة. ويتم الترقيق بخفض مؤخرة اللسان، والتفخيم برفعها. ويبدو أن تنوع النطق بهذا الصوت شائع في غير العربية، وتستطيع أن تلمسه بالإصغاء إلى كلمتي Love و Milk. ويُعلّل حدوث الفرق باختلاف موضع الانغلاق الناجم عن رفع اللسان إلى الطبق^(١١).

وأما الراء فصوت مجهور مكروّر، يرقق ويفخم، ونطقه يهز وتري الحنجرة وذلق اللسان، وترقيقه يتم بخفض مؤخرة اللسان، وتفخيمه ينجم عن رفعها. وللترقيق والتفخيم

(٧) انظر المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص ٥٢.

(٨) التضاد في صوء اللغات اسامية، د. رحي كمال ص ٢٢ دار النهضة بيروت ١٩٧٥ م.

(٩) المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص ٤٧.

(١٠) أسس علم اللغة، ماريوباي ص ٨٦.

(١١) المصدر السابق ص ٨٦.

مواضع وضوابط يتقنها القراء المجودون ، إذ يرققون الرء المكسورة أو الساكنة المسبوقة بكسرة مثل : رضوان وفريّة ، ويفخمونها فيما عدا ذلك . ويختلف تكرار الرء في اللغات الأوروبية ، فهو خفي في الفرنسية واضح بعض الوضوح في الإنكليزية ، وكلّ الوضوح في الإيطالية . وتسمى الرء بسبب ما يصحبها من جهر وكرور صوتاً مهتزّاً Vibrant^(١٢) .

وأما النون فصوت ذلّقي مجهور ، إذا هممت بنطقه فألصق طرف لسانك بلثتك العليا ، واخفض الطبق لتفتح المجرى الأنفي . فإذا جرى الهواء من الرئتين هزّ الوترين ، وخرج من الأنف . ولهذا يقترح ماريويائي تسمية النون صوتاً أنفياً Nasal^(١٣) . ويلاحظ باحثون آخرون أن صوت النون الساكنة يختلف باختلاف الأصوات التي تعقبها ، ويسمون هذا الصوت : أسنائياً ، ولثوياً ، وغارياً ، ولهوياً^(١٤) . ولو أنصفوا لالتزموا ما اصطلاح عليه علم التجويد من إظهار وإخفاء وإدغام ، أو أفادوا من هذه المصطلحات .

٦ - الأصوات النطعية : هي ثلاثة أصوات : الدال ، والتاء ، والطاء .

الدال صوت أسنائي لثوي مجهور . إذا أردت أن تنطقه فألصق مقدمة اللسان بالأسنان واللثة العليا لتمنع الهواء من المرور ، ولتسدّ التجويف الأنفي . وابسط مؤخرة اللسان ، ودع الوترين يهتزّان ، ثم أطلق الهواء الحبيس ، فمتى انفجر تمّ نطقه . ولما كان النطق به يحتاج إلى تفجير الهواء بعد حبسه فقد اقترح بعض الغربيين تسميته وأمثاله الأصوات الانسدادية Occlusives أو الانفجارية Plosives^(١٥) .

والطاء والتاء نظيرا الدال ، كلاهما صوت شديد مهموس ، إلا أن صوت الطاء مفخم ، لأن مؤخرة اللسان ترتفع نحو الطبق عند نطقه ، وصوت التاء مرقق ، لأن مؤخرة اللسان لا ترتفع .

٧ - الأصوات الأسلية أو أصوات الصفير : هي ثلاثة أصوات : الزاي ، والسين ، والصاد .

صوت الزاي رخو مجهور مرقق . إذا هممت بنطقه فارفع طرف اللسان (أسلته) نحو الأسنان العليا ، ومقدمته نحو اللثة العليا ، وسدّ المجرى الأنفي بالطبق ، وذلك بأن ترفع الطبق نحو الجدار الخلفي للحلق ، ودع الهواء يمرّ بين اللسان واللثة والأسنان مروراً احتكاكياً .

(١٢) المصدر السابق ص ٨٦ .

(١٣) المصدر السابق ص ٨٦ .

(١٤) مباح البحث في النعة ، د . تمام حسام ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(١٥) أسس علم النعة ، ماريويائي ص ٨٢ .

تسمع صفيـر الصوت يصحبه اهتزاز الوترين في الخنجرة . وشبيه بصوت الزاي الصوت الإنكليزي Z في نحو : Zoo .

وصوت السين كصوت الزاي في الرخاوة والرقـة والصفيـر ، إلا أنه مهموس ، لا يهز نطقه وتري الخنجرة . وشبيه به الصوت الإنكليزي (S) في نحو : Class ويسمى مع أمثاله أصوات الصفيـر Sibilants^(١٦) .

وصوت الصاد كصوت السين في الهمس ، إلا أنه مفخم ، وتحدث فخامته من ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق في أثناء نطقه . وهو في صفيـره ورخاوته واحتكاكه شبيه بالزاي والسين ، إلا أنه مطبق ، وهما منفتحان .

٨ — الأصوات اللثوية : هي ثلاثة : الثاء ، والذال ، والظاء . وفي تسميتها خلاف : فالخليل بن أحمد [ت : ١٧٥ هـ] سماها اللثوية^(١٧) ، وعنه نقل المتأخرون . وشارح المفصل جعلها أسنانية المخارج فقال : « الظاء والذال والثاء من حيز واحد ، وهو ما بين أطراف اللسان وأصول الثنايا وبعضها أرفع من بعض »^(١٨) ، لكنه سماها لثوية ، فقال : « هي لثوية لأن مبدأها من اللثة »^(١٩) ، وهذه الجملة من كلام الخليل . وسترى بعد تحليل هذه الأصوات أن في تسميتها لثوية اتساعاً وتقيداً للخليل ، وأن تسميتها أسنانية أقرب إلى الدقة .

أول هذه الأصوات الثاء ، وهو رخو مهموس مرقق منفتح . يعادله في الإنكليزية الصوت المرموز له بـ (Th) ، في نحو Thing . ويتم نطقه بوضع طرف اللسان بين أطراف الثنايا . ويترك منفذ ضيق يمر منه الهواء مروراً بطيئاً . أما اللسان فيبقى أكثره مستوياً ، بينما يرتفع الطبق ليسد المجرى الأنفي ، فيلتصق بالجدار الخلفي للحلق . وهذا الصوت تحوّل في أكثر اللهجات العامية إلى صوتي الثاء والسين .

والصوت الثاني — وهو الذال — رخو مرقق كالثناء . لكنه مجهور . وطريقة نطقه مماثلة لطريقة نطق الثاء . ولا يزيد عليه إلا في شيء واحد ، هو اهتزاز الوترين ، ويرمز له في الإنكليزية برموز الثاء نفسه (Th) وتسمعه في نحو : That .

وثالث اللثويات الظاء . وهو نظير الذال ، ويتميز بأنه في أثناء نطقه ترتفع مؤخرة اللسان نحو الطبق فيغدو مفخماً . وقد أدرك سيويه هذا الفرق فقال : « ولولا الإطباق في

(١٦) المصدر السابق ص ٨٥ .

(١٧) العين ، للتحليل ٦٥/١ .

(١٨) شرح المفصل لابن يعيش ١٢٥/١٠ .

(١٩) المصدر السابق ١٢٥/١٠ .

الظاء لكانت ذالاً»^(٢٠) . وليس لهذا الصوت مثل في الإنكليزية . « وقد تحول هذا الصوت في بعض العاميات إلى ضاد مرة ، وإلى زاي مطبقة مرة أخرى . فأما في الكلمات القديمة في عاميتها فقد انقلب إلى ضاد ، مثل ظهر = ضهر »^(٢١) .

٩ - الأصوات الشفهية : هي ثلاثة أصوات : الباء والميم والواو المتحركة .

الباء صوت شديد مجهور مرقق . إذا هممت بنطقه فأغلق شفتيك ، وارفع الطبق لتغلق به ما بين الحلق والتجويف الأنفي ، وهز الوترين ، ثم أطلق الهواء الحبيس إطلاقاً انفجارياً . وهذا الصوت يضارع الصوت الإنكليزي المرموز له بالرمز (B) في نحو Boy . وهو في الإنكليزية يعد صوتاً شفويّاً Labial وطبقياً Velar وحنجرياً Guttural^(٢٢) .

ولهذا الصوت نظير مهموس لا عهد للعربية به ، تسمعه في العبرية وفي اللغات الأوروبية ورمزه في الإنكليزية (P) ، ومثاله الصوت الأول من Pen والأخير من Stop .

والصوت الثاني هو الميم ، وهو صوت أنفي مجهور . في نطقه تنطبق الشفتان انطباقاً تاماً ، وينخفض الطبق ، فلا يجد الهواء مخرجاً غير الأنف ، فينفلت منه ، ويهز الوترين وهو خارج ، ولهذا يسميه ماريوباي أنفياً Nasal آخذاً بمخرج الهواء ، وشفوياً أنفياً آخذاً بمحبسه ومخرجه معاً^(٢٣) . ورمزه في الإنكليزية (M) ومثاله : Maximum .

وثالث الأصوات في هذه الزمرة صوت الواو المتحركة في نحو : (وَصَلَ) . وهذا الصوت في العربية شفوي مجهور ، وفي الإنكليزية « نصف علة Semivowel ونصف ساكن Semiconsonant »^(٢٤) ورمزه فيها (W) ومثاله : (Was) .

١٠ - الأصوات الشفهية الأسنانية : لا تعرف العربية من هذه الأصوات غير

صوت الفاء . وهو صوت رخو مهموس مرقق . يُنطق برفع الشفة السفلى حتى تلامس رؤوس الأسنان العليا ملازمة رقيقة ، تسمح بخروج الهواء خروجاً احتكاكياً ، وبرفع مؤخر الطبق لكي يسدّ التجويف الأنفي ، وبإراحة الوترين من الاهتزاز . وشبيهة به في الإنكليزية الصوت المرموز له بـ (F) نحو : For . ولهذا الصوت نظير مجهور رمزه (V) ويجتمع هذان الصوتان في : Five .

(٢٠) الكتاب لسيبويه ٤٠٦/٢ .

(٢١) الوحيز في فقه اللغة ، محمد الأنصاري ص ١٨٤ .

(٢٢) أسس علم اللغة ص ٨٢ .

(٢٣) أسس علم اللغة ، ماريوباي ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢٤) المصدر السابق ص ٨١ .

ومع أن العربية لا عهد لها بمثل هذا الصوت المجهور ففي العبرية يتحول صوت الباء أحياناً إلى (ق = V)، أو يُفرد له صوت ورمز كتابي خاصان به، ويسمى في الأبجدية العبرية (قاف) (٢٥).

١١ - صوت الضاد: أرجأنا الحديث عن هذا الصوت لتفرده، ولم نسمه باسم مخرجه لعجزنا عن تحديد مخرجه القديم. ولهذا آثرنا أن نجعله عنواناً لنفسه إقراراً بمنزلة هذا الصوت في العربية. وهذه المنزلة جعلته عند الأقدمين عنواناً للعربية كلها، فسموها باسمه، فقالوا: لغة الضاد. وليس إقرارنا بذلك ضرباً من المفاخرة، إذ أقر بتفرده برجشتراسر حينما قال: «الضاد العتيقة حرف غريب جداً غير موجود، حسبما أعرف، في لغة من اللغات غير العربية. ولذلك كانوا يكتنون عن العرب بالناطقين بالضاد. ويغلب على ظني أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب، غير أن للضاد نطقاً قريباً منه جداً عند أهل حضرموت» (٢٦).

وإذا كانت معرفة الصوت بالإصغاء المباشر إلى نطقه القديم مستحيدة في العصر الحاضر، فوصف المخرج ميسور. التحليل ألحقه بالجيم والشين الصوتين الاحتكاكين (٢٧). وسيبويه قال في صفته: «ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد» (٢٨). وفيه قال المبرد: «الضاد مخرجها من الشدق، فبعض الناس تجري له في الأيمن، وبعضهم تجري له في الأيسر» (٢٩). وهذه الأقوال تعني أنه كان صوتاً احتكاكياً رخواً جانبياً. فكيف ينطقه العرب اليوم؟

ينطق العرب الضاد اليوم كما ينطقون الدال، فيخرج صوته شديداً مجهوراً فحماً، ويأتيه التفخيم من ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق عند نطقه، وبذلك التفخيم يفارق الدال.

ولعل صعوبة النطق بالضاد عملت عملها في تغييره، فصار كما نسمعه من أهل القاهرة شبيهاً بالدال (يضحك = يدحك) أو قريباً من التاء (مرفوض = مرفوت)، أو صار كما نسمعه من السنة العراقيين شبيهاً بالطاء (ضياء = ظياء). وهذا الخلط بين الضاد والطاء

(٢٥) دروس في اللغة العبرية، د. ربحي كمال ص ٦٨. جامعة دمشق ١٩٦٠ م.

(٢٦) التطور النحوي للغة العربية ص ١٨ أخرج وصححه وعق عليه د. رمضان عبد التواب القاهرة ١٩٨٢ م.

(٢٧) اعيان، للخليل ٦٤/١.

(٢٨) الكتاب، لسبويه ٤٠٥/٢.

(٢٩) المقتضب للمبرد ١٩٣/١ تح محمد عبد الحالق عصيمة القاهرة ١٩٦٣ م.

قديم، إذ وقعت أمثلة قبيحة منه في عصر الراشدين^(٣٠)، ثم كثرت هذه الأمثلة، وفشت فاشية الخلط بين الصوتين منذ مطلع القرن الثالث الهجري، حتى أجازها ابن الأعرابي^(٣١) [ت: ٢٣١هـ]. ثم استفحل الأمر في أيام الحكم العثماني لعجز الأتراك عن إخراج الضاد (حظرة = حظرة).

وإذا كانت صعوبة النطق بالضاد قد حملت العرب على تغيير مخرجه فاللغة العبرية — شأنها شأن غيرها من الساميات — لم تتجشم صعوبة هذا النطق، واستبدلت بصوت الضاد صوتاً آخر. ولهذا تجد أن الكلمات العبرية المساوية لكلمات العربية الضادية تستبدل بالضاد صاداً في أغلب الأحيان نحو: أرض = إِرِصْ، رض = رَصَصْ، بيضة = بيصا^(٣٢).

(٣٠) المزهر للسيوطي ٥٦٢/١.

(٣١) وفيات الأعيان لأبى خنكان ٣ ٤٣٣ تح د. إحسان عباس بيروت ١٩٦٨ م.

(٣٢) التصاد في صوء اللغات السامية، د. رحي كمال ص ٢٧.
ولمؤلفاء بحق (الصاد) من الدرس المفصل تراجع المصادر التالية: المدخل إلى علم اللغة د. رمضان عبد التواب ص ٦٢. التطور الحوي للغة العربية برحسترأسر ص ١٨. دروس في علم أصوات العربية جان كاتيهو ص ٨٦. الأصوات اللغوية د. إبراهيم أيس ص ٤٩.

علم الأصوات الخاص (أو علم الأصوات التشكيلي PHONOLOGY)

تمهيد

ربما كانت ترجمة المصطلح من لغة إلى لغة أصعب من وضع مصطلح جديد . ومصطلح الفونولوجيا Phonology من النمط الذي تصعب ترجمته بكلمة أو بضع كلمات تدل على معناه في اللسانيات الحديثة .

معناه اللغوي المعجمي : « علم الأصوات الكلامية »^(١) ، غير أن هذا المعنى أخذ يفارقه ، ليحل محله معنى جديد ألصقته به الدراسات اللسانية الحديثة ، فغداً عنواناً لعلم صوتي متخصص بدراسة الأصوات في لغة من اللغات ليكشف عن أساليب التركيب والتشكيل فيها . فإذا كانت السمة الأولى لعلم الأصوات العام (التحليل) فالسمة الأولى لهذا العلم (التشكيل) . لكن التشكيل ههنا لا بد له من الاعتماد على نتائج التحليل التي توصل إليها علم الأصوات العام الذي درس الأصوات وحدد صفاتها ومخارجها ، وقسمها إلى زمر وفق هذه الصفات والمخارج .

وإذا لم يكن بد من عزو الفضل إلى ذويه فالقدر الأكبر من الفضل في توضيح هذا المصطلح وفي وضعه ، وفي تحديد الموضوعات التي يتضمنها يعود إلى اللغوي الروسي تروتسكوي [ت : ١٩٣٨ م] الذي جعل من نتائج التحليل الصوتي بنية حية ، تنتظمها مجموعة من العلاقات الناجمة عن أنظمة اللغة المدروسة ، لا عن الأنظمة اللغوية الإنسانية بصورة عامة^(٢) .

(١) المورد ، مير لعبيكي دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٩ م .

(٢) انظر علم اللغة في القرن العشرين . موان ص ٩٧ وما بعدها ترجمة يحيى عزوي دمشق ١٩٨٢ م .

إن كنت من الذين يرون أن المصطلح يجب أن يدل على ما وضع له فاعلم أن أتباع هذا المنهج أولى باسم (البنوية) من بلومفيلد وأتباعه، لأن أتباع البنوية ينقضون البناء، وأتباع هذا المنهج يشيدونه. إن التحليل وفق المنهج البنيوي ينتقل باللغة من المركب إلى البسيط، ومن الجملة إلى المورفيم. وهذا المنهج ينتقل من الجزء إلى الكل، إذ يبدأ بالفونيم Phoneme والمقطع Syllable وينتهي بالمجموعة النغمية Tone Group ثم ينتقل إلى الجملة الفونولوجية Phonological Sentence. وأهم المسائل التي يعالجها هي: الفونيم، والمقطع، والنبر، والتنغيم، وقواعد التشكيل الصوتي.

أولاً — الفونيم Phoneme

الفونيم مصطلح لساني حديث نقله الباحثون العرب إلى لغتنا بأكثر من صورة فقالوا: هو صوت، وصوت، وصوتون، وصوتيم... إلخ. وشفع كل باحث ترجمته للكلمة بمسوغات لغوية ومعنوية. ولما كان اختيار واحد من هذه الألفاظ يضعنا في أنظار الألفاظ الأخرى موضع اللبس واللمز فقد آثرنا أن نستعمل المصطلح الأجنبي. ونترك لغيرنا الجراءة على المفاضلة والاختيار.

الفونيم لغة إحدى وحدات الكلام الصغرى^(٣)، واصطلاحاً هو أصغر وحدة صوتية يمكن عن طريقها التفريق بين المعاني^(٤). فإذا أسقطت القيد الأخير من التعريف الاصطلاحي، وهو (التفريق بين المعاني) أمكنك أن تحطم الفونيم لتصل إلى ما هو أصغر منه أو أبسط، وهو الألوфон Allophone. وكما حلل علماء الفيزياء النووية الذرة، فوجدوا فيها كهارب موجبة، وأخرى سالبة، وثالثة تخلو من الإيجاب والسلب فقد وجد علماء اللغة أن الفونيم يتضمن عنصراً خالياً من السلب والإيجاب، ولا أثر له في تحديد المعنى فسموه الألوфон.

ولتوضيح معنى الفونيم نستعين علمي الدلالة والتجويد، وعدم الأصوات. فنقول: إن النون واللام والقاف في: نام، ولام، وقام، فونيم مستقل، لأن هذه الأصوات تحدد معاني الألفاظ حينما تتصل بما بعدها. غير أن فونيم النون قد يتغير نطقه في مجموعة من الألفاظ والجمل، ويبقى فونيماً واحداً.

(٣) المورد، مير البعلبكي ص ٦٨٢.

(٤) معجم علم اللغة الطري، محمد علي الخوي ص ٢٠٩ مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٢ م.

فأنت تدغم النون في نحو : إن نام ، وتخفيها في نحو من شاء ، وتغنها في نحو : لن يفعل ، ومع أن علم التجويد يميز بين هذه الصور يبقى صوت النون فونيماً واحداً ، ولكنه يضيف إليه صوراً أخرى ، منها الصوت الهوي المفخم في نحو : ينقم ، والغاري المكروور في نحو : إن رحلت ، والطبقي في نحو : ينكت . ويقول علم الأصوات : إن النون على اختلاف مخرجها في هذه الصور المتعددة فونيم واحد ، وهي في الوقت نفسه ألفونات متعددة .

ولتمييز الألفون من الفونيم نلاحظ أن صوت الثاء في : ثالث فونيم . أما تغير النطق الذي أصاب هذا الفونيم في اللهجات العامية ، فجعله تاء أو سيناً (تالت ، سالس) فإنه لم يحوله إلى فونيمين جديدين ، بل ولد منه ألفونين آخرين . فالثاء فونيم ، وكل صوت ينجم عنه بعوامل التغير اللهجي ألفون . ولا يعني هذا أن الألفون لا ينجم إلا عن التغير اللهجي ، فإن كل صورة لفظية يتجلى فيها الفونيم على نحو مغاير للأصل يعد ألفوناً له ، كصور النون التي عرضناها قبل . وإذا كنت في الثاء مختاراً تنطقها سيناً أو تاء محاكاة للعامية المتبعة في مجتمعك فإن لبعض الألفونات سمة الجبر كالنونات اللهوية والغارية والطبقية . ويأتي الجبر من تجاوز الأصوات ، فإن تجاوزها يحدد طريقة النطق^(٥) .

ولم يجمع الباحثون العرب على جعل الفونيم أساساً للتحليل النغوي الصوتي ، إذ فضل بعضهم العدول عنه إلى الحرف ، فقال : « في إمكاننا نحن أن نطلق عليه اسم (حرف) مقصوداً به الرمز الكتابي ، ونعمل بذلك على التفريق بين الاصطلاحين : صوت ، وحرف . فالصوت هو ذلك الذي نسمعه ونحسه . أما الحرف فهو الرمز الكتابي الذي يتخذ وسيلة متطورة للتعبير عن صوت معين أو مجموعة من الأصوات ، لا يؤدي تبادلها في الكلمة إلى اختلاف في المعنى »^(٦) .

وتقبله آخرون ، ورأوا أن له فوائد عملية جمّة . أبرزها أنه يُعين الكاتب والقارئ على دقة التواصل ، إذ يساعد على جعل الكتابة والقراءة في غاية الإتقان بما يضيفه من رموز ألفونية إلى المورفيمات المرسومة . وبذلك تتجنب مزالق السقوط في النطق غير الصحيح . وفي أواخر سنة ١٩٩٦م ظهرت مصاحف . اتبع طابعوها أسلوباً يشبه هذا الأسلوب لمساعدة القراء المبتدئين على إتقان أحكام التجويد من إظهار وإخفاء وقلقلة ومدّ ، غير أن القراء المجوّدين لم يجدوا فيها ما يغني عن التلقي والمشاهدة ، لأن الأصل في قراءة القرآن السماع .

(٥) انظر لأصول ، د . تمام حساس ص ١١٧ الهجته المصرية العامة نكتات ١٩٨٢ م .

(٦) المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص ٨٣ — ٨٤ .

ثانياً — المقطع Syllable

من الفونيم ينتقل التشكيليون إلى المقطع . والمقطع « مجموعة من الأصوات المفردة ، تتألف من صوت طليق (صائت) معه صوت حبيس (صامت) أو أكثر »^(٧) . وتتميز المقطع من الفونيم يستطيع القارئ أن يفحص نسيج الكلام العربي ، فيرى أنه لا يمكن أن يكون كله من أصوات حبيسة صامته فحسب ، ولا من أصوات طليقة فحسب . فليس في كلامنا نحو : (بَشَّجْ ، جَحْجَحْ) ولا نحو (أَوْيْ) لاستحالة نطقها^(٨) .

إن المستعمل من الكلام تتعاقب فيه الأصوات الصائتة والصامته أي : الطليقة والحبيسة ، فيتألف حينئذ من مقاطع مثل : عودي ، ففي هذه الكلمة مقطعان : أولهما (عو) ، ويتألف من (ع) الحبيس و (و) الطليق ، والثاني (دي) ، ويتألف من (د) الحبيس ، و (ي) الطليق .

ولما كان الصائت أوضح في السمع من الصامت ، فقد جعلت الصوائت قمة الوضوح السمعي في بنية المقاطع ، وأحلت الصوامت مكانة ثانوية^(٩) . واستثنى بعض الباحثين أربعة الصوامت التالية (ل ، ن ، م ، ر) فجعلها في مرتبة متوسطة . وصنف بعض الباحثين الغربيين الأصوات كلها وفق وضوحها في السمع ، فجعلها ثمانية أقسام . أخفها أو أخفها المهموسة مثل (T, S, F) وأقواها الصوائت مثل (A, O, E)^(١٠) .

ويفضي بنا استقراء الكلام العربي إلى أنه ينطوي على خمسة أضرب من المقاطع ، نصل إليها من تحليل الجملة التالية : دنا من باب قصر . على النحو التالي [ح : رمز الحبيس ، ط : رمز الطليق] :

١ — دنا	د = ح + ط قصير	واسم هذا المقطع قصير مفتوح .
٢ — نا	نا = ح + ط طويل	اسمه متوسط مفتوح .
٣ — من	من = ح + ط قصير	اسمه متوسط معلق .
٤ — باب	باب = ح + ط طويل + ح	اسمه طويل مغلق .
٥ — قصر	قصر = ح + ط قصير + ح + ح	اسمه طويل مضاعف الإغلاق .

(٧) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص ٢٥٤ .

(٨) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص ٢٥٤ .

(٩) انظر الأصوات اللغوية ، د . إبراهيم أبيس ص ١٦١ مكتبة الأمل المصرية سنة ١٩٧١ م .

(١٠) هذا التصنيف من صيغة جسر Jensen [ت : ١٩٤٣ م] انظر دراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر ص ٢٤٤ عالم الكتب القاهرة ١٩٧٦ م .

والمقاطع الثلاثة الأولى كثيرة الشيوخ، والرابع قليل، والخامس لا تنظر به إلا في الوقف^(١١).

وإذا كان التشكيليون قد تبناوا المقطع، وجعلوه وسيلة من وسائل التحليل والتشكيل، فإنه ليس ظاهرة مبتكرة ابتدعوها. «فالأكاديون كانوا يرمزون إلى كل أصوات المقطع الواحد برمز واحد في كتابتهم المسمارية»^(١٢). فلما تهادوا إلى الأبجدية أفلعوا عن الرسم المقطعي. وعلمائنا العرب أدركوا قبل الغربيين بعشرة قرون على الأقل بنية المقطع الصوتي، ومازوه من الحرف. ألم به أبو النصر محمد الفارابي [ت: ٣٣٩ هـ]، ثم جاء أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد [ت: ٥٩٥ هـ] فكان أوضح ممن سبقه فهماً وإفهاماً للمقطع الصوتي، وجاوز الإدراك إلى الابتكار إذ وضع له المصطلح الدال عليه وهو المقطع^(١٣).

ثالثاً — النبر Stress

تتصل بالمقطع ظاهرة صوتية أخرى يسميها علم الصوت التشكيلي (النبر). ويعرف النبر بأنه «نشاط فجائي يعتري أعضاء النطق في أثناء التلفظ بمقطع من مقاطع الكلمة»^(١٤) ينجم عنه وضوح في الأداء.

وهذا النشاط العضوي يمكن تعقبه من الحجاب الحاجز إلى الشفتين. فالحجاب يضغط الرئتين ليقذف من هوائهما مقداراً أعظم مما يقذفه في نطق المقاطع الأخرى. فإذا بلغت الدفقة الهوائية الوترين، وكان الصوت مجهوراً قوي اهتزازهما، وإذا كان مهموساً تباعد الوتران أكثر مما هو مألوف، وحدث انفجار أو احتكاك أشد من المعهود. وتستطيع أن تلاحظ هذا النشاط إذا راقبت الأعضاء المساعدة على النطق بـ«الناطق»^(١٥).

وإذا كان النبر لا يؤثر في تغيير معاني الألفاظ العربية فهو في بعض اللغات الأجنبية عامل من عوامل التغيير المعنوي. إن تغيير موضع النبر في الكلمة الإنكليزية قد ينقلها من زمرة

(١١) انظر الأصوات الدعوية، د. إبراهيم أنيس ص ١٦٥.

(١٢) الوحي في فقه اللغة، محمد الأطاكي ص ٢٥٦.

(١٣) انظر التفكير السامي في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدي ص ٢٦٠ وما بعدها تونس ١٩٨١ م.

(١٥) انظر الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس ص ١٧٠.

الأسماء إلى زمرة الأفعال ، فإذا قصرت صوت (o) من كلمة Report كانت اسماً بمعنى تقرير ، وإن أطلته أصبحت فعلاً بمعنى يقدم تقريراً^(١٦) ، ولذلك يعد النبر في هذه اللغة وأمثالها فونيماً دلاليّاً هاماً .

وليس في الدراسات العربية اللغوية — على غناها — ما يدل بصورة قاطعة على أن علماءنا الأقدمين درسوا النبر ، أو حملوه شيئاً من الدلالة المعنوية ، لكننا لا نستبعد أن تكون قراءة القرآن الكريم قد نظرت إليه بعين العناية من الناحية الصوتية ، وإن لم ينظر إليه النحاة والصرفيون بعين المعنى . ولهذا فمن الإسراف أو الإجحاف أن يقول بعض المستشرقين : « نبر الكلمة فكرة مجهولة تماماً لدى النحاة العرب ، بل لن نجد له اسماً في سائر مصطلحاتهم »^(١٧) .

وأيّاً كان موقف المستشرقين من النبر في اللغة العربية ، فالثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره أن قراءة القرآن توزع النبر على الألفاظ تبعاً لعدد المقاطع في كل لفظ . فاللفظ الأحادي المقطع (قُلْ) منبور بلا خلاف ، والثنائي المقطع (سيرا) ينبر مقطعه الأول ، والثلاثي المقاطع (تعالى) ينبر مقطعه الأوسط^(١٨) . ولو أقيمت دراسة النبر على قواعد يجمع عليها الباحثون العرب لأوغدنا في دراسة النبر ، وحددنا نبر الألفاظ المختلفة المقاطع ، لكن قواعدهم لما تزل تقريبية لاقطعية ، ولذلك اجتزأنا باليسير المغني عن الكثير .

رابعاً — التنغيم Intonation

إذا انتقلت من النبر الذي يعرف بعض الكسمة لتصغي إلى إيقاع الكلمات المنسوقة في عبارة تامة ، وأحسست أن تناغماً خاصاً ينتظمها ، فقد وقفت على ماتسميه الصوتيات الحديثة (التنغيم) . وجوهر التنغيم أن يعطي المتكلم العبارة نغمات معينة ، تنجم نفسياً عن عاطفة يحسّها ، وفكرياً عن معنى يعتلج في ذهنه . وعضوياً عن تغير في عدد الهزات التي تسري في وترى الحنجرة ، فيزيد الاهتزاز أو ينقص وفق الغرض الذي يتوجه إليه الكلام . ولقد رأى محمد الأنطاكي ، كما رأى أكثر الدارسين المحدثين ، أن الإيقاع في العربية

(١٦) المورد ، مير البعسكي . وغيره من المعاجم التي تعنى بالصق والسر .

(١٧) العربية الفصحى ، هري فيش ص ٤٩ تعريب د . عبد الصور شاهين بيروت ١٩٨٣ م .

(١٨) درج الباحثون على العدّ المعكوس ، أي : على ابتداء من اليسار فالأول عندهم من تعالى (ن) ، وثاني (عا) ، والثالث (ت) . وآثرنا العدّ من اليمين إلى اليسار لثلاث سبب القارىء

« من الجوانب التي لا تزال تنتظر من يقوم بدراسة جدية معتمدة على استقراء واسع للنصوص العربية »^(١٩). وذهب غيره المذهب نفسه حين لاحظ أن التنغيم لم يحظ من أجدادنا بالبحث المستفيض^(٢٠). وخالفهما بعض المخالفة أستاذنا سعيد الأفغاني رحمه الله، إذ وقع على نصر في الخصائص يدل على أن ابن جني [ت : ٣٩٢ هـ] كان يدرك تأثير التنغيم في تحويل العبارة الواحدة من معنى إلى معنى، أو من أسلوب إلى أسلوب، كأن ينقل العبارة من التعجب إلى الاستفهام، قال: « ترد الجملة عن العرب، فيجعلها بعضهم تقريراً، وبعضهم استفهاماً حذفت أدواته، وبعضهم استفهاماً أريد به الإنكار والتهكم... ولو ورد مع النصر حال المتكلم لانقطع الخلاف. وما أظنه يريد بحال المتكلم إلا طريقة التنغيم وأسلوب الأداء »^(٢١).

وإن أردت أن تسوّغ صنيع القدماء فقل: إنهم لم يغفلوا عن التنغيم، بل عقوبه وأغفلوه، أو لم يولوه حقه من العناية، كأنهم كانوا يعتقدون أنه مما يُدرك بالحس، وما يُدرك بالحس لا يحتاج إلى درس.

ومثل هذا التسويغ يبدو مرفوضاً في نظر المحدثين. لأن معظم اللغات تنغيمية. للتنغيم فيها وظائف نحوية: فنغمة تعني التوكيد، وأخرى ترمي إلى التهديد، وثالثة تُفصح عن التعجب، ورابعة تستفهم. هذه الأغراض كلها موصولة بالنسب بالصعود والانخفاض في النغم واللين والاشتداد.

ومن أكثر الباحثين المحدثين احتمالاً: أن الدكتور تمام حسان الذي دعا إلى دراسة التنغيم ضمن الأطر الأربعة التالية: شكل النغمة صعوداً أو هبوطاً أو استواء، والمدى الفاصل بين أعلى النغمات وأدناها، واللحن الناحم عن مجموع النغمات، والميزان الذي هو محصلة المدى واللحن. وحينما درس تنغيم العربية ضمن هذه الأطر وصل إلى أن في الكلام العربي ستة موازين يضبط بها التنغيم:

أولها إيجائي هابط، يتجلى في تأكيد الإثبات، وتأكيد الاستفهام بغير هل والهمزة.

وثانيها إيجائي صاعد، يتمثل في تأكيد الاستفهام بالهمزة وهل.

وثالثها نسبي هابط يتبدى في الإثبات بلا تأكيد.

ورابعها نسبي صاعد، تلحظه في الاستفهام بغير أداة، أو بالهمزة وهل.

(١٩) أبو حيز في فقه اللغة، محمد الأساكي ص ٢٦٨.

(٢٠) التفكير اللساني، د. عبد السلام المسدي ص ٢٦٦.

(٢١) في أصول النحو، سعيد الأفغاني ص ٩٣ — ٩٤.

والخامس سلبي هابط ، ويستعمل في التأسف والإشفاق وإلقاء التحية .
والسادس سلبي صاعد ، يتردد صده في التمني واللوم والرجاء^(٢٢) .

ونحن ، على إعجابنا ، باستقصاء الباحث ودقته في الاستقراء والاستنباط نتساءل : ألا يمكن أن تكون هذه الموازين متأثرة بطريقة من طرق الأداء ؟ صحيح أن الفروق التنغيمية في الأداء تتجلى في اللهجات العامية المتعددة ، لا في الفصحى الموحدة ، غير أننا لا نعتقد أن فصحي عُمان تؤدي بتنغيم وهران ، وأن لحون الحشرات والحزن في الأداء السوري للفصحي كلحونها في الفصحى الليبية . ولهذا نُعتت هذه الموازين نوعاً متفاوتة ، فقليل : إنها ابتدائية محدودة^(٢٣) ، وقليل : إنها رائدة مبتكرة^(٢٤) .

خامساً — النسيج اللغوية وأنظمة التشكيل الصوتي

لا يقف علم الأصوات التشكيلي عند مرحلة التحليل ، بل يجاوزها إلى التشكيل . فبعد أن يدرس الفونيمات والمقاطع ، ويتعرف النبر والتنغيم يحاول الكشف عن النظم التي تتبعها كل لغة في نسيج الكلام من الأصوات . ومن المعروف أن اللغة لا تعيش على ألسن الناس عناصر صوتية مبعثرة ، بل كلاماً حياً ، تأتلف عناصره في كل لغة من اللغات وفق نواميسها الصوتية الخاصة بها . فما اتلف من العناصر الصوتية أخذ ، وما اختلف بُد ، والمأخوذ تتشكل منه نسيج الألفاظ ، والمنسود يبقى أمشاجاً مقطعة غير مستعملة ، كما تُلقى نكاثه الخيوط غير الصالحة للنسيج .

ولا يفهم من توفر الغربيين على دراسة علم الأصوات التشكيلي أن قدماءنا غفلوا عن هذا العلم أو هُونوا من شأنه . لقد درسوا جواب هامة منه ، غير أن دراستهم افتقرت إلى الوسائل العلمية الإحصائية ، وعلى رأسها الحاسوب (الكمبيوتر) . ولذلك تمحضت دراستهم عن نتائج تعوزها الدقة لا الصحة . وأبرز موضوعاتهم : كثرة أصواتٍ وندرة أخرى في نسيج الكلمات ، وتنافر الأصوات وتجاورها ، وأنظمة النسيج وفق المخارج .

آ — أكثر الأصوات وأقلها في نسيج الكلمات : حينما بسط الخليل بن أحمد [ت : ١٧٥هـ] بين يديه نسيج العربية ليصنع منه معجم العين تبين له أن الأصوات —

(٢٢) مباحث البحث ، د . تمام حسام ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢٣) اوجير في فقه اللغة ، محمد الأنصاري ص ٢٥٣ .

(٢٤) مبادئ السابيات ، د . أحمد محمد قدور ص ١٢٣ .

وهي لحمة اللغة وسداها — ليست سواء في مقدار ما يدخل منها في هذا النسيج ، إذ يندر بعضها فلا يخالط إلا ألفاظاً يسيرة ، ويكثر بعضها حتى يخالط أكثر الألفاظ . وبعد مقارنة أكثرها شيوعاً بأقلها ظهر أن أشيعها أصوات الذلاقة ، وهي عند الخليل (ل ، ن ، ر ، ف ، ب ، م) . وأن ما بقي من الأصوات — واسمها عنده على اختلاف مخارجها الحروف الصتم أو حروف الإصمات — أقل تداولاً واستعمالاً^(٢٥) .

ومع أن تقسيم الخليل غير دقيق فقد وافقه عليه بعض المشتغلين بقراءة القرآن ، فذكر أن المصممة اثنان وعشرون وأن المذلفة هي الستة التي ذكرها الخليل^(٢٦) . وإذا التمسنا لل خليل تأويلاً يسوّغ ما ذهب إليه قلنا : إن الخليل — وهو من أعلم الناس بالأصوات — لا يجهل أن الأصوات الذلقية التي ذكرها تشتمل على ثلاثة شفوية ، وهي : الفاء والباء والميم ، ولكنه لم يرد بالذلاقة خروج الصوت من أسلة اللسان أو ذلقه ، وإنما أراد بالذلاقة الرشاقة والطلاقة في النطق . فهذه الأصوات الستة أيسر نطقاً من أصوات الحلق ، وأصوات الطبق . وإذا احتكمتنا إلى القواعد الصوتية في لغات العالم كافة قلنا : إن أشيع الأصوات أيسرها نطقاً ، ولذلك شاعت هذه الأصوات ، وخمدت أصوات أخرى كالثاء والظاء والحاء والذال ، أو أصابها ، في اللهجات العامية على الأقل ، تغيير يزحف بمخارجها نحو السهولة .

وإذا احتكمتنا إلى القواعد الصوتية نفسها وأخذنا بإيثار السهولة على الصعوبة صدقنا النتيجة التي خرج بها الخليل ، وهي أن الألفاظ الرباعية والخماسية مثل خرنق وسفرجل لا تخبو أبنيتها من صوت أو أكثر من أصوات الذلاقة ، لأن هذه الأصوات كالراء والنون في خرنق ، والراء واللام في سفرجل تيسر العسير وتخفف ثقل الأصوات الأخرى كالحاء والقاف والجيم ، ولهذا يندر خلو الألفاظ الرباعية والخماسية من رشاقة هذه الأصوات .

لقد صدق حسن الخليل ، وبرهنت على صدقه نتائج الدراسات الإحصائية التي أجراها الحيسوب إذ أثبتت أن لأصوات الذلاقة السيادة في نسيج الألفاظ العربية ، تليها العين والقاف^(٢٧) .

وهذه النتائج ليست في حاجة إلى حيسوب . فلو استعرضت لسان العرب في طبعته

(٢٥) انظر مقدمة معجم العبر لل خليل .

(٢٦) انظر الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي س أي طالب ص ١١١ تح أحمد حسن فرحات دار الكتب العربية دمشق ١٩٧٣ م .

(٢٧) انظر ماديء المسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص ١٢٩ .

الحديثة^(٢٨) لوجدت أن للألفاظ التي تنتهي أصولها بصوت الراء مجداً ونصف مجد . وقريبٌ منها الألفاظ التي تنتهي أصولها بالميم والقاف ، فللمنتهيات بالميم مجلد كامل ، وللمنتهيات بالقاف مجلد آخر . فإذا نظرت في الألفاظ الأخرى التي تنتهي بالصاد والضاد والطاء والظاء وجدتُها جميعاً في مجلد واحد . ولك في ديوان المتنبي — وهو أربعة مجلدات — دليل آخر : فالمجلد الثالث كله مخصص لقوافي الشاعر اللامية الروي ، وأربعة أخماس الرابع لما نظمته على الميم والنون .

وهكذا يتبين لك أن الأصوات التي سماها الخليل أحرف الذلاقة هي أشيع الأصوات العربية في أبنية الألفاظ العربية .

ب — الأصوات المتأخية والمتعادية في النسيج المقطعي : في كلامنا على المقاطع العربية تبين لك أنه يستحيل صنع الألفاظ من أصوات كلها صامتة ، فلا يقال نحو (رَرْسُشْ) أو من أصوات كلها صائتة نحو (أَيُّ وَ) . فلا بد إذن من تناوب هذه وتلك . أدرك علماءنا هذه القاعدة الصوتية بالحسّ السليم ، وأدركوا كذلك أنه يتعذر أو يقبح صنع المقاطع من أصوات متقاربة المخارج ، لأن اللسان يستصعب التنقل بين المخارج المتقاربة كالسين والصاد ، والقاف والكاف . قال ابن جني [ت : ٣٩٢ هـ] : « فمن ذلك ما رفض استعماله لتقارب حروفه (أصواته) نحو : سصر وصسر . وطط وتط ، وصش وشص ، لنفور الحس منه ، والمشقة على النفس لتكلفه . وكذلك قج وجق ، وكق وقك »^(٢٩) .

نستطيع أن نخلص من كلام ابن جني إلى نظام في النسيج أو قاعدة تقول : إذا تقاربت الأصوات أو اتحدت في المخارج تعثكت ، فلم تنسج منها المقاطع . وإذا اختلفت مخارجها اختلفت فنسجت منها المقاطع والكلمات ، فأنت تستقبح أن تقول سصر ، أو عح لأن مخرجي الأول اللثة والأسنان ، ولأن مخرجي الثاني الحلق . لكك إذا أخذت صوتاً من اللثة وآخر من الحلق وجدت في نطقهما معاً راحة ، فتقول بلا عنت ولا مشقة : صح ، عس .

وتطبيقاً لهذه القاعدة الصوتية رأى علماء البلاغة أن من شروط الفصاحة في الكلمة أن تتباعد مخارج الأصوات التي تشكلها . فليس من الفصاحة إذن أن يقول امرؤ القيس في شعر صاحبتة : (غدائرها مستشرزات)^(٣٠) ، أو أن يقول أعرابي سئل عن ناقته : « تركتها

(٢٨) الطبعة التي أشرنا إليها هي صبعة صادر سنانية ، ولسان العرب مورع فيها على خمسة عشر مجلداً .

(٢٩) احصائصر لأبي حي ٥٤١ .

(٣٠) من بيت امرئ القيس :

غدائرها مستشرزات إلى العـلا تصل العفـاص في متـى ومـرسل

ديوانه ص ٤٤ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٦ .

ترعى الهعخع» (٣١).

ومن هذا الباب أيضاً أن الخليل استبعد من تقاليبه التي بنى عليها المعجم ما لم تقله العرب، وأكثره من هذا النمط المتقارب أو المتراكب المخارج. فقد استبعد في أول العين أربعة الألفاظ التالية (قهع، قعه، عقه، هعق)، لأن الحنجرة العربية والأذن العربية كلتيهما لا تسيغانها نطقاً ووقعاً.

ومنه كذلك الموازين التي احتكم إليها أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي [ت: ٥٤٠هـ] في تمييزه الأصل من الدخيل. وهي موازين مستنبطة من التشكيل الصوتي اللغوي لكلام العرب، إذ أفضى به الاستقرار إلى أنه لا يجتمع في أصول كلمة عربية صوتا الجيم والقاف، وصوتا الصاد والجيم، وأنه ليس في أبنية العرب راء بعد نون، وزاي بعد دال. فأما الجص والصنجة والنجس والمهندز فمن الدخيل المعرب (٣٢).

ج — أنظمة النسخ وفق المخارج: من دراسة الأصوات والمقاطع ينتقل عدم الأصوات التشكيلي إلى أبنية الألفاظ بغية الكشف عن الطرائق المتبعة في نسخها، وعن صلة هذه الطرائق أو الأنظمة بمخارج الأصوات. ولما كانت المخارج العربية أقرب إلى أسماعنا فقد قصرنا الحديث على الأصوات العربية، وأنظمة النسخ في ألفاظها.

من المتقدمين الذين عُتوا بنسخ الألفاظ وفق المخارج بهاء الدين أحمد بن علي السبكي [ت: ٧٦٣هـ] فقد قسم مخارج الحروف في مدرجها ثلاثة أقسام: أعلاها الحلق، وأوسطها الفم، وأدناها الشفنان. ولعله اختار أن يجعلها ثلاثة لا أربعة ولا اثنين ليكون تقسيم المدرج الصوتي موازياً للجذور الثلاثية في أكثر الألفاظ العربية. ثم راح يضرب أصول الألفاظ الثلاثية على أقسام المدرج الثلاثة، فوجد على سبيل المثال أن الفعل (بُعَدَ) تتعاقب أصواته وهي الباء الشفوية، والعين الحلقية، والدال الخارجة من الفم على النحو التالي: الأدنى فالأعلى فالأوسط. فلما قلب هذه الجذور فقال: بدع، عبد، دعب... توصل إلى أشكال عديدة من النسخ.

ثم قاس السبكي هذه الأشكال بمقياس إحصائي، وهو مقياس الكثرة والقلة، وذهب إلى أن أفصح الأشكال أكثرها شيوعاً في الكلام العربي، وأبعدها عن الفصاحة أقلها أفراداً، فقال: «أحسن التراكيب وأكثرها استعمالاً ما انحدر فيه من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى،

(٣١) المرهر للسيوطي ١/١٨٥.

(٣٢) المعرب للجواليقي ص ١٠٠ تح د. ف عبد الرحيم دار الفهم دمشق ١٩٩٠ م.

ثم ما انتقل فيه من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى ، ثم من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط » (٣٣) . ومثال الشكل الأول : (عدم) ، ومثال الثاني (دمع) ، ومثال الثالث (عمد) .

وبعد مقارنة هذه الأشكال بما يقابلها من دراسات إحصائية تبين « أن هناك تطابقاً بين استحسان السبكي للشكل الأول وورود هذا الشكل أولاً في الإحصاءات » (٣٤) أما الأشكال الأخرى التي استحسناها السبكي أو استقبلناها فقد جاءت نتائجها مقارنة لنتائج الإحصاء الحديث . ومن المتوقع أن يقع الاختلاف ، فالسبكي يدرس بالحس والتخمين ، والمحدثون يدرسون بالحسوب . غير أن الاختلاف في النتائج لا يقلل من قيمة السبكي وأمثاله ، لأن المنهج الذي انتهجه السبكي منهج علمي . وحسبه أن يوفق في المبدأ ، وإن لم يوفق في النتيجة لافتقاره إلى الوسائل الإحصائية الدقيقة .

خاتمة البحث في الجانب الصوتي :

بعد أن وقفت على تاريخ الدراسات الصوتية ومناهجها ومباحثها عند الهنود واليونان ، ثم عند العرب ، ثم على تطورها عند الغربيين في العصر الحديث تستطيع أن توازن ما أنجزه العرب في الجانب الصوتي بما أنجزه الغرب . وسوف يتبين لك مدى التقدم الذي أحرزه العرب في المناهج والنتائج على السواء .

فاتباعهم المنهج الوصفي نزع الدراسات اللغوية من إसार الفلسفة والمنطق ، وطبع دراستهم بالطابع العلمي . ودراساتهم لأعضاء النطق ومخارج الأصوات عرّفتهم طبيعة الأصوات ، وهي العناصر الصغرى التي تتألف منها اللغة . وإلمامهم بالمقاطع والتنغيم وباتلاف الأصوات واختلافها مكنهم من الإحاطة بكثير من المسائل التي عالجها علم الأصوات التشكيلي ، فأفادوا من دراسة المخارج في دراسة الأنظمة التي تنسج الألفاظ على منوالها ، واستطاعوا أن يميزوا جميلها من القبيح على أساس الكثرة والقلة والاستعمال والإهمال ، وهو الأساس المتبع في الإحصاء الحديث . وقاربت أحكامهم المبنية على الحدس الصادق والتخمين الراجح الدراسات الحديثة ، وما فيها من دقة مشفوعة بالأحكام بالأرقام .

(٣٣) المزهر للسيوطي ١٩٧/١ - ١٩٨ .

(٣٤) مبادئ اللسانيات ، د. أحمد محمد قدور ص ١٢٧

الباب الخامس

الجنب الصرفي

الجانب الصرفي في الدراسات اللغوية

أولاً — مقدمة ومصطلحات

إذا كانت الدراسات الصوتية التي عرضنا أهم مباحثها قد عرفت علماء اللغة العناصر الصغيرة التي تتألف منها اللغة فإن هذه المعرفة لم تكن مقصودة لذاتها، بل كانت وسيلة لغيرها، لأنها نثرت بين أيدينا أصوات اللغة ومقاطعها ذرات مفككة، ولم تعرضها علينا ألفاظاً مركبة ذوات صيغ تنتظمها، كالأبنية التي يعرضها عينا ما يسميه الأقدمون علم الصرف، وما يسميه المحدثون المورفولوجيا Morphology. ولم تعرضها جملاً مؤلفة وفق قوانين تبين صلة بعضها ببعض مما يسميه الأقدمون علم النحو، ويسميه المحدثون الغرييون Syntax. ولهذا لم يكن بد من عقد باين آخرين لإكمال ما بدأنا به: باب ندرس فيه بنى الألفاظ كما يُعَدُّ البناء الحجارة ويسويها، وباب ندرس فيه ترابط الألفاظ كما يدرس المهندس الصرح المشيد ليكتشف الأسس العلمية والفنية التي اعتمد عليها مصمم الصرح وبانيه. وقبل أن نلج الباب الأول نعرض المصطلحات التي تواضع العلماء على استعمالها في علم المورفولوجيا، وأهمها:

١ — المورفولوجيا: هو علم يتناول الناحية الشكلية للصيغ وعلاقتها التصريفية والاشتقاقية، وما يتصل بصوغها من إضافة ملحقات في أولها، وتسمى صدوراً، وفي أثنائها، وتسمى أحشاء، وفي آخرها، وتسمى أعجازاً. ويقابل المورفولوجيا في العربية علم الصرف^(١). وهو «علم بأصول، يعرف بها أحوال أبنية الكلمة التي ليست بإعراب»^(٢).

(١) علم اللغة وفقه اللغة، د. عبد العزيز مطر ص ٦٣.

(٢) التعريفات للحرثاني ص ٣٢ الدار التونسية للنشر ١٩٧١ م.

٢ — اللغة التركيبية Synthetic : هي التي « تجمع عدة معان في كلمة واحدة »^(٣) .
ومن هذا النمط لغتنا العربية . ففي قولك : سنكتب ، دللت على المستقبل والمتكلمين الذين
سيقومون بالكتابة ، وعلى فعل الكتابة وزمانه بكلمة واحدة اتصلت بها في أولها سابقتان :
السين والنون .

٣ — اللغة التحليلية Analytical : « هي اللغة التي تعبر عن المعاني المنفصلة
بكلمات يمكن أن تستعمل مستقلة »^(٤) . ومن هذا الضرب اللغة الإنكليزية ، إذ تعبر بوضع
كلمات عن (سنكتب) وهي : We Will Write .

٤ — المورفيم Morpheme : عرفنا المورفيم في حديثنا عن البنيوية ، ونزيده توضيحاً ،
فنقول : « المورفيمات ألفاظ تدل على المعاني الرابطة بين الماهيات »^(٥) . والمورفيم الواحد
يسمى « وحدة صرفية »^(٦) ، ومثاله سين الاستقبال في العربية ونون نكتب وألف اسم الفاعل
كاتب .

٥ — الصدور أو السوابق Prefixes : هي المورفيمات التي تلصق ببدايات
الألفاظ . ومثالها (UN) الدالة على النفي في الإنكليزية ، في نحو Unable وهمزة التعدية في
العربية نحو : أكرم .

٦ — الأحشاء (الأثناء) Infixes : هي المورفيمات التي تتوسط حشو الكلمة .
وقد تكون تغييراً في الأصوات مثل : Foot-Feet أو زيادة مثل : Red-Read أو حذفاً من
الحشو مع زيادة في العجز Sleep-Slept .

٧ — الأعجاز أو اللواحق Suffixes : هي المورفيمات التي تلحق أواخر الكلمات
مثل : (Ren) و (S) وكتاهما تفيد الجمع في نحو : Children و Boys . هذه أهم
المصطلحات ، والأخرى تشرح حيناً ترد في البحث .

ثانياً — استقلال الصرف عن النحو عند العرب

يخطيء من يتصور أن النحو العربي استلحق الصرف به أو استردفه ليكون تابعاً له .

(٣) أسس علم اللغة ، ماريوناي ص ١٥١ .

(٤) المصدر السابق ص ١٥١ .

(٥) الوحيز في فقه اللغة ، محمد الأطاكي ص ٢٩٣ .

(٦) المدخل إلى علم اللغة ، د . محمود فهمي حجازي ص ٥٦ .

فالعلماء صدرا عن مشكاة واحدة هي اللغة العربية ، وهدفا إلى هدف واحد هو حماية القرآن من اللحن ، وكما يقع الخطأ في حركات الإعراب يقع في أبنية الألفاظ ومخارج الحروف ، ولهذا لم يكن بدّ من ظهور العلمين في وقت واحد لتحقيق غرض واحد .

ومن الأدلة على أن العلمين كانا فرسي رهان ، وأنهما سارا في قرن واحد ، وأن كلا منهما كانت له مكانته كتاب سيوييه . فالقسم الأعظم من جزئه الثاني جاء وفقاً على الصرف ، ومنها أن هذين العلمين ظهرا معاً في الكوفة في بداية النهضة الفكرية الكوفية ، فحمل لواء النحو أبو جعفر محمد بن علي الرّؤاسي [ت : ١٨٧ هـ] وحمل لواء الصرف معاذ بن مسلم الهراء [ت : ١٨٧ هـ] . « وكان علمُ معاذ بالصرف مثل علم الرّؤاسي في النحو ، كان محدوداً لا غناء فيه »^(٧) . وإلى معاذ هذا — على ضؤولة علمه — ينسب الفضل في تمييز الصرف من النحو ، ووضع الأسس الأولى لهذا العلم .

وهبك صدقت ما قيل من تجريح معاذ ، ففيت قدرته على تمييز الصرف من النحو ، فهل تستطيع أن تنفي القدرة نفسها عن أبي عثمان بكر بن علي المازني [ت : ٢٤٩ هـ] صاحب كتاب التصريف الذي شرحه ابن جني في (المصنف) ؟ إن وصول هذا الكتاب إلينا دليل قاطع على نضج الصرف ، وعلى أنه تم « انفصال الصرف عن النحو »^(٨) منذ بداية القرن الثالث الهجري على أقل تقدير .

ولم يكن انفصال الصرف عن النحو انفصلاً اعتباطياً لا مسوغ له ، بل جاء تعبيراً عن إدراك الأوائل لطبيعة كل علم . قال ابن جني : « التصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلام الثابتة . والنحو إنما هو معرفة أحواله المتنقلة »^(٩) . ولا أعرف عالماً فرق بينهما بمثل هذا الكلام الموجز الدقيق العميق .

وإذا ظهر بين علمائنا من يقدم النحو فقد ظهر بينهم من يقدم الصرف . قال أحمد ابن فارس [ت : ٣٩٥ هـ] : « وأما التصريف فإن من فاته علمه فاته الأعظم »^(١٠) ، وقال ابن عصفور علي بن مؤمن [ت : ٦٦٩ هـ] : « التصريف أشرف شطري العربية وأغمضهما »^(١١) . وليس تشريف التصريف بالإطراء والتعريف ، وإنما بما قدمه عماؤه . فما أبرز المباحث

(٧) المدارس النحوية ، د . شوقي صيف ص ١٥٤ در المعروف مصر ١٩٧٢ م .

(٨) البحث اللغوي عند العرب ، د . أحمد مختار عمر ص ١٢٧ . عام الكتب ١٩٨٨ م .

(٩) المصنف لابن حي ٢ ، ١ . تج : إبراهيم مصطفى مطبعة مصطفى الناني الحسي ١٩٦٠ م .

(١٠) صاحبي لاس فارس ص ٣١٠ .

(١١) الممتع لاس عصفور ص ٢٧/١ تج د . فخر الدين قنوة ، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٩ م .

الصرفية التي درسها علماء الصرف والمورفولوجيا عامة، وملاحظ علمائنا العرب من هذه المباحث؟

ثالثاً - مباحث الصرف

لو كان غرض هذا الكتاب أن يجتزى بما يحثه العرب من قضايا الصرف لوجد ضالته في التعريف المفصل الذي سرد ما عالج علماؤنا فقال: «علم الصرف هو أصول وقواعد تعرف بها أحوال بنية الكلمة: صيغها الأصلية والعارضة، وما يلابسها من تغير معنوي في مدلولها، مصدره البناء المحدث بالتصغير، أو بالنسبة، أو الثنية، أو الجمع، أو التأنيث في الأسماء، والتحويل إلى الماضي والمضارع والأمر في الأفعال، ومن تغير صوتي في بنيتها، مصدره الظواهر التصريفية كالتجريد، والزيادة والحذف، والإبدال، والإعلال، والإدغام، والقلب المكاني والإمالة، والتحريك والتسكين للابتداء، والوقف، والتخفيف والتثقيب» (١٢).

ولو انتهجنا هذا النهج لتحول بحثنا إلى كتيب من كتب الصرف. غير أن النهج الذي التزمناه هو الإفادة من المناهج والنتائج الحديثة لنوازن بها ما درسه علماؤنا، ولهذا اقتصرنا على المباحث اللغوية الصرفية العامة، ومنها:

١ - التحليل الصرفي ووحداته

التحليل في كل علم وفن يسير في اتجاه واحد أو يكاد يكون واحداً، وهو الانتقال من المركب إلى البسيط، ومن الكبير إلى الصغير، ومن الصغير إلى الأصغر. على هذا النحو حلل البنيويون، كما ذكرنا قبل، الجملة إلى كلمات، والكلمة إلى مورفيمات. فالمورفيمات عندهم هي الوحدات الصرفية الصغرى. لكن المورفيمات نفسها يمكن أن ترد إلى وحدات صرفية أصغر منها هي الفونيمات (الأصوات).

وإذا كان المورفيم هو الوحدة الصرفية فعلياً أن نميزه من السيمانتيم Semanteme وهو «الوحدة الدالة على معنى معجمي» (١٣). فإن قلت: المطر انهمر. فد (مطر) سيمانتيم و(ال) مورفيم التعريف. والانهمار في الفعل (انهمر) سيمانتيم، وصيغة الغائب التي نسبت لانهمار إلى المطر مورفيم. نخلص من هذه المقارنة إلى أن السيمانتيم جزء من علم الدلالة،

(١٢) تصريف الأسماء والأفعال، د. فخر الدين قباوة ص ١٣ حامعه حب ١٩٨١ م.

(١٣) اللغة، فندريس ص ١٠٥.

ويسمى عند بعض اللغويين الوحدة الدالة، أو الوحدة المعجمية Lexeme^(١٤) وأن المورفيم جزء من علم الصرف، ويسمى عند المحدثين الوحدة الصرفية. وإن شئت أن تجمع المصطلحين في مصطلح واحد يغنيك عنهما، فاجمعهما تحت مصطلح الوحدة الدالة Moneme كما يرى أندريه مارتينييه A. Martinet.

ولمارتينييه مذهب في التحليل الصرفي يسميه التقطيع المزدوج يحل على ضوءه الكلام إلى وحدات. فإن أراد أن يحلل جملة مثل: قلبي في حقيبتك قال: هي مؤلفة من خمس وحدات: قلم + ي + في + حقيبة + ك. تنطوي على نوعين من الوحدات أولهما الوحدات المعجمية (وفي الجملة منها اثنتان قلم وحقيبة). والثاني وحدات صرفية، (وفي الجملة منها ثلاث: ي + في + ك). والأولى تسمى مفتوحة لأنها قد تستعمل بدلالات أخرى، والثانية مغلقة لمحافظة على دلالتها حيثما وقعت. ويسمى مارتينييه هذا التحليل التقطيع الأولي.

أما المرحلة الثانية من التحليل المارتيني فتسمى التقطيع الثانوي، وتعني ردّ الوحدات المعجمية إلى وحدات صوتية، كرد قلم إلى ق + ل + م. ومارتينييه يرى أن هذا المستوى من التقطيع متوافر في جميع اللغات الإنسانية التي تمت دراستها حتى اليوم^(١٥).

ومن يتتبع اللسانيين يظفر بطرائق تحليلية أخرى، لكنها لا تضيف إلى ما ذكرنا جديداً له شأن، ولا تخالف ما عرضنا مخالفة تستحق العرض، بل تفارق طريقة مارتينييه في المصطلح والأسلوب، وتوافقها في الاتجاه. ومن هذه الطرائق طريقة كاتفورد Catford التي تنتقل في التحليل من الجملة إلى المورفيم على خمس مراحل. وطريقة نيدا Nida التي تمسك بعصا التحليل من وسطها، إذ تبدأ بالكلمة وتصعد إلى الجملة، ثم تهبط إلى المورفيم فالصوت^(١٦).

ومهما تبلغ حظوظ مارتينييه وكاتفورد ونيدا من الدقة، فكل ما يعيننا من تحليلاتهم اللسانية الصرفية هو أنها انصرفت عن الوحدة القديمة أي الكلمة Word واختارت وحدات جديدة أهمها اثنتان: الوحدة الدلالية Semanteme والوحدة الصرفية Morpheme.

ولما كانت الوحدة الصرفية أهم ما يهمننا ههنا فإن تحديدها يُعدُّ أمراً ضرورياً لفهم ما يذهب إليه اللسانيون. غير أن تحديدها بحدّ جامع مانع مطب عسير المنال، لأن واضعي هذا المصطلح من الغربيين وأتباعهم من العرب يختلفون في تعريف المورفيم أي اختلاف.

(١٤) مبادئ اللسانيات اعامة، مارتينييه ص ١٩ ترجمة أحمد الحمو وراة التعيم العاي دمشق ١٩٨٥ م.

(١٥) انظر المصدر السابق ص ٢٠ وما بعدها.

(١٦) علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر ص ٣١ وما بعدها. الكويت دار العروة ١٩٨٢ م.

فلنقتنع من الحدّ بالوصف المستنبط من الأقوال المختلفة، ولنقل: المورفيم هو الوحدة الصرفية الصغرى التي تحمل معنى حرفياً لا فكرياً، وتقوم بوظيفة نحوية لا دلالية، حينما تأخذ مكانها من التراكيب.

ولتوضيح هذا الوصف نقول: من المعاني الصرفية النسب الذي تعبر عنه الياء المشددة في نحو (عربيّ). ومنها المشاركة التي تدل عليها ألف (صارع). والتصغير والتأنيث اللذان تصنعهما ياء (بثينة) وتاءها. ومن الوظائف النحوية الجزم الذي تضطع به (لم) في: لم ينفق، والنصب الذي تقوم به (أن) في أحب أن أقرأ، والجر الذي تجريه (اللام) في لفظ الجلالة (الله). إن هذه الأصوات والمقاطع السبعة (ي، ا، ي، ة، لم، أن، ل) نموذجات للوحدة الصرفية (المورفيم).

ولعلك لاحظت أن المورفيم قد يكون مقطعاً مثل (لم) وقد يكون صوتاً واحداً كياء (بثينة)، وقد يكون أصغر من ذلك كالكسرة الدالة على اسم الفاعل في نحو (مكرم) وفتحة اسم المفعول في نحو (مكرم).

ولعلك لاحظت أيضاً أن المورفيمات قد تأتي منفصلة عن الوحدات الدلالية كمورفيمي النصب والجزم (لن، ولم)، وقد تلبس الوحدات الدلالية، فتلاصق أوائلها كأحرف (أنيت) الدالة على المضارعة (أكرم، يكرم، نكرم، تكرم) وتسمى حينئذ صدوراً Prefixes، أو تلاصق أواخرها كعلامات التثنية والجمع (خالد، خالدان، خالدون) فتسمى أعجازاً Suffixes أو تقتحم أوساطها كألف اسم الفاعل (كاتب) وواو اسم المفعول (مكتوب) وياء التصغير (دفيتر) فتسمى أحشاء Infixes.

ومن مقارنة العربية بالإنكليزية يتبين لنا أن اللسانيات لم تقنع على جديد مفيد حينما ابتكرت هذه المصطلحات، واعتمدت عليها في التحليل. إن الميزان الصرفي العربي سمي هذه المورفيمات أحرف الزيادة، وخصّ كل مورفيم بمعنى صرفي. غير أن السوابق واللواحق في الإنكليزية أظهر منها في العربية. والأحشاء في العربية أجلُّ قدرًا ومقدارًا من الأحشاء في الإنكليزية، لأن العربية تؤثر الاشتقاق على الإلصاق كما يكره العربي الولاء والتبني في النسب والاستلحاق. إن العربية تولد الألفاظ الفرعية من الأصول الثلاثية بصيها في قوالب صرفية، تسمى الأوزان أو الصيغ. وهي ذوات معان صرفية تكاد تكون ثابتة، فما هذه الصيغ وما معانيها الصرفية؟

٢ - الصيغ الصرفية

ذكرنا غير مرة أن العربية لغة اشتقاقية ولود، وتولّد الألفاظ فيها لا يتم على نحو

اعتباطي، وإنما وفق صيغ أو قوالب محددة. وأوزان تكاد تكون ثابتة لا يعرفوها شذوذ، فإن عراها كان شكيباً بسبب ما يطرأ على الألفاظ من عوارض صرفية كالإعلال والإبدال والإدغام.

« والصيغة هيئة صرفية، تكون علامة على وحدة معينة (مورفيم) كصيغة استفعال التي هي علامة الطلب^(١٧). أو هي « الهيئة التي ركبت فيها حروف الكلمة الأصلية والزائدة، والبناء الذي جمعت فيه، أو القلب الذي صُبت فيه هذه الحروف. وهو الذي يعطي الكلمة صورتها وشكلها، أو يجعل لها جرساً ووزناً معيناً، ويسمى البناء أو الون أو الصيغة^(١٨). »

فمن الجذر الثلاثي (علم) تستطيع أن تولد صيغة الفاعل (عالم) وصيغة المفعول (معلوم) والتفضيل (أعلم) وصيغ المبالغة (علام، وعليم، وعلامة). وعشرات الصيغ الاسمية والفعلية الأخرى بزيادة حرف (مورفيم) أو أكثر من أحرف الزيادة في كل قالب من القوالب الصرفية الثابتة. وتستطيع كذلك أن تولد من آلاف الجذور الثلاثية الصيغ الصرفية نفسها دالة على المعاني نفسها من فاعلية ومفعولية وتفضيل ومبالغة دلالات مطردة لا يعرفوها شذوذ ولا انحراف، ولا يتخلف منها شيء.

واختلف علماءنا في عدة الصيغ اختلافاً واسعاً. قال علي بن جعفر المعروف بابن القطاع [ت: ٥١٥ هـ]: «أول من ذكرها سيبويه في كتابه، فأورد للأسماء ثلاثمائة مثال وثمانية أمثلة... والذي انتهى إليه وسعنا، وبلغ جهدنا بعد البحث والاجتهاد، وجمع ما تفرق في تأليف الأئمة ألف مثال ومئتا مثال وعشرة أمثلة^(١٩). وهذا العدد موضع بحث وتحقيق. إذ شك في صحته مَنْ لا يُشك في إخلاصهم للعربية، وحموا التزديد أو المبالغة غير المتعمدة على التكرار والسهو، وافتقار الدراسات القديمة إلى آلات الإحصاء الدقيقة. فلنهمل العدد ولنجتزئ بالقول: إن الصيغ كثيرة^(٢٠). »

وهذه الصيغ تهب الألفاظ العربية تصنيفاً تصريفاً يختلف عن تصنيفها المعجمي ويمنح كل مجموعة متفقة في القوالب مختلفة في الأصوات معنى صرفياً واحداً، كأن تقول: لأسماء الآلات صيغ قياسية هي: مِفْعَال ومِفْععة ومِفْعَل. فمتى ظفرت بكلمة صُبت في قالب من هذه القوالب دلت في الغالب على آلة تعرف معناها من الأحرف الثلاثية الأصلية:

(١٧) علم اللغة وفقه اللغة، د. عبد العزيز مصر ص ٦٥.

(١٨) فقه اللغة وحصائص العربية، محمد اسارك ص ١١٢.

(١٩) المرمر للسيوطي ٤/٢.

(٢٠) انظر فقه اللغة د. صبحي الصالح ص ٣٣٠.

فالمنشأ آلة للنشر ، والمصفاة آلة للتصفية ، والمبرد آلة للبرد . وعلى هذا النحو تستطيع أن تلمح في المجموعات اللفظية المتفقة في الصيغ معاني صرفية عامة تضاف إلى دلالاتها المعجمية الخاصة .

تقول ، على سبيل المثال : ما جاء من المصادر على وزن (فَعْلان) يدل على حركة كالغليان ، وما جاء على (فُعّال) يدل على داء كالزكام ، وما جاء من الأفعال على وزن (استفعل) يدل على الطلب مثل : استسقى . غير أن هذه المعاني الصرفية ليست تامة الاطراد ، وليس الحديث عن معانيها من أغراض الكتاب الذي بين يديك .

ولعل أجّل فائدة تجنيها لغتنا العربية الثابتة القوالب قدرتها على التجدد والتولد ، ومواكبة التطور في جوانب الحياة المختلفة . إنها تهيب القوالب اللفظية مرتقبة ما يملؤها من المعاني . فحينما أجازت المجامع النغوية صياغة الآلات على وزن (فَعّالة) صنعت العربية عشرات الأسماء لآلات مبتكرة ، تفوق في دلالاتها ورشاقها ووضوحها وقربها من الذوق العربي أسماءها الأصلية في لغاتها وعند الناطقين بهذه اللغات . ومن هذه الأسماء : الطائرة والسيارة ، والحوامة والعوامة ، والنقالة والغسالة . وقدرة هذه الألفاظ على ترجمة معانيها أعظم من الأوزان القياسية القديمة ، لأنها نقت من المبالغة إلى الآلة .

ونحن لا ننكر على اللغات الإلصاقية صيغها ، غير أن القدر الأعظم منها يصع من كلمتين ، أو من كلمة ومورفيم . فالإنكليز سمو الطائرة بكلمتين هما Air و Plane ألصقت إحداهما بالأخرى حتى أصبحت Airplane . وصاعوا اسم الفاعل بإضافة المورفيم (ing) إلى آخر الحاضر البسيط ، والجمع : إضافة مورفيم الجمع (s) إلى نهاية المفرد . ولإدراك الفرق بين الإلصاق والاشتقاق في صنع الصيغ نقارن لفظة (السيارة) بنظيرتها الإنكليزية Automobile . فاللفظة العربية ولدت ولادة طبيعية من أب وأم . أبوها السير وهو الجذر الثلاثي ، وأمها صيغة (فعالة) التي كانت للمبالغة ثم آلت إلى الآلة . فاحتضنتها حتى شاعت وتقبلها الناس . ونظيرتها الإنكليزية صنعت من كلمتين Auto ومعناها الذاتي أو الذات . و Mobile ومعناها المتحرك ، فالعنى المتحصل من اجتماع الكلمتين هو المتحرك الذاتي . أو المتحرك بذاته . وهذا المعنى لا يخص السيارة من بين الآلات ، فالساعة التي حول معصمك متحركة بذاتها ، لكنها لا تسير من مكانها . فالمصطلح العربي قوي الدلالة على ما وضع له ، وهو المبالغة في السير . إذ الصيغ الاشتقاقية تتمحضر عن ألفاظ تحافظ على جزء من المعنى الحذري للأصول الثلاثة ، كما يحافظ أبناء الأسرة الواحدة على سماتهم وقسماتهم جيلاً بعد جيل . أما الصيغ الإلصاقية ففتقر إلى هذا الجزء من المعنى الجذري كما يفتقر المولدون والمهجنون إلى وحدة الملامح .

والخلاصة إن الصيغ في اللغات الإلصاقية تتركب الكلمات أحياناً من عنصرين متنافرين لإعطاء المعاني الجديدة. والصيغ العربية الاشتقاقية تنجب كلمات «تبدو كأنها أذيت ثم صيغت، فتوزعت أجزاؤها وحشيت أطرافها وأوساطها مع الاحتفاظ دوماً بمادتها الأصلية، فخرجت في قالب معين، ووزن محدود، لا يختلف من مادة إلى أخرى»^(٢١).

٣ - تقسيم الكلام قديماً وحديثاً

قدّمنا لهذا البحث من الكتاب بمقدمة ميزت الكلمات ذوات المعاني المعجمية من المورفيمات ذوات المعاني النحوية والصرفية. وهذا التمييز يستند إلى التقسيم اللساني الحديث، وإلى طرائقه في التحليل والتشكيل. أما الصرف العربي القديم فيقسم الكلام كله ثلاثة أقسام، ذكرها ابن مالك في مطبع ألفيته فقال:

كلامنا لفظ مفيدٌ كاستقمَ واسم وفعل ثم حرف الكلم^(٢٢)

وتقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف قديم قدم النحو العربي، وهو معزوّ إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، مثبت في الصحيفة التي دفعها عليّ إلى أبي الأسود الدؤلي، وطلب إليه أن ينحو نحوها في التقسيم والدرس ليقم صرح النحو. جاء في الصحيفة: «الاسم ما أنبأ عن المسمى. والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل»^(٢٣).

وهبك من الذين يشكّون في نسبة الصحيفة إلى عليّ، فشكك لا يفي عن التقسيم أنه قديم، إذ تجده في أول كتاب سيبويه، وعن سيبويه أخذه الحاة. ولم يخالف عنه إلا من أضاف الخالفة (اسم الفعل) لتكون قسماً رابعاً. «قال أبو حيان: زاد أبو جعفر بن صابر قسماً رابعاً سماه الخالفة، وهو اسم الفعل»^(٢٤).

وفي العصر الحديث ضاق بعض الباحثين بهذا التقسيم. ورأى في إضافة الخالفة منفذاً لتغيير التقسيم. فأسماء الأفعال (صه، هيئات، أف) تنطوي على سمات اسمية وفعلية. ومن ينظر إليها بعين اللسانيات فقد يحققها بالمورفيمات الصرفية. ومن ينظر في غيرها فقد يتراءى له أن الكلام العربي يحتمل قسمة أخرى على أسس أخرى.

(٢١) فقه اللغة، محمد الشارح ص ١٢١.

(٢٢) شرح ابن عقيل ١٧١ تح: محمد محيي الدين عبد الحميد دار الفكر ١٩٩١ م.

(٢٣) أمالي الرحاحي ص ٣٤٠ تح: عبد السلام محمد هارون دار الخيل بيروت ١٩٨٧ م.

(٢٤) الأشباه والنظائر في النحو سيبويص ٣٣ تح: إبراهيم محمد عبد الله دمشق ١٩٨٦ م.

لقد ظهرت محاولات كثيرة جادة لإعادة النظر في التقسيم، أبرزها تلك التي حاولها الدكتور تمام حسان، إذ دعا إلى تقسيم الكلام العربي إلى سبعة أقسام، وهي: الاسم، والصفة، والفعل، والضمير، والخالفة والظرف، والأداة^(٢٥). وينبغي ههنا ألا نتعجل فنرفض أو نتقبل. وألا نتهم الباحث بأنه يحاكي في تقسيمه الإنكليز الذين يقسمون كلامهم ثمانية أقسام، وهي الاسم Noun والفعل Verb والظرف Adverb والضمير Pronoun والصفة Adjective وحرف الجر Preposition وحرف العطف Conjunction والتعجب Interjection^(٢٦). فقد يكون تشابه التقسيمين في خمسة أقسام توافقاً غير متعمد، وقد يكون هذا التشابه شكلياً، تتفق فيه الأسماء وتختلف المسميات، فننظر في التقسيم الجديد المقترح قبل أن نحكم له أو عليه.

آ — الاسم: الاسم في هذا التقسيم كل كلمة لا يشكّل الزمن جزءاً منها، كأسماء الذوات والأعلام (كتاب، قلم، زيد، فاطمة)، وأسماء المعاني (علم، جهل). وأسماء الجنس والجمع (عجم، إبل)، والمبهمات من المكاييل والموازين والمقاييس والأعداد المحتاجة إلى ما يميزها كعشرين رطلاً قمحاً.

ب — الصفة: هي كلمة تدل على موصوف بالحدث، وتضم خمسة أشياء يسميها نحائنا: اسم الفاعل، واسم المفعول، واسم التفضيل، والصفة المشبهة، ومبالغة اسم الفاعل. وتسمى في هذا التقسيم صفة الفاعل، وصفة المفعول... الخ. ومعنى الموصوف بالحدث أن هذه الصفات — عدا الصفة المشبهة — تتصف بالفعل الذي تتشقق منه اتصافاً غير دائم. أما الصفة المشبهة فاتصافها به ثابت. والميزتان الأساسيتان اللتان تميزان الصفة من الاسم ارتباطها بالزمن، وقيامها بأكثر الأعمال التي يقوم بها الفعل من رفع للفاعل، وبصب للمفعول به. وليست تسمية الاسم المشتق صفةً بدعة لاسابقة ها، وإنما هي من مصطلحات النحو العربي المعروفة. قال ابن الخشاب: [ت: ٥٦٧ هـ]: «اسم الفاعل هو الصفة الجارية على الفعل المضارع في حركاته وسكناته كضارب»^(٢٧). غير أن الأقدمين سمو المشتقات صفات، ولم يخرجوها من إطار الأسماء، بل جعلوها فرعاً من فروعها ليميزوها من الذوات والمعاني والأسماء المبهمة.

ج — الخالفة: نغفل الحديث عن الفعل لاتفاق الأقدمين والمحدثين أو تقاربهم في

(٢٥) اللغة العربية معناها ومبناها ص ٨٦ وما بعدها.

(٢٦) A Comprehensive English Grammar C. E. Eckrsley and J. M. Eckrsley page 3 4 Oxford Press 1980

(٢٧) المرجل لأن الخشاب ص ٢٣٦ تج عبي حيدر دمشق ١٩٧٢ م. وشرح ابن عقيل ١٥١، ١٥٦.

تحديد سماته . وتحدث عن الخالفة التي ذكرها أبو حيان الأندلسي [ت : ٧٤٥ هـ] (٢٨) ومن سبقه من النحاة ، ولا سيما الكوفيين . فقد أطلقها الكوفيون على اسم الفعل وحده ، وأطلقها التقسيم الجديد على الأسلوب الإنشائي المعبر عن تأثير المتكلم وتأثيره في المخاطب . ولعل المقصود بها ما يقصده الإنكليز من اللغة المؤثرة Affective Language .

إن التقسيم الجديد للكلام وسّع مفهوم الخالفة ، إذ أراد بها التعجب نحو : ما أجمل السماء ! والمدح والذم نحو : نعم الشاعر زهير ، وأسماء الأفعال نحو : هيبات السفر ، وأسماء الأصوات كقولك : هَيْد في زجر الإبل . والصفة الجامعة بين الخوالب جمودها وتجردها من علامات الأسماء وعلامات الأفعال ، وقبولها لبعض المورفيمات الإلصاقية كالضمائر وعلامات التأنيث .

د - الظرف : الظروف في التقسيم القديم بعض الأسماء ، وهي قسمان : مختصّ لا يأتي إلا ظرفاً ، وغير مختص يأتي ظرفاً وغير ظرف الأول مثل إذا ومتى ، والثاني مثل يوم وشهر . أما الظرف في التقسيم الجديد فمقصود على القسم الأول ، ولهذا فالظروف تسعة لا عشر لها عنده ، وهي : إد ، إدا ، إدن ، لَمّا ، أيان ، متى ، أين ، أنى ، حيث . وكل ما عداها مثل : بين وحين ، وأسماء الأوقات والجهات كالساعة والشهر . وأمام ووراء ، وكل ما فارق المصدرية فصار نائباً عن الضرف فأسماء متصرفة . وأهم سمات الظرف الجمود والبناء .

هـ - الأداة : لو رجعنا إلى مغني اللبيب ، والأزھية ، والجسي الدائي ، ورصف المباني وغيرها من كتب الأدوات ، لوحدنا فيها خليطاً من أسماء وأفعال وحروف . والتقسيم الجديد يأخذ بهذا التعميم لمعنى الأداة . إذ يذهب إلى أن الأداة كلمة فقدت المعنى المعجمي وخلصت لأداء الوظيفة النحوية . وهي الربط بين الماهيات . ويرى أن الأدوات نوعان : أصية مثل : لم ولن ، ومحولة عن أسماء وأفعال كأسماء التشرط والأفعال الناقصة . والأدوات كلها — ما عدا أياً — مبنيات ، لا تقبل التصريف من تننية وجمع وتضعير ، ولا تدخلها علامات الأسماء وعلامات الأفعال في أغلب الأحيان .

و - الضمير : يوسّع التقسيم الجديد معنى الضمير ، فيدخل في زمرته كل كلمة جامدة تدل على حضور (المتكلم والمخاطب) أو غيبة . فليست الضمائر إذن ما كان يعرف بالضمائر المنفصلة والضمائر المتصلة ليس غير . بل تنضم إليها أسماء الموصول وأسماء الإشارة . أما الضمائر المتصلة في نحو : أعرتك كتابي فإنها تعد من اللواحق التصريفية

(المورفيمات) التي ذكرناها في بداية هذا الفصل . ولكنها تظل محتفظة بحقها في الانتماء إلى قسم الضمائر .

وأهم سمات الضمائر حاجتها إلى قرائن توضحها ، وجمودها ، وبنائها ، فهي غير مشتقة ولا معربة .

وفي نهاية الحديث عن هذا التقسيم يحسن بنا أن نشير إلى أنه تقسيم مقترح وليس تقسيماً قطعياً ، يمكن إحلاله محل التقسيم القديم ، وينطوي على أكثر من إشكال يحتمل الجدل . ولا يجوز إحلاله محل القديم أو جعله رديفاً له ما لم تدرس أقسامه دراسة علمية وافية^(٢٩) .

٤ — المعاني الصرفية

المقصود بالمعاني الصرفية المفاهيم المستنبطة من مباني الألفاظ . فمفهوم الجمع السالم مذكوره ومؤنثه يستنبط من آلاف الأسماء المنتهية بواو ونون وياء ونون وألف وتاء مبسوبة . ومفهوم التأنيث يستخرج من آلاف الأسماء المنتهية بتاء مربوطة أو ألف مقصورة أو ألف ممدودة إلى جانب ضوابط معنوية ولفظية أخرى . ومفهوم التعريف الذي هو قسم التنكير ندرکه في الأسماء المبدوءة بـ (ال) أو التي تحمل قرائن أخرى كالإضافة والعلمية ... الخ .

وهذه المعاني الصرفية لا صلة لها بالدلالات المعجمية للألفاظ ، بل بالقوالب والصيغ . وبما يدحق هذه الصيغ من مورفيمات تكاد تكون قياسية . فإذا قرأت كلمتي مستشزرات ومستوسقات أدركت ما فيهما من جمع وتنكير وسلامة وتأنيث من المورفيمات التي وهبتها هذه المعاني ، ولو لم تعرف أن الأولى بمعنى المتفرقات والثانية بمعنى المتجمعات . وإذا قرأت كلمة الرُدِّيْنِي عرفت ما فيها من تعريف وتصغير ونسب وتذكير وإفراد ، ولو لم تعرف أن الرديني الرمح المنسوب إلى امرأة اسمها ردينة عرفت بتقويم الرماح . إن كل ما أدركته يُعدُّ من المعاني الصرفية .

ودفعاً للبس نشير إلى أن اللسانيات الحديثة تطلق على المعاني الصرفية اسماً آخر ، وهو (المقولات الصرفية) . ويبدو أن اللسانيات قبست (المقولات) من المنطق الذي حمل عليه أكثر اللسانيين واتهموه بإفساد الدراسات اللغوية القديمة . إن (المقولة) مأخوذة من المصطلح المنطقي الإنكليزي Logical Category^(٣٠) ، والمعنى في نظري أدق في التعبير عما نريد من

(٢٩) كل ما ذكرناه في هذا الفصل عن أقسام الكلام اسعنة مقتبس من كتب د . تمام حساس ويخص بالذكر منها : اللغة العربية معناها ومساها . وأعفلها هما الحديث عن لفعل لاتفاق القدماء والمحدثين على مفهومه .

(٣٠) انظر لغة العربية معناها ومساها ص ٨٩ ، ومبادئ اللسانيات . د . أحمد محمد قدور ص ١٧٦ ويسميتها

محمد الأنطاكي المقولات ، سحوية اصبر اوحير في فقه اللغة ص ٣٣٢ .

المقولة ، لأن المقول قد يكون له معنى كزبد ، وقد يكون أصواتاً بلا معنى كديز . ولهذا آثرنا (المعاني الصرفية) على (المقولات) الصرفية أو النحوية .

وأبرز المعاني الصرفية التي بحثها القدماء ، وأعاد اللسانيون دراستها : العدد إفراداً وتثنية وجمعاً ، والشخص حضوراً وغيبة ، والجنس تذكيراً وتأنثياً ، والتعيين تعريفاً وتنكيراً . وههنا آثرنا ذكر التسميات اللسانية الحديثة وتفسيرها بالمصطلحات الصرفية المألوفة لئلا نلبس على القارئ .

أ — العدد : يعد التعبير عن العدد بصيغ صرفية من المعاني التي تشترك فيها اللغات على أنحاء تتقارب أو تتباعد . لكنها لا تخو منه . فاللغات الهندية الأوروبية ، ومنها الإنكليزية ، تقسم الأشياء إلى مفرد وجمع . فالمفرد واحد ، والجمع اثنان وما زاد عليهما . واللغات السامية . وعلى رأسها العربية أحرص على الدقة في التعامل مع العدد . فالعربية تقسم الأشياء ثلاثة أقسام . هي المفرد والمثنى والجمع . فالمفرد الواحد ، والمثنى اثنان ، وأقل الجمع ثلاثة ، والجمع نفسه جمعان : جمع قلة وهو ما لم تزد عدة أفرادها على عشرة . وما زاد على عشرة فجمع كثرة . والجموع القنة أربعة أوزان ، هي : أفعال وأفعل ، وأفْعلة ، وفِغْعة ، نحو : أقفال وأبجر وأرغفة وفتية . وجموع الكثرة كثيرة الأوزان تربو عدتها على ثلاثين صيغة ، فإذا أضفت إليها صيغ الاسم الجمعي ، وجمع الجمع كجمالات وبيوتات ، والجمعين السالمين مذكرهما والمؤنث زادت الصيغ على أربعين صيغة .

وللجمع في العربية صور أخرى منها : الجمع الذي لا واحد له من لفظه كالثؤل : سرب النحل . وما اشتهر جمعه وأشكل واحده كالمصارين : واحدها مصران أو مصير . وما اشتهر واحده وأشكل جمعه كالسبت جمعه سبوت أو أسبت . وما استوى واحده وجمعه كالفلك^(٣١) . والمفرد الذي يجمع على صيغ وأوزان كثيرة ، فقد ذكر القاموس المحيط أحد عشر جمعاً للدار وخمسة عشر للعبد^(٣٢) .

وهذه الكثرة من صيغ الجموع موضع نقاش ، لأنها ذات مظهرين : مظهر خصيب يدل على ثراء العربية ، ومظهر عصيب يربك الدارس ، إذ يضع بين يديه صيغاً ، لا قبل له بحفظها . ولذلك نجد بين الباحثين من يذكرها بالتنويه ، كما نجد بينهم من يقابل التنويه بالتسفيه .

(٣١) تحد هذه الصور في المظهر للسيوطي ٢/١٩٩ ٢٠١٢ . ٢٠٣٢ .

(٣٢) حاء في القاموس المحيط [دار] : « جمع لدر أدور ، وأدور ، وديار ، وديارة ، ودير ، ودور . ودورات ، ودياراب ، وأدور ، وأدورة . وحاء فيه أيضا [عند] : « جمع العبد : عبدون ، وعيد ، وأعد ، وعُدد ، وعبدان ، وعبدان كسرتين مشددة الدال ، ومعدة كمشيحة ، ومعاند ، وعبداء ، وعبدى ، وعُدد بضميتين ، وعُدد كدُس ، ومعوداء ، وجمع الجمع أعاد » .

يقول الدكتور صبحي الصالح : « ما يزال في الباحثين العرب من يقودهم تعصبهم للغتهم إلى عدّ المجموع القياسية سالمة وغير سالمة إحدى خصائص العربية ... وفاتهم أن هذه الكثرة لا تزن شيئاً إن لم تشارك الأذهان النيرة في وضعها موضع الاستعمال » (٣٣).

ولما كانت اللسانيات لا تستنبط أحكامها من لغة واحدة فإن التنويه والتسفيه لا يجلوان الوجه الحقيقي للجمع في لسان العرب ، ولهذا لا بد من مقارنة هذه الظاهرة بما يعدلها في لغة أخرى كاللغة الإنكليزية التي تعد من أشيع اللغات في العالم .

الشكل الأساسي في جمع المفرد يتم في الإنكليزية بإضافة اللاحقة (s) إلى أواخر الأسماء

المفردة : Book - Books . ثم تتعدد الأشكال ، إذ يصبح مورفيم الجمع أحياناً Class - (es) ، أو يضاف مورفيم الجمع بعد تبديل آخر الاسم المفرد : Wife = Wives ، Country - Countries وقد يتم الجمع بتبديل حرف من حروف المفرد : Man - Men ، أو بإضافة مورفيم آخر هو Ox - Oxen(en) أو بإضافة مورفيم من ثلاثة أحرف Child = Children(ren) أو بحذف حرف وتغيير حرف نحو : Datum = Data Phenomina, (٣٤).

وهذه الصور المتعددة من أسلوب الجمع — بله الصور التي لم يذكرها — تدل دلالة واضحة على أن الجمع في الإنكليزية ليس مطّرد الصيغة ، وأن العربية ليست متفردة في التنوع . فإما أن يعد التنوع في اللغتين جميعاً ثراءً تباهايان به ، وإما أن يعد ارتباكاً تؤاخذان عليه . وخير من هذا وذاك أن نترك النظرات المعيارية ، ونكتفي بالوصف بلا مدح ولا قدح .

أما التثنية فجنيّة في العربية . تعرو الأسماء المتصرفة ، وبعض المهيمات والأسماء المبينة كأسماء الإشارة وأسماء الموصول ، والضمائر والصفات . وتتغير من أجلها صور الأفعال بسبب الإسناد إلى الضمائر المشاة مثل : هذان الثوبان اللذان اشتريتهما سيبيان . إن معنى التثنية في العربية يسم مفهوم العدد بسمة الدقة ، ويجنبه اللبس . ونعني باللبس عدم التمييز بين المثني والجمع في اللغات التي تخففت من ظاهرة التثنية .

إن مورفيم الجمع في الإنكليزية قد يلحق المفرد ، فيراد به الجمع ، وقد يلحقه فيراد به المثني ، ولهذا يضطر الناطقون بهذه اللغة إلى تمييز المثني بالعدد الصريح نحو : Two Books . أما الضمائر فلا تمسها ظاهرة التثنية من قريب ولا من بعيد ، ولذلك فالضمائر الإنكليزية لا تزيد على نصف الضمائر العربية ، فربما عبر الإنكليز عن ثلاثة ضمائر عربية أو خمسة

(٣٣) فقه اللغة ، د . صبحي الصالح ص ٣٣٥ .

(٣٤) Practical English Grammar A. J. Thomson and A. V. Martinet page 8 Oxford University Press. (٣٤)

بلفظ واحد . فهم يعبرون بالضمير (They) عن هما وهم وهن وبالضمير (You) عن أنت ، وأنت ، وأنتم ، وأنتم ، وأنتم . والسياق يحدد صاحب الضمير .

ومن الجدير بالذكر أن ظاهرة التثنية في العربية أخذت تميل إلى الانحسار في اللهجات العامية ، لتحل محلها صيغة الجمع . وفي الفصحى مايسوغ ذلك . فالعامية يقولون : ذهبوا ورجعوا والفاعل اثنان لاجتماعه . وفي القرآن الكريم : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾^(٣٥) . والمقصود قطع يد واحدة من يدي السارق ويد واحدة من يدي السارقة لا قطع الأيدي الأربع . وتقول العرب : ضربت أعناقهما والمقطوع عنقان لا أكثر . فهل يعني هذا الميل عن التثنية أنها ثقيلة على اللسان ، وأن العامية تؤثر التخفيف ؟

الحق أن المسألة ليست قاصرة على العامية فالأمثلة والشواهد الفصيحة لا تتأثم من تغليب الجمع على المثني ، كما لا تتأثم من وضع المفرد موضع المثني ، كقول جرير :

ألست أحسن من يمشي على قدم يا أملح الناس كل الناس إنسانا^(٣٦)

يريد من يمشي على قدمين ، وأملحهم عيين لا عيناً واحدة . ولا تتخرج من وضع المفرد موضع الجمع كقول علقمة الفحل :

بها جيف الحسرى ، فأما عظامها فبيض ، وأما جلدها فصليب

قال : وأما جلدها فوحد ، وهو يريد : وأما جلودها^(٣٧) .

ب — الشخص : يرتبط هذا المعنى بشيئين : أولهما الضمائر التي تختلف عدتها وأنواعها من لغة إلى لغة . وثانيهما مورفيمات التصريف التي تباشر الأفعال . فإن قلت : حضرت فالتاء الساكنة حددت التأنيث ، والضمير المقدر حدّد الغيبة والإفراد ، فعرفت بذلك الشخص الذي أسند إليه الفعل . ولما كانت العربية تمتلك التثنية إلى جانب الجمع والإفراد فإن نطاقها في هذا المعنى أوسع مما في اللغات الأوروبية .

العربية حينما تصرف الفعل (يكتب) تعرضه أمامك بثلاث عشرة صورة ، ولكل صورة مورفيم في بداية الكلمة ، أو مورفيمان أحدهما في بدايتها والثاني في نهايتها ، إذ تقول :

(٣٥) المائدة ٣٨ .

(٣٦) ديوان جرير ص ٤١٩ دار صادر بيروت .

(٣٧) صرائر الشعر لبقير والي ص ١٠٢ تح د . محمد رعلون سلام و د . محمد مصطفى هدارة . مسنة المعارف

الإسكندرية ١٩٩٤ م . ومما يؤيد انحسار التثنية أن العربية — وعلامه التثنية فيها (الباء والياء) — لا تستعمل التثنية إلا في أحوال خاصة كأعضاء الجسم والأدوات المزدوجة مثل عابجه — عينا ، رحايم — رحيا ، انصر — دروس في اللغة العربية ، د . ربحي كمال ، ص ١٠٦ .

أكتب ، نكتب ، تكتب ، تكتبين ، تكتبان ، تكتبون ، تكتبن ، يكتب ، يكتب ، يكتبان ، يكتبون ، يكتبون ، يكتبون .

أما تصريف الفعل نفسه في اللغة الإنكليزية فيؤدّي بصورتين لاثالثة لهما الأولى (Writes) مع الضمائر المفردة الغائبة : He, She, It والثانية (Write) مع بقية الضمائر . وللتمييز بين المفرد والجمع ، والحاضر المتكلم والحاضر المخاطب وجمع الغائب ومفرد الحاضر فلا بد من ذكر الضمائر قبل الأفعال . ولو ذكرت الضمائر لبقى لبسٌ آخر . لا يخلصك منه غير السياق فإن قلت : You Write انصرف القول إلى خمسة ضمائر : أنت ، أنت ، أنتما ، أنتم ، أنتن ، وعلى السياق التحديد .

وأنت تعلم أن المورفيمات العربية اللاحقة بالفعل كياء المخاطبة ، أو السابقة له كأحرف أنيت قادرة على تحديد الحضور والغيبة والعدد والجنس ولو لم يسبق الفعل بالضمير المنفصل . أما تصريف الماضي فيحرم الصيغ من أحرف أنيت ، وحينئذ يتحدد الشخص بالضمير المتصل أو بالضمير المستتر الذي يعامل في العربية معاملة البارز فتقول : كتبتُ كتبنا ... كتب ... الخ . ولا جدال في أن العربية بسبب صيغها المتعددة ومورفيماتها الكثيرة أقدر من الإنكليزية على تحديد هوية الشخص ، وأزهد منها في الاعتماد على السياق ، وأبعد عن اللبس . غير أنها قد تتأثر — وهذا شأن أكثر اللغات — بالمفاهيم الاجتماعية فتخالف المؤلف ، إذ تخاطب المفرد بالجمع إكراماً له ، وتقيم المخاطب مقام المتكلم ، كقول أبي فراس :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر^(٣٨) ؟

يريد : أراني ، شيمتي ، عليّ . لكنه بتجريده شخصاً من نفسه وبمخاطبة هذا الشخص المتخيل بعث الموقف ، ونقله من الخبر الميت إلى الحوار الحيّ .

ج — الجنس : الذكورة والأنوثة من صفات الخلق تجدهما في البشر والحيوان وبعض النبات . ولما كانت اللغات حريصة على أن تترجم ما في الحياة ، فقد عنيت الألسن كلها أو جلها بتمييز المذكر من المؤنث . غير أن التمييز لا يبلغ حد التطابق بين اللغة والواقع في كل حين ، بل تجد المذكر الحقيقي موسوماً بسمة من سمات الإناث ، في بعض الأحيان ، وتجد من الجوامد ما ذُكر وما أنث على نحو اعتباطي ، وليس للتذكير فيه أو التأنيث مسوع حَلَقِي أو منطقي .

وتجد في بعض اللغات طوائف من الألفاظ لم تلحقها سمات لغوية تسمها بذكورة أو

(٣٨) ديوان أبي فراس ص ١٤٢ تح : محمد التوحيجي المستشارية الثقافية الإيرانية ١٩٨٧ م .

أنوثة، فبقيت خنثى لا جنس لها، ووُضعت لها صيغ تخصها كضمير الغائب (It) الخاص بما لا يعقل، والإنكليز لا يطبقونه على الأشياء وحدها، بل على الأشياء وعلى الأحياء التي ذكرها الله وأنثها إن لم تكن عاقنة، وعلى الطفل الذي لم يرق إلى سن التمييز، وعلى المجهول. ويسمى هذا النوع عندهم المحايد: Neutral أو Neuter.

ومن يحتكم إلى المنطق فيما يذكر ويؤنث من الأشياء لم يلق عنده حكماً مقبولاً. فما الذي جعل العرب يذكرون المريح ويؤنثون الأرض، وكلاهما جرم من حجر لا مخلوق من البشر؟ وما الذي حملهم على تذكير النهر وتأنيث البئر وكلاهما ماء، أو على تذكير السيف والرمح وتأنيث القوس والدرع وكلهن أسلحة؟

يرد فندريس ذلك كله إلى أسباب دينية غيبية، ترتبط بتصور الإنسان القديم للعالم^(٣٩). ويرى رايت W. Wright في محاضراته عن النحو المقارن في اللغات السامية أن الأمر يعود إلى الخيال السامي الذي خلق بأصحاب هذه اللغات، فخلعوا على الجوامد أرواح الأحياء^(٤٠). وربما كان في كلام هذا المستشرق جانب من الحق، إذ لو لم يكن الخيال السامي واسع الأفق، خصب التصور والتصوير لما وقف الشاعر الجاهلي على الأطلال، يحاور النوي والأنثافي والأوتاد والآرام ويناجيها.

وإذا لم يكن تذكير الجوامد وتأنيثها منطقياً فهل من المنطق بقاؤها حيادية بلا جنس؟ لو أن اللغات التي انتزعت الذكورة والأنوثة عن الجوامد التزمت هذا النظام في كل كلامها لكان الأمر معقولاً، ولكنها لم تلتزمه، وحسبك أن تتذكر ما ذكرناه قبل قليل من إطلاق الضمير (It) على الطفل وعلى المجهول من الرجال العقلاء ليثبت عندك أن الأنظمة اللغوية ليست بمنطقية في كثير من الأحيان. ولسنا في حاجة إلى العود على البدء. فالدراسات الحديثة تتجنب تحكيم المنطق في اللغة، وتؤثر القبول بكل شيء وبوصفه، إذ لو كانت اللغة من صنع المناطق لسارت الأجناس الثلاثة رتلاً واحداً، والواقع الذي يقر به اللغويون الغربيون هو أن الحياد من المعاني الصرفية الضعيفة التي تزداد ضموراً، وأنه كان شائعاً في اللاتينية واليونانية ثم خمل، وبقيت منه بقية قليلة، هي «في سبيل الانقراض»^(٤١). ولعل انقراض الحياد يعود إلى إثارة الناس التيسير على التعسير، والتعامل مع هذه الظاهرة ظاهرة الجنس وفق نظامين لا ثلاثة أنظمة.

ولو قارنت المؤنث بالمذكر لوجدت الذكورة طاعية على الأنوثة في أكثر اللغات. فليس

(٣٩) اللغة، فندريس ص ١٣٣.

Lectures on the Comparative Grammar page 191 W. Wright

(٤٠)

(٤١) اللغة، فندريس ص ١٢٩.

في الضمائر الإنكليزية إلا ضميران يخصصان الأنثى ، وهما she, her . وإذا وصف الإنكليز النساء وصفوهن بصفات الذكور فهم يقولون Small Girl كما يقولون Small Boy أي أن الأنثى ليس لها مورفيم يخصصها كتاء التأنيث في العربية . وأما الأسماء فالكثرة الساحقة منها تصاغ صياغة واحدة للمذكر والمؤنث ، خلا أسماء قليلة تؤنث بإضافة مورفيم التأنيث (ess) إلى آخر المذكر Poet = Poetess . وقد يؤنث الاسم بذكر ضمير المؤنث ، ويذكر بضمير المذكر :
He Goat = She Goat فالضمير هو الذي ماز التيس من السخنة .

ولا شك في أن العربية أولت التأنيث عناية واضحة تتبدى بأكثر من صورة . فهي تقابل أسماء الذكور بأسماء تعدلها للإناث : حروف ونعجة ، كبش وشاة ، جمل وناقة ، حمار وأتان ... الخ . وتخصص الإناث بمجموعة من الضمائر المنفصلة والمتصلة تباشر الأسماء والأفعال والحروف : (هن يرجعن كتبكن إليكن) . وهي تؤنث الصفات والأسماء بمورفيمات عديدة كالتائين المربوطة والمبسوطة (طالبة — طالبات) والألفين المقصورة والممدودة (ظمأى ، حسناء) وقد تؤنث الحروف (ثمت ، ربت) ، وتعامل الأفعال المسندة إلى أسماء الأجناس وجموع التكسير معاملة المسندة إلى الأنثى ﴿غلبت الروم﴾^(٤٢) و ﴿قالت الأعراب﴾^(٤٣) ، وتجمع كل اسم أعجمي بالألف والتاء (تلفونات) .

ولما كان المنطق عاجزاً عن تفسير البغة ، فإنه عاجز عن أن يفسر تجرد الصفات الخاصة بالنساء من مورفيمات التأنيث . فالعربية لا تدخل علامة التأنيث على نحو : حائض وطالق مع أنهما من أخص خصائص الإناث . وحجتها أن الرجل لا يمكن أن يشرك المرأة في مثل هذه الصفات ، فلما أمن اللبس عُرف الجنس . والمنطق عاجز كذلك عن أن يعلل اشتراك المذكر والمؤنث في صفات ذوات أوزان خاصة (رؤوم ، جريح ، معطير) وأكثر هذه الصفات من صيغ المبالغة . ولعل ذلك يعود إلى علة اجتماعية ، وهي أن العربية رفعت مكانة المرأة في الصفات التي أرى اتصافها بها على المؤلف . فاستحقت أن تساوي الرجل في بعض الصيغ .

وإن أردت أن تعمم هذه العلة ، فقل : قد تكون عناية العربية بالتأنيث ناجمة عن رقي المرأة ، وعن سمو المكانة التي تبوأتها في حياة العرب ، ثم عن حمية العربي وحفاظه على عرضه ، وحرصه على تفرد المرأة . ولهذا كان يخصها بهودج يحملها إن ظعن ، ويسير حادياً بها وبناتها ، كما كان يخصها بالفاظ تميزها من الرجل . وكما كان يربأ بها عن مخالطة الرجال فيما خلقوا له

(٤٢) الروم ٢

(٤٣) الحجرات ١٤ .

من الغزو والقتل كان يتحدث عنها بألفاظ وصيغ تصونها من الابتذال والتشبه بالرجال .
كُتِبَ القَتْلُ والقَتَالُ عَلَيْنَا وعلى الغانيات جُرُّ الذِيُولِ (٤٤)

د — التعيين : تحرص اللغات على أن تصنف الأسماء وفق تعريفها وتنكيرها أصنافاً ، فتجعل بعضها أجناساً عامة ، إذا ذكر المفرد منها أريد به جنسه كله كرجل وامرأة . وتجعل بعضها محدد الدلالة إذا أطلق انصرف معناه إلى شخص معين كخالد وهرقل . ويسمى الأول نكرة ويسمى الثاني معرفة .

لسكرة في العربية مورفيم واحد هو التنوين ، والتنوين نون ساكنة . تلحق الاسم ، فتطلقه من إसार التعيين ، وتخضع عليه صفة الشمول ، وإن كان في الأصل معيناً كقولك : مررت بسيبويه وسيبويه آخر . فالأول هو بشر بن عمرو النحوي ، والثاني رجل لا يعرفه السامع ، ولكنه يسمى بهذا الاسم .

وإذا أراد الإنكليز تنكير الاسم قدموا عليه مورفيم التنكير Indefinite Article فتنكر . وفي الإنكليزية مورفيمان للتنكير : أوهما (AN) ويأشر الأسماء المبدوءة بالأصوات الصامتة (حروف العلة) نحو : An Actor . وثانيها (A) ويأشر الأسماء المبدوءة بالأصوات الأخرى . وهي أكثر الأبجدية الإنكليزية نحو : A boy .

أما التعريف فطرائقه في العربية متنوعة ، أشهرها العلمية كأن تسمي كل واحد من الناس والبلاد والأهار باسم يلازمه ويعرفه . فيكون علماً فوقه أو علامة تسمه : كعمر ومكة ودجلة . والإنكليز يخصصون العلم Proper Noun بخصيصه كتابية ، إذ يستهلون رسمه بحرف كبير ، ويحرمون عليه مورفيمي التنكير (A, An) ومورفيم التعريف (The) . أما الأعلام العربية فتتويناها لا يعني تنكيرها إلا نادراً كمثال سيبويه آخر السابق . وإذا باشرت (ال) أفادتها التشريف لا التعريف كالحسن والحسين رضي الله عنهما .

وثانية الطرق في التعيين الإشارة إلى الأسماء بهذا وهذه ونحوهما . والثالثة تعيين الأسماء بالموصولات الاسمية كالدي والتي ونحوهما . والحق أن الموصولات العربية ليست معرفة في ذاتها . وإنما تكتسب التعريف من صلاتها .

وتتوافر هذه الوسائل في الإنكليزية توافرها في العربية وفي معظم اللغات ، غير أن الإنكليز يلحقون أسماء الإشارة والموصولات بالضمائر ، فيسمون الأولى Demonstrative Pronouns ويسمون الثانية Relative Pronouns .

(٤٤) عيون الأحبار لاس قتيبة ٢ ٤٩ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٢٥ م صورة عن دار الكتب .

ومن وسائل التعيين إضافة النكرة إلى المعرفة مثل : دار الحكمة . وإضافة في العربية لا تقتضي لاحقة ولا سابقة ، وتتم بالصاق اسم باسم حتى يصبحا كأنهما اسم واحد ، كعبد الله وأم كلثوم . أما الإنكليز فلديهم مورفيان للإضافة هما (of, s) نحو : Shakespeare's Plays و The Door of the House وقد يكتفون بالفاصلة بين المتضايقين ، فيقولون :
(٤٥) Keat's Poem .

وخامسة الوسائل وأشيعهن في اللغات تعريف النكرات بالأدوات (المورفيئات) ، وأغلب المورفيئات من نمط السوابق Prefixes التي تذكر قبل الأسماء ، فمتى باشرت عرفت . ولكل لغة أدواتها ، أو أدواتها . وتعد الألمانية من أكثر اللغات احتفالاً بتنوع الأدوات . وتكتفي العربية بأداة واحدة هي (ال) والإنكليزية بأداة واحدة هي (The) . و (ال) العربية في حقيقتها تنطوي على درجات متفاوتة من التعيين ، فإن كانت للعهد أفادت التعريف كقولك لمن استعار منك عمدة ابن رشيق : أعد إليّ الكتاب . وإن كانت للجنس كان التعيين بها أضعف مما يستفاد من التعيين بالعهدية كقولك : الذهب أنفس من الفضة . وهبها تمحضت للجنس ، فالجنس الذي يأتي بعدها يكتسب منها ومن السياق أكثر من معنى . ففي قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾^(٤٦) أفادت (ال) الاستغراق أي جمعت في الإنسان كل الناس من آدم إلى قيام القيامة . وفي قولك : عنترة الفارس دلالة على اجتماع كل شمائل الفروسية في عنترة . وهذا معنى قول النحاة : إنها تستغرق الصفات .

وفي العربية درجة متوسطة تقع بين التعيين والتنكير تعرف بالتخصيص . فإن قلت : كتاب صامت أفصح من جليس ثرثار ، فأنت لم تفضل الكتاب الصامت على كل جليس بل على نمط مخصوص هو الثرثار . ووسيلة التخصيص الوصف . ولذلك تسمى هذه النكرة نكرة مفيدة ، لأن فيها حظاً من التنكير وحظاً من التعيين ، يرقى إلى رتبة التخصيص ، وينحط عن رتبة التعريف .

ولعدك لاحظت أن الصفة تبع الموصوف في التنكير ، ولو عرفت الموصوف لعرفت الصفة ، كأن تقول : الكتاب الصامت خير من الجليس الثرثار . والتطابق بين الصفة والموصوف في التعريف والتنكير والإفراد والتثنية والجمع والتأنيث والتذكير قاعدة مطردة في العربية ما لم يكن الوصف سببياً كقولك : قرأت قصيدة جزلاً أسلوبها ، فحينئذ يطرد التطابق في جوانب ويتخلف في أخرى .

الباب السادس

الجانب النصوي

الفصل الأول

الجانب النحوي

أولاً - تمهيد

للدراستات اللغوية قديمها وحديثها منهجان أساسيان : منهج معياري ومنهج وصفي . الأول يرمي إلى صيانة اللغة المدروسة من اللحن والانحراف ، ويسعى إلى الحفاظ على اللهجة الفصيحة من المهجنة ، ويعدّها المثل الأعلى فيما يقال ، وفيما يكتب . والثاني لا يعبأ بصحة أو خطأ ، وفصاحة أو شذوذ ، بل يقصر همه الأول على وصف ما تتداوله الألسن في بيئة محدودة وزمن محدود . ويستنبط مما يصف أنظمة اللغة ونواميسها ، سواء أكانت موافقة لمعايير الفصاحة أم مفارقة لها .

ولما كان النحو من أهم الفروع اللغوية فإنه تأثر بهذين المنهجين تأثراً واضحاً ، وكان للمرحلة التاريخية التي يدرس فيها النحو ، وللأحوال الثقافية المحيطة بدراسته تأثيرها في اختيار المنهج وصبغه بصبغة معينة . ولنا في دراسة النحو العربي ما يوضح هذه المسألة .

حينما شرع نحاتنا الأوائل يدرسون العربية ليصلوا إلى قواعدها كانوا يوجهون دراستهم نحو غاية محددة هي الحفاظ على قراءة القرآن الكريم سائمة من الانحراف ، بريئة من أوشاب اللحن . ولذلك جعلوا اللهجة الحجازية محكاً تُضرب عليه اللهجات الأخرى ، وتماز به التراكيب الفصيحة من سواها ، أي : جعلوها معياراً يُحتج به للقبول والرفض . لكنهم لم يصلوا إلى هذا المعيار إلا عن طريق المنهج الوصفي .

فلما تأثر النحو بمنطق أرسطو ، وحمل لواءه كثير من المعتزلة رادت معيارية المنهج رسوخاً ، وأخذ القياس يحل محل السماع لسبب معروف ، وهو اختفاء البيئة الفصيحة التي كان النحاة يستلهمون منها النصوص والشواهد . فاضطروا إلى الإصرار على التعلق باللهجة

المعيارية (لهجة قريش) والمنهج المعياري، وقصروا علمهم على التعليل والتأويل والشرح والاختصار لترسيخ ما توصل إليه الأقدمون.

وبعد أن ازدهرت الدراسات اللغوية الحديثة وجد اللسانيون أن المنهج الوصفي أقرب المناهج إلى الأساليب العلمية، فانتهجوه وانتبدوا المعايير المسبقة التي تخلع على اللغة قيماً تاريخية، أساسها الفصاحة والسلامة والنقاء. لكنهم في الوقت نفسه لم ييخسوا المنهج المعياري حقّه، ولم ينكروا القواعد التي توصّل إليها، بل أقروا بما أنجز في حدود الفترات التاريخية التي ساد فيها، وفي حدود النتائج الخاصة بكل لغة درسها نحاتها معزولة عن اللغات الأخرى، وأبقوا لهذه الدراسة اسمها القديم، وهو النحو Grammar.

ثم وسّع اللسانيون ميادين الدرس اللغوي توسيعاً ذا بعدين: بعد إنساني، وبعد قومي.

أما البعد الإنساني فيعني أنهم درسوا اللغات دراسة مقارنة ليتوصلوا إلى التراكيب النحوية التي تشترك اللغات كلها أو جلها في استعمالها.

وأما البعد القومي فمعناه مدّ الجسور بين العلوم اللغوية الخاصة ب لغة واحدة. ليدرسوا النحو والصرف على هدي البلاغة، والعروض على هدي الصرف، والتركيب النحوي على هدي المعاني ودلالات الألفاظ. وبذلك تُفسّر اللغة باللغة، ويؤازر كل علم قسيمه على النحو الذي كان علماءنا الأقدمون يؤثرونه ويطبّقونه في دراسة اللغة وتدريسها، وسموا هذا العلم علم التركيب: Syntax^(١). ومن غير المستغرب أن يؤدي هذا المنهج الموسّع إلى اتساع الموضوعات التي درسها اللسانيون. فما أهمّ البحوث التي درسوها تطبيقاً لهذا المنهج الموسع المتكامل؟

ثانياً — دراسة الجمل

إذا كان الجانب الصرفي معنياً بدراسة المفردات، فالجانب النحوي معني بدراسة الجمل، وذلك لأن المفردات إن لم تنتظم في جمل ذوات روابط لم تستطع أن تعبر عن تفكير منظم. ومن المعروف أن تفكير الإنسان وتعبيره مرتبطان بالعادات اللغوية، أي أن بناء الجمل يتم وفق عادات تفرضها لغة المجتمع على الفرد.

(١) انظر مدخل إلى الأسس، يوسف عاري ص ٢١٤ مسوّرات العالم العربي الجمعية دمشق ١٩٨٥ م. ومدخل إلى علم اللغة، د. محمود فهمي حجازي ص ٦٦ وما بعدها.

ومع أننا « نفكر بجمل »^(٢) كما يقول فندريس ، فإننا لا نتوقف لنفحص ما يجري في الدماغ من عمليات عقلية معقدة إلا حيناً نتعلم لغة أجنبية ، يختلف فيها بناء الجمل عما ألفناه في لغتنا القومية . فما الجملة ؟ وممّ تتألف ؟

يلتقي المنطق والنحو في تعريف الجملة ، ويختلفان في المصطلحات . يقول المناطقة : « كل مفردين تجري بينهما نسبة موجبة أو سالبة فأحدهما موضوع والآخر محمول ، ومجموعهما مع النسبة بينهما قضية . والموضوع في الجمل العربية يأتي مبتدأ أو نحوه إذا كانت الجملة جملة اسمية ، ويأتي فاعلاً أو نحوه إذا كانت الجملة جملة فعلية . وأما المحمول فهو الركن الثاني من ركني الإسناد ، وهو الخبر أو ما يقوم مقامه في الجملة الاسمية ، أو الفعل أو ما يقوم مقامه في الجملة الفعلية . وأما النسبة بين الموضوع والمحمول فتدل عليها حركة الإعراب ، وهيئة تركيب الجملة »^(٣) .

ويقول النحاة بلسان ابن هشام : « اللفظ المفيد يسمى كلاماً وجملة »^(٤) : « ونعني بالمفيد ما يحسن السكوت عليه . وأن الجملة أعم من الكلام ، فكل كلام جملة ، ولا ينعكس »^(٥) . ومما ذكرنا يتبين أن الكلام والجملة « ليسا مترادفين كما يتوهم كثير من الناس »^(٦) . ويقول الدكتور مازن المبارك في توضيح كلام ابن هشام : « وأما الجملة عند جمهور النحاة فتعبير صناعي ، أو مصطلح نحوي لعلاقة إسنادية بين اسمين ، أو اسم وفعل ، سواء أتمت الفائدة بها أم لم تتم ، ولذلك فهي أعم من الكلام ، والكلام أخص منها »^(٧) . فإن قلت : النحو مفيد ، فقد أسندت الإفادة إلى اسحو ، وهذا الإسناد يجعل الكلمتين جملة ، وهما في الوقت نفسه موضوع ومحمول ، وهما أيضاً كلام لأنهما مفيدان فائدة يحسن السكوت عليها .

وإذا قلت : إن يفد النحو ، فقد أسندت يفد إلى النحو فالإسناد جعل الكلمتين جملة ، لكن الفائدة لم تتم بهما فهما ليسا بكلام . ولعلك لاحظت أن الجملة تكون اسمية

(٢) اللغة لفندريس ص ١٠٤ .

(٣) صواص المعرفة ، عبد الرحمن حسن حكمة اميداني ص ٢٠ دار القلم دمشق ١٩٩٣ م .

(٤) بكتة الإعراب لابن هشام ص ٣٦ تج د . غازي مختار صليمان دار طلاس دمشق ١٩٩٦ م .

(٥) الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام ص ٣٥ تج علي فوده بيل الرياض ١٩٨١ م .

(٦) مغني السيب لابن هشام ص ٤٩١ تج د . مارب اسارك ، ومحمد علي حمد الله وسعيد الأفغاني بيروت ١٩٧٩ م .

(٧) المباحث المرضية المتعلقة عن الشريعة لابن هشام ، تج : د . مارك المبارك ص ٥٠ دمشق دار ابن كثير ١٩٨٧ م .

كالمثال الأول، وتكون فعلية كالمثال الثاني، وقد تكون مركبة من جملتين إحداهما أكبر من الأخرى، فتكون الصغرى خبراً لمبتدأ الكبرى نحو: التعليم غايته التفهيم.

وخلاصة القول في تركيب الجملة أنها مسند ومسند إليه. فإن أحببت أن تزيد عليهما ألفاظاً تكمل المعاني كالمفاعيل والظروف كان لك ذلك، غير أن هذه الفضلات مهما تكثر لا تصنع جملة أخرى، ولا تجعل الجملة الواحدة جملتين. وعلى هذا الأساس الإسنادي قد تجد في كلام العرب جملة من حرف واحد كقولك لمن تطلب منه الوفاء: فـ فهذه الفاء بقية الفعل (وفي) أي المسند، وأنت الفاعل المستتر هو المسند إليه. وبالمقابل قد يمرُّ بك بيت كامل فلا تجد في شطريه على كثرة ألفاظهما جملة واحدة لخلوهما من الإسناد، كقول عمر أبي ريشة:

من نضال عائر مصطخب لنضال عائر مصطخب^(٨)

وتتميز الفعلية من الاسمية يستند إلى رتبة المسند ورتبة المسند إليه. فإن بدأت بالفعل وأتبعته الفاعل كقولك ظهر الحق فالجملة فعلية. وإن أخرت الفعل وقدمت المسند إليه فقلت: الحق ظهر انقلبت الصورة اللفظية، وبقي المعنى^(٩)، وهنا يختلف النحاة.

فالكوفيون يرجحون المعنى على المبنى، ولا يأبهون للرتب، ويقولون الحق هو الفاعل سواء أتقدم أم تأخر. والكوفيون يرجحون المبنى، ويقولون متى تغير الترتيب صحبه مقدار من التغير في المعنى. إنهم يتقيدون بالشكل، وينكرون بقاء الفاعل فاعلاً بعد تقدمه، ثم يلتمسون لتغير الترتيب في التركيب تغييراً في المعنى. ويقولون: إذا قدمت الاسم جعلته موضع الاهتمام، وإذا قدمت الفعل نقلت إليه بؤرة الاهتمام. إن همك في الاسمية إبراز الحق، وإن همك في الفعلية إبراز الظهور، وعلى هذا فجملة: الحق ظهر جملة اسمية، ومركز الاهتمام فيها المبتدأ.

ويظهر عوار الرأي البصري في تحيل الجملة المبدوءة باسم سبقتة أداة شرط كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾^(١٠). فهم لا يعدون السماء مبتدأ، خبره جملة انشقت على طريقته في تحليل الحق ظهر. ولا فاعلاً مقدماً لفعل انشقت المتأخر على طريقة الكوفيين في التحليل. بل يقدرون فعلاً للسماء وفاعلاً لانشقت فيجعلون الجملة الواحدة نصفي

(٨) ديوان عمر أبي ريشة ص ٤٤٢ دار العودة بيروت ١٩٨١

(٩) انظر جامع الدروس العربية ٢٣٨/٢ - ٢٤٠.

(١٠) الانشقاق ١.

جملتين ، ويذهبون إلى أن التقدير : انشقت السماء انشقت هي . وفي ذلك ما فيه من تكلف لا مسوغ له .

ويبدو من إحصاء الجمل العربية وقياس الاسمية إلى الفعلية أن الفعلية أشيع ، وأجل شأناً لأنها أحفل بالمعاني . والدليل على ما نذهب إليه أنك لو أحصيت جمل الأبيات الثلاثة الأولى من معلقة امرئ القيس : « قفا نبك ... » لوجدت فيها خمساً فعلية ، وجملة اسمية واحدة . ولعل كثرة الجمل الفعلية هي الدليل على أصالتها ، وعلى فرعية الجمل الاسمية . ولذلك يذهب بعض المستغلين بعلم المعاني إلى أن بين الجمل الاسمية جملاً محولة عن جمل فعلية . فقولك الحق ظهر محولة عن ظهر الحق . والباطل هُزم محولة عن : هزم الباطل ، والمخلصون يثيبهم الله محولة عن : يثيب الله المخلصين ^(١١) .

والجملة الاسمية المحولة عن الفعلية هي تلك التي صدرها اسم وعجزها فعل . أما التي صدرها وعجزها من الأسماء الخالصة كقوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ ^(١٢) فهي غير محولة . ويسمى أحد المستشرقين الجملة الاسمية احضة ، ويرى أنها تركيب قديم ، تفردت به اللغات السامية ، واقتقرت إليه اللغات الأوروبية ^(١٣) .

ومن يحلل بنية الجملة الإنكليزية يجد الفعل عنصراً أساسياً في تركيبها . سواء أكان فعلاً أساسياً نحو : He went to London أم من أفعال الكون الثانوية الرابطة بين اسمين نحو : The boy is lazy . وإذا عددنا كل جملة تبدأ بالاسم اسمية قلنا : ليس في الإنكليزية غير الجمل الاسمية ، أي : الجمل التي صدرها أسماء وأعجازها أفعال . فإن تصدر الفعل انقبت الجملة من الخبر إلى الاستفهام نحو : Are you going? وهذا النوع من الجمل يسمى الجمل البسيطة Simple Sentences ^(١٤) .

وإلى جانب الجمل البسيطة يستعمل الإنكليز ما يعرف باسم الجملة المركبة Compound Sentence ^(١٥) وهي مركبة من جملتين بسيطتين تربطهما أداة رابطة ، أو تفصل بينهما فاصلة إملائية من علامات الترقيم . نحو : She failed, for she never studied . وهذه الجمل بسيطها والمرك لا تبدأ بالأفعال ، فهي لذلك تعادل الجملة الاسمية الكبرى في اللغة العربية ، أي التي مبتدؤها اسم ، وخبرها جملة فعلية .

(١١) انصر مباحث في علم المعاني . محمد طاهر الحمصي ص ٣٤ وما بعدها . جامعة البعث حمص ١٩٨٧ م .

(١٢) البور ٣٥ .

(١٣) انظر التطور النحوي ، رحشتراسر ص ١٣٤ وما بعدها .

The guide to English Grammar page 131

(١٤)

(١٥) المصدر السابق ص ١٣٣ .

ولعل الفرق الجوهرى بين الجملتين العربية والإنكليزية هو اعتماد الإنكليزية على الترتيب في تمييز العامل من المعمول، واعتماد العربية على حركات الإعراب نحو ﴿وثيابك فطهر﴾^(١٦)، ونحو ﴿إن مع العسر يسراً﴾^(١٧). فإذا اختفت علامات الإعراب لم يكن بد من الاعتماد على الترتيب، نحو: زار أخى صديقى فالأخ الزائر، والصديق المزور. ويسمى الشكل الأول من الجمل النمط الإعرابى، لأن حركة الإعراب تحدد وظيفة الكلمة في الجملة. ويسمى الشكل الثانى النمط التحليلى لأن معرفة الوظيفة التى تقوم بها الكلمة في الجملة تنجم عن تحليل التركيب اللفظى. والنمط الإعرابى أشيع النمطين في لغة العرب لأنها لغة معربة، والنمط التحليلى هو الشكل السائد في اللغات الأوروبية لإهمالها الإعراب.

ويبدو أن اللسانيات الحديثة لم تر في التقسيم السابق للجمل إلا دراسة سطحية، لا يكشف عن تركيبها الدقيق، فعمدت إلى إعادة النظر في النحو التقليدي، وأعملت في التراكيب الإسنادية مباضع التشريح لتقف على العناصر الأساسية في بنائها. فكيف فهم اللسانيون المركبات الإسنادية، وما الطرائق التى اتبعوها في تحليلها؟

ثالثاً — طرائق اللسانيات في تحليل المركبات الإسنادية

إذا ألحقت كلمة (بك) بكلمة (بعل) صنعت من الكلمتين مركباً مزجياً هو: بعلبك. وإذا أضفت كلمة (بحر) إلى (الظلمات) أفضيت إلى مركب إضافي، هو: بحر الظلمات. وإذا وصفت البحر بالحمرة نجم عن صنيعة مركب وصفي، هو البحر الأحمر. غير أن كل تركيب من هذه التراكيب الثلاثة غدا كالكلمة الواحدة، لأنه بعد التركيب لم يحمل أكثر مما في الكلمتين المنفردتين، ثم فقد دلالة على معنيي الكلمتين حينما صار علماً لمدينة أو بحر. فأنت لا تفكر في حمرة إذا ذكرت البحر الأحمر. ولا يخطر لك الظلام إذا ذكرت بحر الظلمات.

أما إذا قلت: أظلم البحر، أو: البحر مظلم فقد نجم عن إسنادك الظلام إلى البحر تركيباً إسنادياً يحمل معنى جديداً، لا تجده في الظلام وحده، ولا في البحر وحده، هو إثبات الظلام لبحر. ولا يتم الإسناد عند النحاة والمناطق إلا بعنصرين: المسند الذى يسميه المنطقة المحمول، والمسند إليه الذى يسمونه الموضوع. وهذان العنصران متوافران في اللغات

(١٦) امثـل ٤.

(١٧) الاشرـاح ٦.

الإنسانية كلها أو جلها، وإن اختلفت اللغات فالخلاف في طرائق الإسناد لا في عناصره الجوهرية.

ولهذا عكف اللسانيون على تحليل التراكيب الإسنادية في مختلف اللغات لاعتقادهم أن أصول الإسناد متطابقة، وإن اختلفت الصور والفروع، وسلكوا في تحليلها ثلاثة اتجاهات، وهي الاتجاه الوظيفي Fonctionnalisme والاتجاه التوزيعي Distributionnalisme والاتجاه التوليدي التحويلي Transformational Generative System :

١ — الاتجاه الوظيفي

إذا كان اتباع المنهج الوصفي هو السمة الأولى للنحو الحديث، فإن هذا المنهج لا يغفل العلاقات التي تربط أجزاء الجملة، بل يُعنى بها كل العناية. وعنايته تلك تضيف إلى النحو الحديث سمة ثانية، وهي أنه نحو وظيفي، لأنه يقوم على إدراك الدور الذي تقوم به الكلمة في الجملة. وقيام كل كلمة من كلمات الجملة بوظيفتها يؤدي آخر الأمر إلى ظهور نظام خاص في رصف الألفاظ، يساعد على ترجمة الفكرة المتخلجة في ذهن المتكلم.

ولا يفهم من ذلك أن لمتكلم الحرية الكاملة في اختيار النظام الذي ينظم أجزاء الجملة، وإنما هو أسير العلاقات الثقافية واللغوية التي ترسم له أنظمة خاصة في رصف الكلمات. فالكلمة المفردة جزء من آلة صغيرة متعاونة هي الجملة، كما أن الفرد جزء من آلة كبيرة متعاونة هي المجتمع. وهذا يعني أن التحليل الوظيفي للجملة رهين البيئة اللغوية.

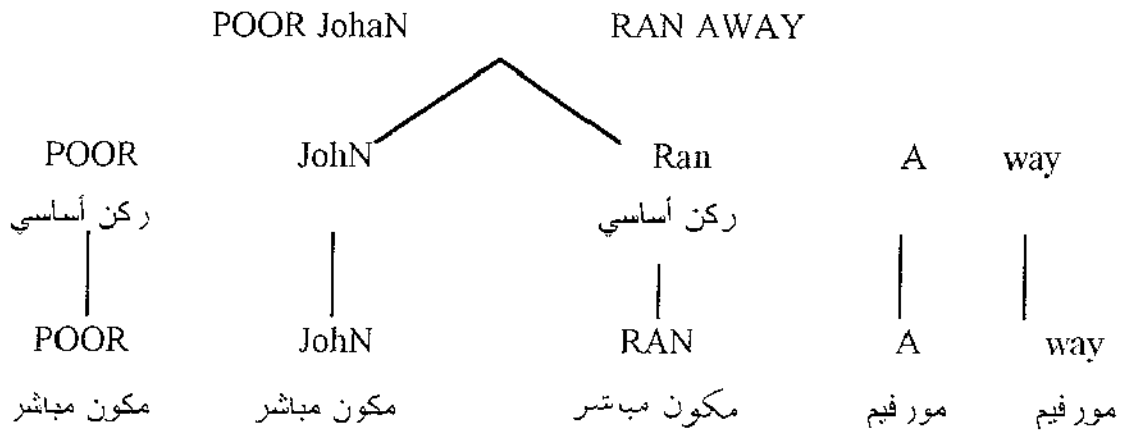
ويذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن تحليل الجملة — وإن كان يردّها إلى مسند ومسند إليه — لا يرتبط بالمعنى النحوي لطرفي الإسناد، أي: ليس شرط المسند أن يكون خبراً أو فعلاً، ولا شرط المسند إليه أن يكون مبتدأ أو فاعلاً، بل يتحدد كل منهما استناداً إلى ماثيره كل كلمة من كلمات الجملة من الانتباه. فالمسند، كما يرى الاتجاه الوظيفي، هو المعنى المألوف الذي لا يثير ذكره اهتمام المتكلم أو السامع. والمسند إليه هو المعنى غير المألوف المراد إفادة السامع بمعرفته. فإن قيل لك: أين شاهدت الثمر؟ فقلت: شاهدت الثمر في الغابة. فالفعل (شاهدت) عنصر ثانوي انتقالي، و (الثمر)، وإن كان مفعولاً به، هو المسند، لأنه معروف دلّ عليه سؤال السائل، و (في الغابة) هو المسند إليه، وإن لم يكن مبتدأ ولا فاعلاً. لأنه المعنى المقصود تحديده بالسؤال. وهم أهم ما في هذا التركيب. وبناء على هذا لم يبق التحليل معتمداً على الكشف عن ركني الإسناد: المبتدأ والخبر، أو الفعل والفاعل، بل أصبح التحليل معنياً بالكشف عما في الوحدة اللغوية من قدرة فعالة على الاتصال اللغوي Communicative Dynamism. وهنا تُختار الكلمة المثيرة، فتجعل

النواة المركزية المشعة في الجملة ، وتسمى المسند إليه الصريح ReHEME Proper^(١٨) .
 ومما تحسن الإشارة إليه ههنا أن الجملة لا تحلل معزولة عن السياق الذي وردت فيه ،
 بل تحلل على ضوء ما يكتنفها من عبارات تحدد نواتها . فلو لم تسمع السؤال عن مكان
 الثمر ، ما أدركت أن الغابة الواردة في الإجابة بؤرة الجملة ونواتها ، مع أن الغابة ليست المسند
 ولا المسند إليه وفق المفهوم النحوي التقليدي .

والوظيفية الغريبة ليسوا سواء في التحليل . فمنهم من يرى أن الفعل هو نواة
 الجملة ، وأن المسند إليه التقليدي (أي الفاعل أو المبتدأ) أقل شأنًا ، وأن الفاعل والمفعول معاً
 دون الفعل وحده مكانة وإثارة . فإذا قلت : الشاعر ينشد القصيدة ، ففعل الإنشاد لا الشاعر
 ولا القصيدة نواة الجملة^(١٩) .

٢ — الاتجاه التوزيعي

إن الأساس الذي بُني عليه الاتجاه التوزيعي هو أن اللغة كلها ، لا الجملة وحدها ،
 مبنية من لبنات أو وحدات مترافقة ، يمكن إدراكها ، وتميز بعضها من بعض بالتوزيع
 والتفريع . فإذا أردت أن توزع المثال الإنكليزي الذي ضربه بلومفيلد وهو : Poor John Ran
 Away فاقسمه إلى ركنين أساسيين ، ثم حلل كل ركن منهما إلى مورفيماته على النحو التالي :



(١٨) للاستزادة من التمرس بهذا النمط من التحليل راجع (مبادئ اللسانيات العامة) لمازنييه ص ١٢٣ .

(١٩) لتفصيل هذا الرأي انظر كتاب (مدخل إلى اللسانيات) لروبالد إيوار ص ١٢٢ ترجمة بدر الدين القاسم .

وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٨٠ م . ومبادئ اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص ٢٤١ .

وإذا أبيت إلا أن تجري هذا التوزيع على جملة عربية فدونك الجملة التالية:
الأطفال يحبون اللعب

لأطفال (ركن)	يحبون لعب (ركن)
الأطفال (مكون مباشر)	يحبون (مكون مباشر) اللعب (مكون مباشر)
أل (مورفيم + أطفال (مكون)	يحب (مكون + ون (مورفيم) أل (مورفيم) + لعب (مكون)

وليسست هذه الطريقة التوزيعية هي الشكل الوحيد الذي توصل إليه أصحاب هذا الاتجاه. فمنهم من وزع عناصر التركيب اللغوي توزيعاً هرمياً، ومنهم من فرعها على شكل شجرة، ومنهم من جعلها قوساً منحنية^(٢٠). وهذه الطرق التي شق الطريق الأولى منها بلومفيلد تهدف إلى تحقيق غاية واحدة، وهي أن يقف الباحث اللغوي على العناصر المكونة للتركيب. ومحصلة هذه الطرق أنك لو أردت أن تحاكي تركيباً منها لجأت إلى طريقة التعويض، فاستبدلت ببعض المكونات التي يشتمل عليها التركيب مكونات أخرى، فيتحصل لك تركيب جديد الفكرة، نغطي الشكل.

٣ - الاتجاه التحويلي التوليدي

مع أن الشهرة التي أصابها اللغوي الأمريكي تشومسكي^(٢١) A. N. Chomsky تعود إلى نظريته في النحو التحويلي التوليدي فإن في كتبه ثلاثة أنواع من النحو :
أولها نحو الحالة المحدودة Finite State وهذا النحو « يحاول أن يفهرس السلاسل النحوية للجمل »^(٢٢) . والفكرة الأساسية فيه « أن النحو يجب أن يكون مجموعة محدودة من القواعد تولّد عدداً غير محدود من الجمل التي تسير وفق القواعد »^(٢٣) .

وثانيها نحوُ التراكيب العباري Phrase Structure . وهذا النحو « يذهب وراء النحو ذي الحالة المحدودة . وهو يتكون من تحليل الجمل إلى الوظائف التركيبية Syntactic لكلماتها

(٢٠) لتوقف على هذه الطرق راجع: مدخل إلى الألسية، يوسف عازي ص ٢٢٤ وما بعدها.

(٢١) أفرام نعيم تشومسكي : لعوي أمريكي يهودي ، ولد سنة ١٩٢٨ في فلاديفستوك من ولاية سسلفيا . درس في جامعة سسلفيا ، ثم في جامعة هارفرد . كان يميل إلى النزعات انتصرفة كالموصوية ، ثم أصبح اشتراكياً . وهو يدعي أن لليهود وجوداً تاريخياً في فلسطين ، ويستند في إثبات هذا الوجود إلى أساطير التوراة (عن نصرية تشومسكي الدعوية) ترجمة حلمي خليل ص ١٣ — ١٥ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥ م

(٢٢) تشومسكي فكره اللعوي وآراء العقاد فيه ص ١٠٩ د. صبري إبراهيم السيد الإسكندرية ١٩٨٩ م.

(٢٣) تشومسكي فكره اللعوي وآراء النقاد فيه ، د. صري إبراهيم السيد ص ١٠٩ .

وعباراتها ، وتصنيف الكلمات باعتبارها أجزاء للكلام» (٢٤) .

« والنوع الثالث هو النحو التحويلي Transformational الذي أضيف إليه بعد ذلك النحو التوليدي ، فأصبح المصطلح الذي يعرف به Transformational Generative » (٢٥) وأهم ما يميز هذا النمط من النحو التوليّد الناجم عن التحويل ، أي : أنه « يولد جمل اللغة كلها من الجملة النواة Kernel ، وهي الجملة الخبرية البسيطة المبنية للمعلوم » (٢٦) مثل : The man hit the ball وهذه الجملة النواة ، أو قل : هذا الخيط الأساسي مصدر خيوط تتفرع منه ، إذ يمكن أن تستخلص من هذا التركيب الأساسي بالتوليد « الجملة المنفية Negative والجملة المبنية للمجهول Passive والجملة الاستفهامية Interrogative ... الخ » (٢٧) .

والتحليل التشومسكي يرد الجمل إلى مستويين : المستوى التركيبي Syntactic Level والمستوى الفونولوجي Phonological Level . والمقصود بالأول ردّ الجملة إلى كلمات متعاقبة في الجملة . وبالتالي ردها إلى فونيمات مترافقة ، أي : إلى وحدات صوتية . ومع أن الأساس الذي قام عليه نحو تشومسكي وصفيّ لفظي لا يأبه بدلالات الكلمات ، فإنه في الفترة الأخيرة أولى الجانب الدلالي حظاً من العناية في تحويله وتحليله للجملة .

جوهر هذا الأساس الوصفي أن تشومسكي يصف الطرائق التي يتم بها الانتقال من البنية العميقة للجملة Deep Structure إلى الشكل النهائي لها ، وهذا الشكل النهائي يسميه تشومسكي البنية السطحية Surface Structure . ولما كان التحويل والتوليد يفتحان أمام الجملة العميقة طرائق متعددة في التركيب ، فقد كبرت التراكمات السطحية ، وتعددت أنماطها وصورها . فمن الجملة الإنكليزية التي ذكرناها قبل ، وهي The man hit the ball نستطيع أن نولد بالتحويل جملاً كثيرة سطحية منها :

- 1) Did the man hit the ball?
- 2) The man did not hit the ball.
- 3) The ball was not hit by the man.

كما نستطيع أن نصوغ عبارات أخرى كثيرة منها :

- 4) Who hit the ball?
- 5) If the man hit the ball.
- 6) The man is hitting the ball.

(٢٤) المصدر السابق ص ١١١ .

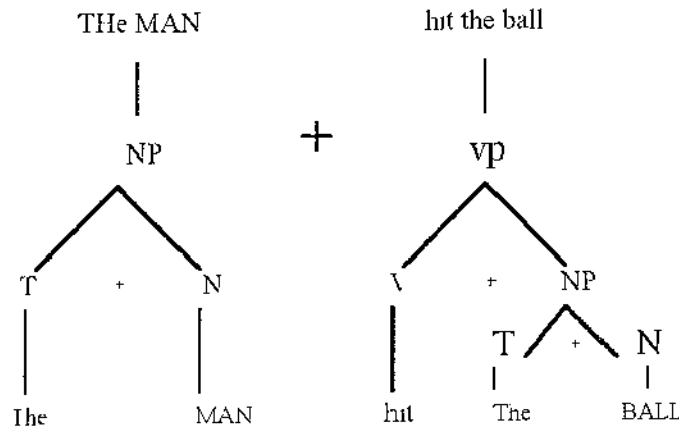
(٢٥) المصدر السابق ص ١١٢ .

(٢٦) المصدر السابق ص ١١٢ .

(٢٧) المصدر السابق ص ١١٢ وما بعدها .

ولو أدخلت في نسيج العبارة الأصلية خيوطاً لفظية أخرى كالصفات والظروف وحروف الجر لوصلت إلى صور عديدة من جمل وعبارات تدل على مبلغ الثراء الذي ينطوي عليه هذا الأسلوب التحويلي التوليدي^(٢٨).

بتحليل الجملة الأساسية وردها إلى عناصرها الأولى تستطيع أن تردها إلى مركبين أساسيين: أولهما مركب اسمي هو the man ورمزه التحليلي NP والثاني مركب فعلي وهو مع الاسم المرتبط به: Hit the ball ورمزه VP وبعد هذه الخطوة تأتي الخطوة الثانية، وهي أن تفرع الجملة كلها على النحو المشجر التالي^(٢٩).



وبعد أن طور تشومسكي آراءه، وأدخل العناصر الدلالية في قواعده التحويلية التوليدية تعددت أنماط التحليل لديه ولدى مريديه، فحفلت كتبهم بأشكال من التحليل مشجرة ومدورة، ومربعة ومفرعة تطلب في مظانها من كتبه وكتب من درسه^(٣٠). وحسبنا ههنا تلك الإطلالة السريعة على تحليل تشومسكي وتحويله وتوليده، لئلا تخرج بنا الإطلالة إلى الإطالة، والإطالة إلى الملالة، أو إلى الانتقال من علم اللغة العام إلى اللسانيات الحديثة.

رابعاً — معنى الزمن بين الصرف والنحو

يعد الزمن معنى من المعاني النحوية المجردة. وهو يخالط الفعل، فيقيّد وقوعه بوقت من الأوقات. ولكل لغة أسلوبها في تحديد الزمن، غير أن اللغات — على اختلافها في تحديد

(٢٨) المصدر السابق ص ١١٦.

(٢٩) عن كتاب نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز ص ١٢٦ ترجمة حسي حليل.

(٣٠) من هذه الكتب نظرية تشومسكي اللغوية ص ١٤٩، ١٥٨ والنسائية التحويلية التوليدية لعادل فاحوري ص ٦١ وما بعدها.

الأزمنة وتقسيمها — تتفق في الخطوط العريضة للتحديد والتقسيم . فأكثر اللغات تصرف الأفعال تصريفاً Conjugation يوزعها على ثلاثة حقول زمنية وهي الماضي والحاضر والمستقبل .

الحاضر أضيق الحقول الزمنية، ومعناه في العربية اللحظة الفاصلة بين الماضي والمستقبل . والظرف الدال عليه هو (الآن) ، وتعرفه كتب اللغة بأنه «الوقت الذي أنت فيه»^(٣١) . والماضي كل ما سبقه من الأزل إلى زمان التكلم، أي إلى الآن . والمستقبل كل ما يلحقه من الآن إلى الأبد بلا تفصيل .

وصيغ الزمن الفعلية الأساسية ثلاث هي : فَعَلَ ، يفعل ، افعلْ . ويمكن تحويل (يفعل) من الحاضر إلى المستقبل بالقرائن كالسين وسوف ، أو بالسياق . فهل معنى ذلك أن الأزمنة في اللغة العربية تفتقر إلى الدقة ، وإلى التقسيم المتنوع كما يدعي بعض المستشرقين ؟ وهل إحساس الإنسان العربي بالزمن هاجسٌ باهت ، أو طائف غائم الحدود متداخل الأوقات ؟

قبل أن نجيب عما سألنا يحسن بنا أن نعرض للأزمنة في اللغة الإنكليزية ، زاعمين أنها تمثل الثراء اللغوي الزمني في اللغات الأوروبية التي تباهي بتنوع الأزمنة وتصريفها المفصل للأفعال ، وما يفضي إليه هذا التصريف من توزيع منسق دقيق ، يجعل كل حقل من الحقول الزمنية الكبرى أربعة حقول صغرى على النحو التالي :

١ — الزمن الحاضر وهو أربعة فروع :

The Present Tense: I Walk

أ — الحاضر البسيط

The Present Perfect Tense: I Have Walked

ب — الحاضر التام

The Present Continuous Tense: I Am Walking

ج — الحاضر المستمر

The Present Perfect Continuous Tense: I Have Been

د — الحاضر المستمر التام

Walking

٢ — الزمن الماضي وهو أربعة فروع أيضاً :

The Simple Past: I Walked

أ — الماضي البسيط

The Past Perfect: I Had Walked

ب — الماضي التام

(٣١) القاموس المحيط [أين] .

(٣٢) قسنا هذا التصريف للفعل بحسب الأزمنة من كتاب :

The Past Continuous: I Was Walking

ج — الماضي المستمر

The Past Perfect Continuous: I Have Been Walking

د — الماضي التام المستمر

٣ — الزمن المستقبل وهو كسابقيه أربعة فروع :

The Simple Future: I Will Walk

آ — المستقبل البسيط

The Future Perfect: I Will Have Walked

ب — المستقبل التام

The Future Continuous: I Will Be Walking

ج — المستقبل المستمر

The Future Perfect Continuous: I Will Have Been

د — المستقبل التام المستمر

Walking

وبالنظر العجلى إلى هذا التقسيم المتعدد الفروع يتبين للقارئ أن في الإنكليزية اثني عشر فرعاً . وهذا يعني أن الإنكليزية أحفل بالصيغ الزمنية من العربية . فإذا جعلنا الإنكليزية نموذجاً يمثل اللغات الهندية الأوروبية ، والعربية نموذجاً يمثل اللغات السامية كان علينا أن نتقبل ما ترمى به اللغات السامية من فقر لغوي في هذا الجانب من التصريف ، وأن نتقبل ما يُرمى به الفكر السامي من نقص في إدراك الزمن . وعجز عن تقسيمه والتمرس به ، غير أن الأمر أعقد مما تقفنا عليه النظرة العجلى .

لو كان الزمن في العربية معنى صرفياً خالصاً يستنبط من الصيغ الفعلية وحدها لكان علينا أن نتقبل ما نرمى به ، وأن ندرس الزمن في أثناء دراستنا لصيغ الصرفية على النحو المتبع في أكثر الدراسات اللغوية . غير أن لمسألة وجهين : وجهاً صرفياً طغى على اللغة الإنكليزية ، وهو يتجلى في الصيغ التي سقناها بين يدي البحث متوازنة كأنها معادلات الرياضيات . ووجهاً نحوياً يتجلى في العربية . إذ تستطيع لغتنا بالتراكيب والقرائن والأدوات أن تترجم المراحل الزمنية ترجمة دقيقة ، تماثل أو تبرز ما يقابلها في أكثر اللغات احتفالاً بالزمن . ولذلك آثرنا أن ندقق دراسة الزمن بالجانب النحوي ، أو أن نشرك النحو والصرف في دراسته والكشف عن أسرارهِ .

ولا نبالغ إذا زعمنا أن الزمن في العربية يخالط أقسام الكلام الثلاثة : الاسم والفعل والحرف . وأن هذه المخالطة تتجلى في حقول الزمن الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل . فأنت تستطيع أن تجد معنى الزمن على درجات متفاوتة في الأسماء والأفعال والحروف .

فأسماء الأفعال قد تعبر عن الماضي ومنها : هيات وشتان ، وعن الحاضر . ومنها : آه وأف ، وعن المستقبل ، ومنها صه ومه . والمصادر قد تعبر عن الحاضر كسبحانك ولييث وعن المستقبل كرويدك . وكتب النحو نصت على أن « اسم الفاعل جار على معنى الفعل المضارع

الأزمنة وتقسيمها — تتفق في الخطوط العريضة للتحديد والتقسيم. فأكثر اللغات تصرف الأفعال تصرفاً Conjugation يوزعها على ثلاثة حقول زمنية وهي الماضي والحاضر والمستقبل.

الحاضر أضيق الحقول الزمنية، ومعناه في العربية اللحظة الفاصلة بين الماضي والمستقبل. والظرف الدال عليه هو (الآن)، وتعرفه كتب اللغة بأنه «الوقت الذي أنت فيه»^(٣١). والماضي كل ما سبقه من الأزل إلى زمان التكلم، أي إلى الآن. والمستقبل كل ما يلحقه من الآن إلى الأبد بلا تفصيل.

وصيغ الزمن الفعلية الأساسية ثلاث هي: فَعَلَ، يفعل، افعل. ويمكن تحويل (يفعل) من الحاضر إلى المستقبل بالقرائن كالسين وسوف، أو بالسياق. فهل معنى ذلك أن الأزمنة في اللغة العربية تفتقر إلى الدقة، وإلى التقسيم المتنوع كما يدعي بعض المستشرقين؟ وهل إحساس الإنسان العربي بالزمن هاجسٌ باهت، أو طائف غائم الحدود متداخل الأوقات؟

قبل أن نجيب عما سألنا يحسن بنا أن نعرض للأزمنة في اللغة الإنكليزية، زاعمين أنها تمثل الثراء اللغوي الزمني في اللغات الأوروبية التي تباهي بتنوع الأزمنة وتصريفها المفصل للأفعال، وبما يفضي إليه هذا التصريف من توزيع منسق دقيق، يجعل كل حقل من الحقول الزمنية الكبرى أربعة حقول صغرى على النحو التالي:

١ — الزمن الحاضر وهو أربعة فروع:

The Present Tense: I Walk

أ — الحاضر البسيط

The Present Perfect Tense: I Have Walked

ب — الحاضر التام

The Present Continuous Tense: I Am Walking

ج — الحاضر المستمر

The Present Perfect Continuous Tense: I Have Been Walking

د — الحاضر المستمر التام

٢ — الزمن الماضي وهو أربعة فروع أيضاً:

The Simple Past: I Walked

أ — الماضي البسيط

The Past Perfect: I Had Walked

ب — الماضي التام

(٣١) القاموس المحيط [أين].

(٣٢) قسنا هذا التصريف للفعل بحسب الأزمنة من كتاب:

The Past Continuous: I Was Walking

ج — الماضي المستمر

The Past Perfect Continuous: I Have Been Walking

د — الماضي التام المستمر

٣ — الزمن المستقبل وهو كسابقيه أربعة فروع :

The Simple Future: I Will Walk

آ — المستقبل البسيط

The Future Perfect: I Will Have Walked

ب — المستقبل التام

The Future Continuous: I Will Be Walking

ج — المستقبل المستمر

The Future Perfect Continuous: I Will Have Been Walking

د — المستقبل التام المستمر

وبالنظر العجلى إلى هذا التقسيم المتعدد الفروع يتبين للقارئ أن في الإنكليزية اثني عشر فرعاً . وهذا يعني أن الإنكليزية أحفل بالصيغ الزمنية من العربية . فإذا جعلنا الإنكليزية نموذجاً يمثل اللغات الهندية الأوروبية ، والعربية نموذجاً يمثل اللغات السامية كان علينا أن نتقبل ما ترمى به اللغات السامية من فقر لغوي في هذا الجانب من التصريف ، وأن نتقبل ما يرمى به الفكر السامي من نقص في إدراك الزمن ، وعجز عن تقسيمه والتمرس به ، غير أن الأمر أعقد مما تقفنا عليه النظرة العجلى .

لو كان الزمن في العربية معنى صرفياً خالصاً يستنبط من الصيغ الفعلية وحدها لكان علينا أن نتقبل ما نرمى به ، وأن ندرس الزمن في أثناء دراستنا للصيغ الصرفية على النحو المتبع في أكثر الدراسات اللغوية . غير أن للمسألة وجهين : وجهاً صرفياً طغى على اللغة الإنكليزية ، وهو يتجلى في الصيغ التي سقناها بين يدي البحث متوازنة كأنها معادلات الرياضيات . ووجهاً نحوياً يتجلى في العربية . إذ تستطيع لغتنا بالتراكيب والقرائن والأدوات أن تترجم المراحل الزمنية ترجمة دقيقة ، تماثل أو تبرز ما يقابلها في أكثر اللغات احتفالاً بالزمن . ولذلك آثرنا أن نلحق دراسة الزمن بالجانب النحوي ، أو أن نشرك النحو والصرف في دراسته والكشف عن أسرارهِ .

ولا نبالغ إذا زعمنا أن الزمن في العربية يخالط أقسام الكلام الثلاثة : الاسم والفعل والحرف . وأن هذه المخالطة تتجلى في حقول الزمن الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل . فأنت تستطيع أن تجد معنى الزمن على درجات متفاوتة في الأسماء والأفعال والحروف .

فأسماء الأفعال قد تعبر عن الماضي ومنها : هيات وشتان ، وعن الحاضر . ومنها : آه وأف ، وعن المستقبل ، ومنها صه ومه . والمصادر قد تعبر عن الحاضر كسبحانك ولبيك وعن المستقبل كرويدك . وكتب النحو نصت على أن « اسم الفاعل جار على معنى الفعل المضارع

ولفظه» (٣٣) أي : أنه يحمل معنى الزمنين الحاضر والآتي . فإذا قلت لمن يسألك عن حالك : إني مسافر ، فالمعنى سأسافر . وكتب النحو نصت أيضاً على أن اسم الفاعل النكرة يعمل فيما بعده حينما « يكون بمعنى الحال والاستقبال » (٣٤) . وفي هذا النص دليل قاطع على ما فيه من عناصر الزمن . ولذلك سمى الكوفيون اسم الفاعل : الفعل الدائم . « قال ثعلب : الفراء يقول : (قائم) فعل دائم ، لفظه لفظ الأسماء لدخول علامات الأسماء عليه ، ومعناه معنى الفعل » (٣٥) .

وإذا خطر لك أن تنقض ما زعمنا فتقدر قبل المصادر أفعالاً تحمّلها معنى الزمن ، فاسم الفاعل يفرض هذا التقدير لأن زمانه فيه ، فما حاجته إلى زمان الفعل ؟
وأما الحروف ففي العربية منها ما يباشر الفعل الحاضر فيخلصه للحاضر ، ومنها ما يقلبه ماضياً ومنها ما يجعله مستقبلاً . فالحرفان (لا) و (ما) في نحو : لا يحسن أن تجامل الكذاب ، وما يحسن بك أن تجامله خلصا الفعل للحاضر . و (لم) في نحو : لم أكذب قط جعلته ماضياً ، و (لن) في نحو : لن أخادع أحداً جعلته مستقبلاً . و (لما) في نحو لما تشرق اشمس ، جعلت الفعل متوقع الحصول في المستقبل القريب ، و (السين) في نحو : سأقرأ ، تجعل الحاضر مستقبلاً قريباً من الحاضر ، و (سوف) في نحو : سوف أرحل تبعد المستقبل عن الحاضر . وأداة الشرط (إذا) تجعل الفعلين الماضيين بعدها مستقبلين كقول طرفة بن العبد :

إذا ابتدر القوم السلاح وجدتنني منيعاً إذا بليت قوائمه يدي (٣٦)
وقد يتناول المستقبل بعد (إذا) حتى يبلغ — وفعله ماض — آخر العمر في نحو : ﴿ كلاً إذا بلغت التراقي ﴾ (٣٧) ، وآخر الدهر في نحو : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ (٣٨) .
وإذا جاوزنا الأسماء والحروف إلى الأفعال وجدنا فيها دلالات زمانية كثيرة التنوع ، لا تدل عليها الصيغة الصرفية وحدها ، بل يدل عليها معها السياق والأسلوب والأغراض

(٣٣) جامع الدروس العربية للعلاسي ١ ١٨٦ .

(٣٤) المصدر السابق ٣ ٢٨٢ .

(٣٥) مجالس العلماء لبرحاحي ص ٣٤٩ بح عبد السلام محمد هارون الكويت ١٩٦٢ م .

(٣٦) ديوان طرفة بن العبد ص ٣٨ . وهذا البيت هو البيت السابع والتمنون من معبقة . انظر الديوان ص ١٩٦٢ م . بيروت .

(٣٧) القيامة ٢٦ .

(٣٨) الاشفاق ١ .

البلاغية . فإبرام العقود في البيع والزواج يتم بصيغة الماضي ، والإبرام حاضر . وجمل الدعاء ، في نحو : رعاك الله ، لفظها لفظ الماضي ، ومعناها منصرف إلى المستقبل . والمستقبل المؤكد الوقوع يعبر عنه بلفظ الحاضر ليمثل بين عيني المخاطب فيتعظ به ، كقوله تعالى : ﴿ إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة ﴾ (٣٩) .

ومن الإقرار بالحق ، ومن باب عزو الإنصاف إلى ذويه أن نذكر في حديثنا عن المستشرقين أن بينهم من تفقهوا في نحو العربية ، وعلى رأسهم برجشتراسر ، وهؤلاء كشفوا عما في الأزمنة العربية من تنوع ، وما فيها من دقائق وأبعاد تفوق ما في اللغات الغربية في بعض الأشياء (٤٠) .

وربما كانت الدلالات الزمنية التي توصل إليها الدكتور تمام حسان الدليل القاطع على ما زعمنا ، وعلى ما ذهب إليه برجشتراسر وأمثاله حينما درسنا ودرسوا معنى الزمن في التراكيب النحوية ، ولم ندرسه في الصيغ الصرفية ، لأن الألفاظ المتكاملة في التركيب النحوي أقدر على تجلية الأبعاد الزمنية من الصيغة الصرفية المفردة . استعان الدكتور تمام حسان الأدوات والأفعال الناقصة التي تقارب الأفعال المساعدة في اللغة الإنكليزية ، وتوصل إلى تقسيم زمني للأفعال يفوق ما في الإنكليزية ويربو على أزمنتها الاثني عشر التي ذكرناها قبل . وحسبنا أن نذكر منها ههنا الصور الزمنية الخاصة بالفعل الماضي ، وأن نحيل المستزيد إلى كتابه ليقف على الصور الزمنية كلها (٤١) .

آ — في الكلام الخبري : ب — في الكلام الإنشائي الاستفهامي :

- ١ — الماضي البعيد المنقطع : كان فعل . ١ — هل كان فعل ؟ ألم يكن فعل ؟
- ٢ — الماضي القريب المنقطع : كان قد فعل . ٢ — هل كان قد فعل ؟ ألم يكن قد فعل ؟
- ٣ — الماضي المتجدد : كان يفعل . ٣ — هل كان يفعل ؟ ألم يكن يفعل ؟
- ٤ — الماضي المنتهي بالحاضر : قد فعل . ٤ — أقد فعل ؟ أما فعل ؟
- ٥ — الماضي المتصل بالحاضر : ما زال يفعل . ٥ — أما زال يفعل ؟ ألما يفعل ؟
- ٦ — الماضي المستمر : ظل يفعل . ٦ — هل ظل يفعل ؟ ألم يفعل ؟
- ٧ — الماضي البسيط : فعل . ٧ — هل فعل ؟ ألم يفعل ؟

(٣٩) الحل ١٢٤ .

(٤٠) التطور الحوي ص ٨٩ وما بعدها .

(٤١) انظر اللغة العربية معاه ومساها ، د . تمام حسان ص ٢٤٦ — ٢٥٢ .

٨ — الماضي المقاربي : كاد يفعل . ٨ — هل كاد يفعل ؟ ألم يكذ يفعل ؟

٩ — الماضي الشرعي : طفق يفعل . ٩ — هل طفق يفعل ؟ أليس يفعل ؟

ومن يقرن تفرع الزمن الماضي في اللغة الإنكليزية إلى أربعة فروع بما توصل إليه الدكتور تمام حسان يدرك أن I Walked يقارب الفعل العربي : مشيت ، أو الماضي المنتهي بالحاضر : قد مشيت . وأن الماضي المستمر I Was Walking يقارب الماضي المتجدد : كنت أمشي . وأن الماضي التام المستمر I Had Been Walking يقارب الماضي المستمر : ظللت أمشي .

وهكذا تبين بالدرس المقارن المشفوع بالأمثلة أن أربعة الفروع التي تتفرع من الزمن الماضي في اللسان الإنكليزي ليست أكثر من نصف الأزمنة التي ينطوي عليها الزمن الماضي في اللسان العربي ، وأن معنى الزمن في لغتنا لا يستنبط من الصيغ الصرفية وحدها ، بل يستنبط منها ومن التراكيب والأدوات والقرائن .

الباب السابع

الجنب الدالي

الجانب الدلالي

أولاً - تمهيد

لا يعد الباحثون المحدثون دراسة المعنى أي : دراسة الجانب الدلالي من اللغة فرعاً من فروع الدراسات اللغوية فحسب ، بل يعدونه أهم هذه الفروع على الإطلاق . ولذلك سماه بعضهم « قمة الدراسات اللغوية ، ورأى أنه يشغل المتكلمين جميعاً على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الفكرية ، لأن الحياة الاجتماعية تلجئ كل متكلم إلى النظر في معنى هذه الكلمة أو تلك ، وهذا التركيب أو ذاك . وهكذا أدلى كل متكلم تقريباً بدلوه في هذه المشكلة الخطيرة »^(١) .

وقبل أن ننظر فيما أدلى به أصحاب بدلاء يحسن بنا أن نشير إلى أن مصطلحي (المعنى) و (الدلالة) متقاربان في التراث العربي الإسلامي ، وأن مصطلح الدلالة كاد يطغى على مصطلح المعنى في الدراسات اللغوية الحديثة ، غير أن طغيانه لا يعني أنه أدل من المعنى على ما وضع له . إن سألت المعاجم أجاب القاموس المحيط : « دله عليه دلالة ، ويُثَلَّث ، ودُلُولَةٌ فاندل : سدده إليه »^(٢) . وإن سألت المعنيين بالحدود أجابك علي بن محمد الجرجاني [ت : ٨١٦ هـ] بأن المعنى ما يقصد بشيء ، وبأن الشيء ما يجوز أن يخبر عنه ، وتصح الدلالة عليه . وإن استوضحت النقاد قال حازم القرطاجني [ت : ٦٨٤ هـ] في تعريف المعاني : « إنها الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان »^(٣) . أما تعريفات المتكلمين فقد اصطبغت بصبغة فلسفية لاشتغالهم بالمنطق . قال عبد

(١) علم اللغة ، د . محمود السعراي ص ٢٦١ .

(٢) القاموس المحيط [د] .

(٣) منهاج البغاء وسراج الأدياء لحازم القرطاجني ص ١٨ تح محمد الحبيب بن اخوثة تونس ١٩٦٦ م .

الرحيم بن الحسين الأسنوي [ت: ٧٧٢هـ]: «الدلالة هي أن يلزم من فهم الشيء فهم شيء آخر»^(٤). وأما علماء الأصول في المذهب الحنفي، فقد ظل فهمهم للدلالة مرتبطاً باللغة على ما عُرفوا به من عنايتهم بالمنطق والقياس، فهم يرون أن الدلالة تأتي من جهة اللغة عن طريق المعنى بدلالة سياق الكلام ومقصوده^(٥).

وسواءً أكانت الدلالة مرادفة للمعنى أم أعمّ منه، فإننا لن نفرق بينهما في هذا البحث، ولكننا — تأسيساً بما درجت عليه الدراسات الحديثة — نلتزم ما التزمنا، ونؤثر مصطلح الدلالة على مصطلح المعنى في هذا الجانب من الدرس اللغوي.

ثانياً — مكانة الدرس الدلالي في تراثنا اللغوي

لانبالغ إذا قلنا إن القمّة التي تسنّمها الجانب الدلالي في العصر الحاضر أمر قديم أدركه علماؤنا حينما أولوه ما يستحق من الدرس. ولقد وقفتك الفقرة السابقة على أن الاهتمام بدلالات الألفاظ لم يقتصر على فرع واحد من فروع التراث، وهو الدرس اللغوي، بل كاد يشمل العلوم كلها من فقه، وكلام، وأصول، وبلاغة، ونقد، ونحو. غير أن اللغويين كانوا أوسع المشتغلين به أفقاً، وأغزرهم مادة، وأخصبهم نتائجاً ونتائج. وربما كان صنع المعاجم ابتداءً من معجم العين للخليل أول المظاهر وأدناها على ما نقول. وليس من المستغرب أن يكون للغويين قصب السبق في هذا الميدان، لأن فهم التراث كله مرهون بالتحديد الدقيق لمعاني الألفاظ.

يلي ذلك الميل إلى جمع الألفاظ وفق ترتيب فكري، أي سردها تبعاً لانتماؤها إلى موضوع واحد. ألف أبو عمرو الشيباني [ت: ٢٠٦هـ] كتاب الإبل، وكتاب النحل والعسل^(٦)، وألف الأخفش الأوسط [ت: ٢١١هـ] في صفات الغنم وألوانها وعلاجها وأسنانها^(٧)، وألف الأصمعي [ت: ٢١٣هـ] كتاب الشاء^(٨)، وألف أبو نصر أحمد بن حاتم [ت: ٢٣١هـ] كتاب الطير^(٩)، وألف ابن السكيت [ت: ٢٤٤هـ] منطق

(٤) نهاية السؤل في شرح مهارج الأصول للأسنوي ١٨٧/١ طبعة صيخ.

(٥) مهارج الأصوليين في طرق دلالات الألفاظ على الأحكام د. خليفة بابكر الحسن ص ١٧٧ مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨٩ م.

(٦) الدراسات اللغوية عند العرب، محمد حسين آل ياسين ص ١٩٨ — ١٩٩ مكتبة الحياة بيروت ١٩٨٠ م.

(٧) المصدر السابق ص ١٩٩.

(٨) المصدر السابق ص ١٩٩.

(٩) المصدر السابق ص ١٩٩.

الطير^(١٠). ومن يستعرض فهرست ابن النديم، وكتب الرجال والطبقات يظفر بأضعاف ما ذكرنا. ومع أن أكثر هذه الكتب مفقود، فالعنوانات وحدها تدل على كثرة المؤلفات، وتنوع الموضوعات.

ثم تحولت هذه الرسائل إلى كتب جامعة، تعرف بمعاجم المعاني، أبرزها فقه اللغة لأبي منصور الثعالبي [ت: ٤٢٩هـ] والمختصر لابن سيده [ت: ٤٥٨هـ]. ويعد المختصر أوسع ما صنف في هذا الباب، وهو محصلة لكل ما جمع الأقدمون من كتب ورسائل، وموسوعة لغوية ضخمة صبت فيها قرائع اللغويين.

وثالث المظاهر التي يتبدى فيها اهتمام العرب بعلم الدلالة صنع المعاجم على أساس الاشتقاق، وأبرز هذه المعاجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس اللغوي [ت: ٣٩٥هـ]، ثم صنعها على أساس التمييز بين الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي للألفاظ، وأبرز ما صنف من هذا النمط أساس البلاغة لجار الله الزمخشري [ت: ٥٣٨هـ].

ورابعها الدراسات المتعددة الوجوه للظواهر اللغوية من ترادف، واشتراك، وتضاد. وتتبع لتطور الدلالات، وهي تنتقل من عصر إلى عصر. وأحسن الكتب التي تعقبت تطور الألفاظ من العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي ورصدت معانيها وهي تتغير كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي [ت: ٣٢٢هـ].

وخامسها ما حرص عليه علماء الأصول من توضيح دقيق لمعاني الألفاظ خوفاً من الخطأ في فهم الكتاب والسنة. ومن يتعقب كتب الأصول يجد الضوابط والقواعد الدقيقة تقيد الألفاظ ليكون تأويلها مستنداً إلى أصول علمية.

وسادسها الدراسات الفنية التي برع فيها أحمد بن فارس [ت: ٣٩٥هـ] وابن جني [ت: ٣٩٢هـ]. وأدق هذه الدراسات وأجملها تلك المحاولة التي حاولها ابن جني، وهي ربط المعاني بالأصوات في عدة أبواب من خصائصه، أبرزها (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني)^(١١)، و (باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)^(١٢).

وسابعها دراسة الأدوات النحوية. وهذه الدراسة جاءت ثمرة لتعاون الأصوليين والنحاة، وهدفت إلى التحديد الدقيق لمعانيها، ليكون استخلاص الأحكام من النصوص مستنداً إلى فهم دقيق يلتقي عنده الفريقان. ولهذا السبب تقع على فصول في كتب الأصول

(١٠) المصدر السابق ص ١٩٩.

(١١) الخصائص لاس جني ١٥٢/٢ — ١٦٨.

(١٢) المصدر السابق ١٤٥/٢ — ١٥٢.

وقفها مؤلفوها على دراسة الأدوات ، وعلى كتب كاملة مفصلة مطولة وقفها النحاة على الأدوات ، منها الأزهية ، والجنى الداني ، ومغني اللبيب .

لم تكن سبعة المظاهر السابقة إحصاء ولا تأريخاً للمباحث الدلالية التي عالجها علماؤنا ، وإنما كانت عرضاً سريعاً للمرور بأبرز الموضوعات التي درسوها . وغرضنا من هذا العرض أن نثبت قدم التفكير الدلالي عند العرب ، وتنوع أغراضه ، وكثرة آثاره ، فما تاريخ هذا العلم في النهضة الأوروبية ؟ ومن أشهر الأعلام الذين أسهموا في تطوره ؟

ثالثاً — تاريخ علم الدلالة الحديث

يجمع الباحثون المعنيون بتاريخ هذا الفرع من علوم اللغة على أن الباحث الفرنسي ميشيل بريل M. BRÉAL هو الباحث الأول الذي خطا الخطوة الأولى في الطريق المفضي إلى علم الدلالة ، وعلى أنه هو الذي سماه باسمه Semantique أو Semantics . ثم يختلفون في طبيعة هذه الخطوة ومداهما وزمانها . فمنهم من يقول : إنها مقال نشر سنة ١٨٨٣ م ، ومنهم من يقول إنها كتاب نشر سنة ١٨٩٧ م^(١٣) .

ويبدو أن ما نشره بريل لم يكن أثراً واحداً يختلف الناس في اسمه وحجمه ، بل كان أثرين يفصل بينهما أربعة عشر عاماً : أولهما المقال الموجز المنشور سنة ١٨٨٣ م . وثانيهما الكتاب المفصل سنة ١٨٩٧ م وكلاهما في موضوع واحد ، هو علم الدلالة^(١٤) .

وبعد أن تُرجم ما كتبه بريل من الفرنسية إلى الإنكليزية ظهرت بحوث وكتب إنكليزية اللغة ، أبرزها (معنى المعنى) للناقلين : أوغدن وريتشاردز Ogden and Richards . وأجل فائدة قدمها هذا الكتاب هي « أنه وضع أجلى توضيح ما تتصف به مشكلة طبيعة المعنى من تعقيد »^(١٥) ، وأنه نقل بذور هذا العلم من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية . حينئذ فشت فاشية البحث الدلالي في أوروبا وأمريكا ، وشارك فيه باحثون باررون ، منهم نيروب Nyrop ودو سوسير De Saussure وأنتوني ميه A. Meillet وأولمان S. Ulmann وبنومفيلد Bloomfield رائد المدرسة السلوكية^(١٦) وفيرث Firth رائد المدرسة الاجتماعية

(١٣) انظر علم اللغة وفقه اللغة ، د . عبد العزيز مطر ص ٤٥ ومبادئ السانيات ، د . أحمد محمد فدور

ص ٢٨٠ ، وعلم اللغة د . محمود السعرا ص ٢٩١ .

(١٤) انظر فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك ص ١٥٧ .

(١٥) علم اللغة ، د . محمود السعرا ص ٢٩٤ .

(١٦) المصدر السابق ص ٣٠٤ .

الإنكليزية^(١٧) .

ثم انتقل البحث الدلالي من ميدان اللغة إلى ميدان العلوم التجريبية والسياسية . فآلف بردغمان P. W. Bridgman^(١٨) كتاباً عنوانه منطق الفيزياء الحديثة ، درس فيه ما يصيب الكلمات من تغير في الدلالات حينما تنتقل من الاستعمال اليومي العام إلى الميدان العلمي المتخصص . وآلف ثورمان أرنولد Th. Arnold^(١٩) فولكلور الرأسمالية ، حلل فيه بأسلوب ساخر طائفة من الألفاظ السياسية والإدارية المسيطرة على عقول الناس . وحلل ألفرد كورتسبسكي A. Korzybski^(٢٠) في كتابه (العلم وسلامة العقل) ما يتركه الاستعمال المغلوط للألفاظ من أثر سيء في التفكير . وتابعه تلميذه ستيورات تشيز S. Chase فتحدث عن حاجة الناس إلى توضيح معاني الألفاظ في ميادين السياسة والإدارة والاجتماع لئلا يضلّوا ويضلّوا^(٢١) .

على هذا النحو من الانتشار السريع دخل علم الدلالة الغربي ، قبل أن يُتم القرن الأول من حياته ، ميادين العلوم المختلفة ، وأخذ أربابه ينهون الناس على ما في أدهانهم من ثغرات وما في ألسنتهم من عثرات ، ويعمّون على استدراك الناقص ، وتقويم المنحرف ، وتوضيح الغامض . فما المباحث التي تناولها علماء الدلالة المحدثون ؟ وما حظ علمائنا العرب منها ؟

رابعاً — مباحث علم الدلالة الحديث

إذا كانت الدراسات الصوتية والصرفية والنحوية أقرب العلوم اللغوية إلى التخصص . فعلم الدلالة — على ما اتسم به من تخصص في طور النشأة — لم يحبس نفسه في إطار الدراسات اللغوية ، بل امتدت منه فروع كان لها شأن في ميادين الثقافة المختلفة ، أشرنا قبل إلى جوانب منها .

أما المباحث اللغوية الخالصة — وهي موضع اهتمامنا وموضوع كلامنا فيما بقي من هذا الكتاب — فقد تناولت المعنى بالتحليل ، وأعادت النظر فيما درسه علماؤنا الأقدمون من الترادف والتضاد والاشتراك ، وأثارت مشكلة التبدل الدلالي الذي يصيب معاني

(١٧) المصدر السابق ص ٣٠٩ .

(١٨) المصدر السابق ص ٢٩٤ .

(١٩) المصدر السابق ص ٢٩٦ .

(٢٠) المصدر السابق ص ٢٩٧ .

(٢١) المصدر السابق ص ٢٩٨ .

الألفاظ . ولا نبالغ إذا قلنا : إن القسم الأكبر من المباحث التي يعدها الغربيون من ابتكارهم الحديث ، قد مرَّ في أذهان العرب ، وظفر بقدر وافر من دراساتهم اللغوية على النحو الذي سيتبين لك فيما يلي :

١ — دلالة اللفظ على معناه

إذا كان النطق أهم ما يميز الإنسان من الحيوان فقد وقف علماءنا العرب حائرين أمام هذه الميزة ، يحللون ويعلنون ، لعلهم يتوصلون إلى الخيوط التي تربط أصوات الكلمات بالدلالات ، أي : تربط مباني الألفاظ بمعانيها . وإذا كانوا قد اتفقوا على شيء ، فهو أن الألفاظ أوعية تحمل الأفكار ، وتنقلها من عقل إلى لسان ، ومن لسان إلى عقل ، وأن لكل كلمة مبنى صوتياً ، هو الصورة المسموعة أو المرسومة لها ، ومعنى فكرياً هو الدلالة المستقرة في هذه الصورة كما تستقر الروح في الجسد .

أما كيف تفصح المباني عن المعاني فمسألة بالغة التعقيد والدقة ، تتصل بنشأة اللغة ، وبالنظريات المختلفة التي سبق الحديث عنها في مطلع هذا الكتاب . وانطلاقاً من هذا المبدأ نسوق بين أيدينا شذرات مما قال علماءنا في هذا الموضوع ، ثم نحاول أن نستنبط منها أبرز الآراء .

ذكر جلال الدين السيوطي [ت : ٩١١ هـ] نقلاً عن تقدمه من العلماء « أن الألفاظ إما أن تدل على المعاني بذواتها ، أو بوضع الله إياها ، أو بوضع الناس ، أو بكون البعض بوضع الله ، والباقي بوضع الناس »^(٢٢) . وقال : « ودليل إمكان الاصطلاح إمكان أن يتولى واحد أو جمع وضع الألفاظ لمعان ، ثم يفهموها لغيرهم بالإشارة كحال الوالدات مع أطفالهن »^(٢٣) . وقال أيضاً : « قال إمام الحرمين في البرهان : اختلف أرباب الأصول في مأخذ اللغات : فذهب ذاهبون إلى أنها توقيف من الله تعالى . وصار صائرون إلى أنها تثبت اصطلاحاً وتواطؤاً . والمختار عندنا أن العقل يجوّز ذلك كله »^(٢٤) .

وكان وراء الخلاف في وضع اللغة ، والخلاف في دلالة الألفاظ على معانيها خلافاً في العقيدة ، فالمعتزلة ينزهون الله عن أن تكون صفاته — ومنها الكلام أي القرآن — مشاركة له في القدم . ولهذا يرون أن اللغة تواطؤ ، وهذا يعني أن دلالات الألفاظ كالألفاظ من اصطلاح البشر . قال السيوطي : « ذهب المعتزلة إلى أن اللغات بأسرها تثبت اصطلاحاً »^(٢٥) .

(٢٢) المزهر للسيوطي ١٦/١ .

(٢٣) المصدر السابق ١٧/١ .

(٢٤) المصدر السابق ٢١/١ .

(٢٥) المزهر للسيوطي ٢٠/١ .

والأشاعرة — وهم القائلون بقدوم القرآن الكريم — يرون أن اللغات كلها توقيفية بمبانيها ومعانيها، وأن دلالات الألفاظ وصلت إلى البشر عن طريق الوحي إلى الأنبياء^(٢٦). وتستطيع أن تلخص آراء العرب القدماء — على اختلاف منازعهم — بأربعة الآراء التالية:

أولها أن الله وضع في كل لفظ معناه، وعلم آدم المباني والمعاني ليعلمها الناس.

والثاني أن البشر أدخلوا المعاني في المباني على أساس التواطؤ.

والثالث أن البشر استوحوا معاني الكلمات من أصوات الطبيعة.

والرابع أن الأصول توقيف، والفروع اصطلاح. أي أن الله علم آدم أصول المعاني^(٢٧)، ثم تصرف الناس، فنوعوا وفرعوا، وأبدعوا واخترعوا.

ولك أن تضيف رأياً خامساً رآه اللغويُّ البناني عبد الله العلايلي، وهو أغرب الآراء المتعلقة بمباني العربية ومعانيها. وخلاصته أن لكل صوت من أصوات اللغة العربية معنى يخصه، وأن معنى الكلمة العربية هو المحصلة الناجمة عن ائتلاف المعاني الجزئية للأصوات. يقول: «كلمة جَمَل تحل إلى (ج) ومعناه الارتفاع، و(م) ومعناه المياه وهو ينظر إلى السحاب، و(ل) ومعناه الملاصقة أو المساس. والمعنى المؤلف: مرتفع يلامس السحاب»^(٢٨). ثم يعلق العلايلي على هذا التحليل، فيقول: «إذن فهذه الحروف ذات معانٍ جنسية. وقد بقيت ملاحظتها في وضع الكلمات إلى آخر العهد اللغوي»^(٢٩).

وفي الرد على هذه النظرية نقول: إذا كان لحروف الهجاء معانٍ جنسية — ويبدو أن هذه المعاني مقتبسة من الساميات القديمة — فهل تطرد هذه المعاني في الألفاظ كلها، وفي تقليباتها؟ وكيف نطبق هذه المعاني على (لجام) الفرس، و(الجلم) أي: المقصّ والمجلّ أي: تورم الجلد، و(الدمج) وهو الأكل بأطراف الفم؟ هل نجد في هذه الألفاظ معاني الحروف؟ ألا نضطر إلى التوفيق والتفنيق والتلطّف والتكلف، وإلى مراوغة الألفاظ لنسوقها نحو المعاني المزعومة؟ ومهما نؤت من القدرة على التحليل والتأويل فلا بد أن تشمس ألفاظ كثيرة عن هذه الطريقة المتعسفة. ثم ما يقول العلايلي في الزرافة ولها مثل ارتفاع الجمل وليس في اسمها حرف واحد من حروفه؟

الحق أن حيرة الأقدمين في ربط المعاني بالألفاظ أقرب إلى العقل من يقين العلايلي.

(٢٦) المزهري ٢٠/١.

(٢٧) الخصائص لابن جني ٤٦/١ — ٤٧.

(٢٨) مقدمة لدرس لغة العرب، عبد الله العلايلي ص ١٣١ المطبعة العصرية مصر.

(٢٩) امصدر السابق ص ١٣٠.

والدليل على ذلك أن هذه الحيرة خالطت عقول الغربيين ، وهم يحاولون الكشف عن السرّ ، ولذلك اضطر وايتني Whitney ودو سوسير إلى الإقرار بأن الصلة بين المباني والمعاني اعتباطية لاعقلية . وهذا الرأي أسلم من رأي العاللي ، لأنه يرد الدلالات إلى التواضع والاصطلاح^(٣٠) .

إن قول دو سوسير بالدلالة الاعتباطية لاعقلية شبيه بما ذهب إليه المعتزلة من قبل ، وحجتهم اختلاف اللغات في الدلالات ، إذ لو كان المعنى مرتبطاً باللفظ لما اختلفت لغات البشر ، ولكان لكل معنى لفظ واحد في اللغات كافة ، أي لاتحدت الألسنة في لسان . قال السيوطي : « وعمدة المعتزلة أن اللغات لا تدل على مدلولاتها كالدلالة العقلية ، ولهذا المعنى يجوز اختلافها »^(٣١) .

ويتساءل دو سوسير كيف تدل كلمة مثل (شجرة) على معناها ؟ ويجب بأن للكلمة واجهتين :

أولاهما واجهة ذهنية ، هي ما يتصوره الذهن حينما تقرر الكلمة السمع .
والثانية واجهة حسية ، هي صورة الشجرة الحقيقية المغروسة في الأرض ، ويتم الاستدلال بأن يطابق الإنسان بين الواجهتين^(٣٢) . وإلى مثل هذا الرأي ذهب إميل بنفينيست E. Benveniste ، لكنه أنكر الاعتباط ، وأقر بأسلوب الاستدلال^(٣٣) ، فرد عليه إيلوار Eluird بأن الاعتباط في الارتباط أمرٌ سائغ لا بدّ من الأخذ به في تفسير المسألة^(٣٤) .

ولو قرن كلام هؤلاء اللسانيين احدثين بكلام علمائنا الأقدمين لم تجد فيه من جديد . قال السيوطي : « اختلف هل الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية ، أي الصور التي تصورها الواضع في ذهنه عند إرادة الوضع أو بإزاء الماهيات الخارجية ؟ فذهب الشيخ أبو إسحاق الشيرازي إلى الثاني ، وهو المختار ، وذهب الإمام فخر الدين وأتباعه إلى الأول »^(٣٥) .

وعندي أن كلام العرب أقرب إلى القبول ، لأنهم لم يختلفوا في نوع الاقتران : أهو اعتباطي أم معقول ، وإنما اختلفوا في نوع المثير الذي يستثير الدلالة في الذهن ، أهو الصورة

(٣٠) محاضرات في الألسية العامة ، فريباد دو سوسير ص ٩٠ ترجمة يوسف عاري ومحمد النصر لسان ١٩٨٤ م .

(٣١) المزهر للسيوطي ٢٠/١ .

(٣٢) محاضرات في الألسية العامة ، دو سوسير ص ٨٨ .

(٣٣) تاريخ علم اللغة ، موان ص ٥٤ .

(٣٤) المصدر السابق ص ٥٤ .

(٣٥) المزهر للسيوطي ٤٢/١ .

الذهنية المجردة، أم الصورة الحسية الواقعية؟ ثم فضلوا أن يكون المثير الصورة الحسية، لأنها أعلق بالجوارح، وأرسخ في واقع الحياة.

وهو أوضح من تحيل بلومفيدد القائل: إن الاستدلال ينجم عن موقف سلوكي ذي عنصرين: الإثارة والاستجابة. فارتباط كلمة شجرة بمعناها قد يكون ناجماً عن لجوء المرء إلى شجرة يستظل بظلها، أو يأكل من ثمرها. وبعد تكرار هذا السلوك يثبت معنى الشجرة في ذهنه. والسلوكيون عامة، لا بومفيلد على نحو خاص يستعيرون من سلوك الحيوان الفطري ما يفسرون به لغة الإنسان. فالحيوان إذا أثاره مثير ردّ عليه بسلوك، والإنسان يرد عليه بسلوك أو كلام، أو بهما جميعاً^(٣٦).

والحق أن في هذا الاستنباط تبسيطاً ينكره العقل القادر على تجريد المعنى العقلي من الصور الحسية، فالتجارب الكثيرة التي يمر بها الفرد أو الأفراد قميئة بإجراء هذا التجريد أي بتحويل الصورة الحسية المكررة إلى صورة ذهنية مجردة. وإذا كان لنا أن نقر بشيء من الاعتباط في الارتباط، قلنا: إن ذلك قد يحدث في المرحلة البدائية من اقتران الأصوات بالمعاني. وبعد ذلك يتم الارتباط بشكل واع، ترفده المواضعة الاجتماعية. وترسخه الذاكرة العامة للمتكلمين باللغة المشتركة، سواء أكان هذا الترسيخ ناجماً عن تعليل مقبول كالألفاظ التي تحكي أصوات الطبيعة، أم عن اقتران غير قابل لتعليل كالقدر الأكبر من ألفاظ اللغة.

٢ — الدلالة بين الاشتقاق والسياق

تساعد الجذور اللغوية في اللغات الاشتقاقية على تخمين الدلالات. وتتسنى العربية ذروة اللغات الاشتقاقية في قدرة الألفاظ على البوح بمعانيها، لأن كل صيغة من الصيغ المشتقة تحمل على نحو من الأنحاء مقداراً من المعنى الأصلي، يساعد الإنسان العربي، ولو لم يكن له بالكلمة عهد، على أن يقدر معناها. قيل لأعرابي: ما القلم؟ فقال: لا أدري. فقليل له: توهمه، فقال: هو عود قم من أحد جانبيه كتقليم الأظفور، فسمي قمماً^(٣٧). وفي جواب الأعرابي مقدار غير يسير من الصحة نجم عن حسّ الفطري بالاشتقاق.

ولو نظرت في تقسيم أولمان للألفاظ بين شفافة وكثيفة^(٣٨)، لأدركت أنه يريد ما أردنا، أو نحواً قريباً منه. فالألفاظ الشفافة تكشف عن معانيها كما يكشف ماء النبع

(٣٦) انظر ماديء السابيت، د. أحمد محمد قدور ص ٢٩١

(٣٧) الصاحبى، أحمد بن فارس ص ١١٩.

(٣٨) فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك ص ١٧١.

الصافي عما في قعر النبع . والكثيفة تكتم ما تحوي ، كالسيل المعتكر الموحد ، لا يروح بما فيه . غير أن هذه القاعدة ليست مطردة ، فربما ابتعدت الألفاظ بسبب التبدلات الصرفية عن اشتقاقها ، فأعيت القارئ ، كابتعاد التقوى عن الوقاية ، والاتجاه عن الوجه ، والادكار عن الذكر .

وقد تخفى الدلالة لارتباطها بقصة طواها تقادم العهد ، كقول العرب : رفع فلان عقيرته ، أي صرخ . « قيل أصله أن رجلاً عقرت (قطعت) رجله ، فوضع العقيرة على الصحيحة ، وبكى عليها بأعلى صوته ، فقليل : رفع عقيرته . ثم كثر ذلك ، حتى صير الصوت بالغناء عقيرة » (٣٩) .

ولا يذهبن بك الظن إلى أن هذه الظاهرة ملحوظة في العربية وحدها ، أو في الفصيلة السامية وحدها ، فكثير من اللغات في هذا الضرب من الخفاء سواء . روي عن الشاعر الفرنسي بول فاليري P. Valery أنه كان يستخدم ألفاظاً ذوات أصول لاتينية ، فيعيا كثير من الفرنسيين بفهمها لانقطاع ما بينهم وبين الجذور اللاتينية لهذه الألفاظ (٤٠) .

وكلما كانت اللغة أقل من سواها حظاً من الاشتقاق كان اقتران المعنى باللفظ أقل حظاً من الوضوح . وحينئذ يتجاوز الباحث أصل الدلالة ، وعلاقة اللفظ بالمعنى إلى استقراء الاستعمال الحي ، أي يستعين السياق الذي ترد فيه الكلمة على تحديد الدلالة . على ضوء السياق إذن — والرأي لأولمان — تحدد دلالات الكلمات (٤١) .

ويحسن ههنا التنبيه على الفرق بين الدلالات التي يعبر عنها الاشتراك والدلالات السياقية التي تستوحى من الاستعمال . فكلمة (good) الإنكليزية لها ظل تخليقي نبيل في نحو : He is good boy ، وتشير إلى إتقان المهنة في نحو قولك : You are good driver ، وإلى صفاء النوع في نحو : It is good water (٤٢) . والخصيصة الجامعة بين هذه المعاني السياقية هي الجودة . أما دلالة العين في العربية على تسعة معان ، هي : السحاب ، والباصرة ، وعين الركبة ، والثقب في المزادة ، والرقيب ، وعين الميزان ، والمال ، ونبع الماء ، ومعجم العين للخليل ، فليست من هذا الباب ، وإنما هي من المشترك اللفظي (٤٣) .

(٣٩) لسان العرب [عقر] والخصائص لابن جني ١/٦٦ ، ١/٢٤٨ .

(٤٠) فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك ص ١٧٢ .

(٤١) علم الدلالة ، أولمان ص ٧٢ .

(٤٢) انظر مبادئ اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص ٢٩٦ .

(٤٣) في معجم الأدباء لياقوت الحموي ٤/٩٠ — ٩٢ تسعة أبيات نظمت فيها معاني العين التسعة ، وتستطيع أن

ولو مضيت تحليل السياق لترده إلى عناصره لوجدت فيه دفء العاطفة، وحيوطاً اجتماعية تخالط نسيجه الفكري. فكلمة الوزير في قوله تعالى: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾^(٤٤) تحمل إليك ما أحسّه موسى عليه السلام من الحب والتقدير لأخيه، وما يحسه العاجز عن أن ينهض بعبء ثقل، فيلتمس العون من أقرب الناس إليه. وكلمة الوزير نفسها تدل دلالة أخرى في نص آخر، والنص الآخر بيت لشاعر عباسي، وهو:

سبحان ربي الخالق الباري صرت وزيراً يا ابن عمار
فإذا عرفت أن ابن عمار كان طحاناً، لاحظ له من علم أو سياسة، ثم رفعه القدر إلى كرسي الوزارة أدركت ما تنطوي عليه كلمة الوزير من السخر والاحتقار والعجب ونقد الأحوال السياسية والاجتماعية، ومن التنديد بالوزير وبمن استوزره، وبمن دانوا لوزارته، فتربط عندئذ دلالة الوزير بالوزير الذي هو الإثم تنقيه على من ولاه، وعلى من رضوا بولايته. وأصاب بعض الباحثين العرب^(٤٥) حينما ذكر أن ما يردده السانيون من تحليل للسياق، أو ما يسميه مالبينوفسكي الموقع السياقي للكلمة Context of Situation أمر معروف في الدرس اللغوي العربي، ويسميه نقادنا (المقام)، ويعنون به كل ما يكتنف الكلمة من أحوال وأحداث تساعد على فهمها. ولذلك لم يكتفوا في تفسير الدلالة بما يذكره المعجم، بل أضافوا إليه ما يدل عليه السياق. وهذا يعني أن للكلمة عنصريين يحددان معناها: عنصراً لفظياً يحدده المعجم، وعنصراً سياقياً يحدده المقام. وهذان العنصران يجتمعان في ظل المبدأ الذي لخصه البلاغيون بقولهم: لكل مقام مقال.

وتتميز المقام من المقال بحسن بك أن تنظر في بيت أبي الطيب التالي:

إذا كان ماتنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجواز^(٤٦)

البيت في مدح سيف الدولة. مقالُهُ من النحو، ومقامُهُ من السياسة. أما النحو فيقول: إن الحرف الجازم يجعل المضارع ماضياً، وأما السياسة فتقول: إن حماسة سيف الدولة حققت

تضيف: عين الباب الساحرة، ومدينة العين، وحرف العين فتعدو اثني عشر معنى. وألغها بعضهم في المزهر ٣٧٣/١ سعة عشر معنى.

(٤٤) طه ٢٩.

(٤٥) هو الدكتور تمام حسان انظر كتابه اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٧٢.

(٤٦) ديوان أبي الطيب المتنبي ٣٨٢/٣ شرح العكبري تح السقا والأبياري وتبلي دار المعرفة بيروت.

آماله وآمال العرب المنوطة به ، فنصرته وهزمت الروم قبل أن يتخذ الأمير للمعركة عدتها لهيبته وإخلاصه .

ولا يخفى ما للأساليب التي تلتزمها كل لغة من تأثير في تحديد الاستعمال الذي يجيزه السياق . فأنت تقول : ألقى الشاعر قصيدة ، ولا تقول ألقى المصلي دعاء ، وكلا الشعر والدعاء كلام .

ولا يخفى كذلك أن المجاز يفتح أمام الأدباء أبواباً واسعة لابتكار أوجه جديدة من الاستعمال السياقي لكل كلمة . ولعل جار الله الزمخشري [ت : ٥٣٨ هـ] قد نظر إلى هذا الجانب حينما حرص على أن يسوق في معجمه (أساس البلاغة) عشرات العبارات المجازية لكل كلمة ، وأغفل شرح القسم الأعظم منها ، كأنه يقول للقارئ : افهم المقال من المقام ، واضرب الاشتقاق على محك السياق تدرك المعنى .

٣ — الألفاظ والدلالات بين التوحد والتعدد والتضاد

قد يذهب بنا الظن إلى أنه يجب أن يكون للكلمة الواحدة دلالة واحدة ، وأن يكون للمعنى الواحد لفظ واحد ، وأن يدل اللفظ على معنى ما ، ولا يدل على نقيضه . والحق أن هذا التوزيع الرياضي للألفاظ والدلالات أمر متوهم ، لا تلتزمه اللغات ، بل تسمح للكلمة الواحدة بأن تحمل أكثر من دلالة ، فيقع الاشتراك ، وبأن يُعبّر عن المعنى الواحد بأكثر من لفظ ، فيقع الترادف ، وبأن يحمل اللفظ الواحد المعنى ونقيضه فيقع التضاد .

ومن الجدير بالذكر ههنا أن الدراسات اللسانية الحديثة قسمت مفردات اللغات إلى حقول دلالية^(٤٧) . وفحوى هذه الحقول أن تصنف الألفاظ مجموعات ، وأن يربط بين ألفاظ المجموعة الواحدة أو الحقل الواحد موضوع واحد^(٤٨) . فحقل للأصوات ، وحقل لأعضاء الجسم ، وحقل للأمراض على النحو الذي اتبعه أبو منصور الثعالبي [ت : ٤٢٩ هـ] في فقه اللغة ، وابن سيده [ت : ٤٥٨ هـ] في المخصص . ثم تبين لأصحاب هذه النظرية ، نظرية الحقول الدلالية أن كل حقل من الحقول التي أفضى إليها التقسيم ينطوي على ما أشرنا إليه من ظواهر الاشتراك والترادف والتضاد كلها أو بعضها .

وعمد بعض اللسانيين ، ومنهم كاتز Katz وفورد Ford إلى نمط آخر من التحليل ،

(٤٧) علم الدلالة ، د . أحمد مختار عمر ص ٧٩ .

(٤٨) المصدر السابق ص ٨٧ .

هدفه إرجاع الألفاظ إلى مكوناتها الجزئية، أو عناصرها الدلالية الصغرى، كأن يُقال في تحليل الرجل والمرأة:

الرجل: اسم، محسوس، معدود، حي، بشري، بالغ، ذكر.

المرأة: اسم، محسوس، معدود، حي، بشري، بالغ، أنثى.

وبمقارنة صفات الرجل الجزئية بصفات المرأة يتبين أن الاسمين متفقان في جميع الصفات أو العناصر المكونة لهما عدا العنصر الأخير المتعلق بالجنس^(٤٩). وعلى ضوء هذا التحليل الذري — إن صح التعبير — يحكم المحللون على المفردات الداخلة في الترادف أو في المشترك، وهو ما يسمى في اللسانيات الحديثة باسم (العلاقات الدلالية). ولما كان مصطلح (العلاقات الدلالية) حديث النشأة، فقد آثرنا أن نذكره من غير أن نصدره، وأن نعرض الموضوعات التي تنطوي تحته بمصطلحاتها المعروفة، وهي: الاشتراك والترادف والتضاد. فكيف درس العرب هذه الدلالات، وماذا أضاف اللسانيون المحدثون إلى ما توصل إليه العرب الأقدمون؟

أ — الاشتراك:

عرّف الإمام الأصولي فخر الدين الرازي [ت: ٦٠٦ هـ] اللفظ المشترك. فقال: «هو اللفظ الموضوع لحقيقتين مختلفتين وضعاً أولاً»^(٥٠). ثم فسّر معنى الوضع الأول، فقال: «احترزنا به عما يدل على الشيء بالحقيقة، وعلى غيره بالمجاز»^(٥١). فليس من المشترك أن تطلق لفظاً واحداً على شيئين بينهما علاقة مجازية، كأن تطلق كلمة (البوادر) على السقطات والعبرات لاجتماعهما في معنى السرعة والسبق. قال أحمد بن فارس [ت: ٣٩٥ هـ]: «كانت منه بوادر أي سقطات، ويقال بدرت دمعته، وبادرت إذا سبقت، فهي بادرة، والجمع بوادر»^(٥٢).

فشرط الاشتراك ألا تربط بين الدالتين رابطة مجازية. من ذلك لفظ العمّ. قال أبو بكر بن دريد [ت: ٣٢١ هـ] «العم: أخو الأب، والعم: الجمع الكثير. قال الراجز:

يا عامر بن مالك يا عمّا أفنيت عمّا، وجبرت عمّا

(٤٩) المصدر السابق ص ١١٤ وما بعدها.

(٥٠) المحصول في عم أصول الفقه للرازي ص ٣٥٩ تح د طه جابر فياض العنواني. الرياض ١٣٩٩ هـ.

(٥١) المصدر السابق ص ٣٥٩.

(٥٢) المقاييس [ندر].

فالعلم الأول أراد به : يا عماه ، والعم الثاني أراد به : أفنيت قوماً ، وجبرت آخرين» (٥٣) . ومنه قول الجوهري [ت : ٣٩٣ هـ] في معاني الأرض : « الأرض المعروفة ... والأرض : النفضة والرعدة ... والأرض : الزكام ، والأرض : مصدر أرضت الخشبة تؤرض أرضاً فهي مأروضة إذا أكلتها الأرضة » (٥٤) .

ولم تتفق آراء الأصوليين في وجود الاشتراك وعدمه . فمنهم من أنكره ، وامتنع من الأخذ به ، ومنهم من أقر بأن وجوده ضرورة تملئها الحاجة . « أما القائلون بالامتناع فقد قالوا : المخاطبة باللفظ المشترك لا تفيد فهم المقصود على سبيل التمام ، وما يكون كذلك كان منشأ للمفاسد » (٥٥) .

وأما القائلون بوجوب وجوده — ومنهم الفخر الرازي — فحجتهم أقوى ، وهي مستمدة من المنطق ، ومن تطور الحضارة وتقدم العلوم . فهم يرون أن الذخيرة اللفظية في اللغة ، ولو بلغت مفرداتها ألوف ألوف ، محدودة العدد ، تنتهي عند غاية لا تتجاوزها . والمعاني دائمة التجدد والتولد ، والأفكار الجديدة في حاجة إلى أوعية لفظية تحملها وتنقلها . لهذا لم يكن بد من تحميل الألفاظ القديمة جانباً من الأفكار الجديدة ، وإلا قصرت اللغة عن مواكبة العلوم .

« قال الإمام فخر الدين الرازي وأتباعه : لا يجب أن يكون لكل معنى لفظ ، لأن المعاني التي يمكن أن تعقل لا تنتهي ، والألفاظ متناهية ، لأنها مركبة من الحروف ، والحروف متناهية ، والمركب من المتناهي متناه . والمتناهي لا يضبط ما لا يتناهي ، وإلا لزم تناهي المدلولات » (٥٦) . وقال أيضاً : « الألفاظ متناهية ، والمعاني غير متناهية ، والمتناهي إذا وزع على غير المتناهي لزم الاشتراك » (٥٧) .

ويبدو أن احتجاج المانعين بالخوف من وقوع المفاسد اعتلالٌ عليل ، إذ ليس من الضروري أن يفضي الاشتراك إلى الارتباك . فإن انتظام الكلمة في جملة يتيح لها مجموعة من القرائن ، تكشف عنها اللبس ، وتبرز معناها المقصود .

(٥٣) جمهرة النعم لابن دريد [عجم] طبع حيدر آباد ١٣٤٤ هـ .

(٥٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري [أرض] تح أحمد عبد العفور اعصار بيروت دار العلم للملايين ١٣٧٦ هـ .

(٥٥) محصول للرازي ٣٦٣/١ .

(٥٦) الزهر للسيوطي ٤١/١ .

(٥٧) المحصور ٣٦٠/١ .

هذه خلاصة ما قال الأقدمون في الاشتراك ، فما الذي أضافه اللسانيون المحدثون ؟
أقرّ اللسانيون بظاهرة الاشتراك ، وأضافوا إلى عدل الأقدمين علة أخرى تسوغ وجودها ، وهي أن الاشتراك مظهر من مظاهر الاقتصاد في استعمال الألفاظ وحفظها ، وشكل من أشكال التخفيف عن الذاكرة إذ يستطيع الإنسان بالاشتراك أن يخزن الكثير من المعاني في القليل من الألفاظ^(٥٨) .

وعلى أولمان ظهور الاشتراك الناجم عن اكتساب الكلمة دلالة جديدة لم تكن تدل عليها بعنتين :

أولاهما الاستعمال المتعدد للوجه للكلمة الواحدة ، كاستعمال كلمة (Operation = عملية) ، إن ذكرت في المستشفى انصرفت دلالتها إلى الجراحة ، وإن أوردتها في معرض الجهاد دلت على معركة ، وإن قيدت في السوق أريد بها عقد صفقة^(٥٩) . وما أرى أن هذا الضرب من الاشتراك المكتسب شبيه بالضرب الذي تحدث عنه علماءنا . فكلمة عملية فيها من العموم ما يجعلها صالحة لأعمال كثيرة ، فإذا وصفت خصصت ، ووصفها قد يكون مذكوراً كأن تقول : عملية جراحية ، وقد يكون مستمداً من المقام كالأمثلة السابقة .

وثانية العنتين لوقوع الاشتراك عند أولمان النقل المجازي لعلاقة بين الدالتين القديمة والمكتسبة . فالتشابه بين الكركي الطائر الطويل العنق ، والرافعة الحديثة حمل الإنكليز على أن يسموا هذه الآلة باسم الكركي ، فقالوا Crane^(٦٠) . وهذا الضرب أيضاً مخالف لمضمون المشترك اللفظي عند علمائنا ، لأنهم اشترطوا ألا يتم الاشتراك على أساس المجاز ، وتشبيه الآلة بالطائر مجاز .

لهذا السبب احترز بعض اللسانيين الغربيين — كما احترز الأصوليون من علمائنا — فحشروا اللفظ الذي أكسبه المجاز دلالة جديدة تحت مصطلح (تعدد المعنى) ، فميزوه من المشترك اللفظي . ومع أنهم أضافوا هذا الاحتراز بقي بين المشترك اللفظي عندهم والمشارك عند علمائنا فرق . فالمشارك عندهم ينجم عن اختلاف في المعنى وتشابه في نطق الكلمة ، سواء أوقع اتفاق في الرسم أم اختلف اللفظان فيه . فمن المتفق لفظاً ورسماً كلمة Sound الدالة على الصوت ، وأصلها فرنسي ، والكلمة نفسها الدالة على صحة البدن وأصلها

(٥٨) دور الكلمة لأولمان ص ١١٤ وما بعدها .

(٥٩) المصدر السابق ص ١١٤ .

(٦٠) المصدر السابق ص ١١٥ وما بعدها .

جرماني . ومثال المتفق في النطق المختلف في الرسم كلمة (Sea) الدالة على البحر ، وكلمة (See) الدالة على الإبصار^(٦١) .

ولو استفتى أولمان علماءنا في هذين الضربين من الاشتراك لأفتوا بضعفهما جميعاً : فالأول اشتراك هجين وفق معناه من لغتين ، فهو بالدخيل أشبه . والثاني وفق اشتراكه من جذرين مختلفين ، فهو إلى الجنس أقرب .

ب — التضاد :

لك أن تعد التضاد فرعاً من فروع الاشتراك ، وآيته أن تختلف دلالتا اللفظ المشترك اختلافاً يبلغ الغاية ، حتى تكون إحداها نقيض الأخرى . فدلالة النوى على البعد ، وعلى بذور الثمار (جمع نواة) من الاشتراك لا من التضاد . لأن الاختلاف بين الدالتين لا يبلغ حدّ التناقض . أما دلالة (الصريم) على الليل وعلى النهار فمن التضاد ، لأن السواد في الأول ضد البياض في الثاني .

ويبدو أن التضاد كان أوفر حظاً من الاشتراك ، إذ غني به اللغويون العرب قديماً وحديثاً ، وصنفوا فيه مصنفات خاصة به ، طبع كثير منها . صنف فيه من الأقدمين محمد ابن المستنير الملقب بقطرب [ت : ٢٠٦ هـ] والأصمعي [ت : ٢١٦ هـ] وابن السكيت [ت : ٢٤٥ هـ] وأبو حاتم السجستاني [ت : ٢٤٨ هـ] وابن الأنباري محمد بن القاسم [ت : ٣٢٨ هـ] وأحمد بن فارس [ت : ٣٩٥ هـ] . وألف فيه من المحدثين أستاذنا الدكتور رحي كمال . ولم ينكره من القدماء غير ثلة قليلة . وأبرز المنكرين ثعلب [ت : ٢٩١ هـ] وابن درستويه [ت : ٣٤٧ هـ] . وحجة المنكرين أنه ليس في الكلام ضد ، ولو وجد لكان محالاً . وهي حجة منطقية قياسية ينقضها السماع . ولذلك اضطروا إلى تأويل ما روي عن العرب تأويلاً متكلفاً ، ينفي عنه التضاد ولا ينفي الاشتراك^(٦٢) .

تتبع الدكتور رحي كمال العوامل المؤدية إلى ظهور التضاد في اللغات السامية عامة ، وفي العربية على نحو خاص ، فتبين له أنها كثيرة ، أبرزها :

(١) دلالة اللفظ في الأصل على معنى عام يشترك فيه الضدان . كالفعلين (باع)

و (شرى) فكلاهما يدل على البيع وعلى الشراء ، إذ الأصل فيهما الدلالة على التبادل .

(٢) وانتقال اللفظ من معناه الذي وضع له إلى معنى مجازي إما تفاقلاً كتسمية الأعمى

(٦١) المصدر السابق ص ١٢٥ وعم الدلالة ، د أحمد مختار عمر ص ١٦٧ .

(٦٢) انظر حاشية الصاحبى رقم ١ ص ١١٧ تح سيد صقر .

- بصيراً، وإما تهكماً كقول أبي الطيب في كافور الإخشيدي، — وكافور أسود — :
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا وأن مثل أبي البيضاء موجود^(٦٣)
- ٣ () واتفاق المعنيين في صيغة صرفية واحدة كالجئت، تكون لمن قام بالاجتثاث والأصل فيها مُجْتَثَثٌ، وللذي وقع عليه الاجتثاث والأصل مجْتَثَثٌ .
- ٤ () واختلاف القبائل العربية في استعمال الألفاظ كلفظة (وثب) بمعنى طَفَر عند مضر و(قَعَد) عند حمير .
- ٥ () وخطأ الشراح والمفسرين . ذكر ابن سيده أن التبشير يكون بالخير والشر، واحتج لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ ﴾^(٦٤) ، وقوله ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾^(٦٥) .
ووجه الخطأ أن التبشير لا يكون إلا بالخير ، لكنه في الآية الثانية تهكم وتوعّد لغرض بلاغي .
- ٦ () واتحاد لفظ مع آخر يناقضه في المعنى ويقاربه في الاشتقاق . نحو : أقوى الرجل : إذا كان ذا قوة . وأقوى ، فهو مقو ، إذا ذهب زاده ، فضعف . ويقال إن أقوى الثانية من أخوى والخواء الفراغ والضعف ، أصابها الإبدال^(٦٦) .
- وتستطيع أن تضيف عاملاً سابعاً هو عموم الدلالة : ففي العربية ألفاظ قادرة على التلوي ذات اليمين وذات الشمال ، من ذلك « الصارخ المستغيث ، والصارخ المغيث »^(٦٧) .
- ولما كان علم اللغة العام واسع الأفق ، لا يقصر دراسته على لغة واحدة فمن حق القارئ أن يسأل عن ظاهرة انتصاد في اللغات السامية الأخرى ، وفي اللغات الهندية الأوروبية ، أتقر به أم تنكره ؟

« يقر اللغويون العبريون ، واللغويون السريان بوجود ألفاظ قليلة من ألفاظ التضاد في العبرية وفي السريانية . وهم يرون أن لكل من هذه الألفاظ معناه الخاص ، وأن الاستعمال لم ينصرف إلى ضد المعنى إلا لداع بلاغي : كالتفاؤل أو التهكم ، أو اجتناب التلفظ بما يكره .

(٦٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ٤٤/٢ وهذا البيت هو البيت الحادي والعشرون من قصيدته في هجاء كافور (عيد بأية حال) .

(٦٤) فصت ٣٠ .

(٦٥) آل عمران ٢١ .

(٦٦) انظر التضاد في ضوء اللغات السامية ، د. رحي كمال ص ١٠ — ١٧ .

(٦٧) مقياس اللغة ٣/٣٤٨ .

أو بما يمجّه الذوق ، أو بما يؤلم المخاطب»^(٦٨) . وفي الأمثلة التالية ما يوضح التضاد في العبرية وما يقابله في العربية :

(أَوْن) العبرية تطلق على القوة ، وعلى الألم . ومثلها (الأَوْن) العربية تطلق على الدعة والمشقة .

(أَوْر) العبرية تعني النور والظلام ، وفي العربية الأوار : الدخان .
(بَرَّخ) العبرية تعني البركة والتجديف . وفي العربية بارك من البركة ، وابترك تنقّص .
(بِسْر) في العبرية مثل (بشّر) في العربية تدل على التبشير بالخير ، والتحذير من الشر^(٦٨) .

أمّا اللسانيات الغربية فإنها لم تُولِ التضاد حقه من العناية ، واكتفت بالإشارة إليه ، وسمّته بمصطلح يميزه وهو : Antonym . وحاولت أن تفسر ظهوره تفسيراً نفسياً اجتماعياً تختلط فيه الأساطير بالعقائد والعواطف ، فقالت : « إذا اصطدمت كلمة ما يحظر الاستعمال تحت تأثير عامل اللامساس حلت محلها كلمة أخرى خالية من فكرة الضرر والأذى . وهذه العادة ليست مقصورة بحال من الأحوال على المجتمعات البدائية ، فهي معروفة في البيئة بتأثير فكرة اللامساس ، نتيجة طبيعية للخرافات اللغوية ، وأثر من آثار الاعتقاد في سحر الكلمة»^(٦٩) .

وليس في هذا التفسير النفسي الاجتماعي للتضاد جديد ، فقد وقع على مثله العرب القدماء . ومما قالوا : « اختلف الناس في اعتلال لها (يعني المقازة) : لم سميت مقازة على معنى المهلكة ، وهي مأخوذة من الفوز ؟ قال الأصمعي وأبو عبيد وغيرهما : سميت مقازة على جهة التفاؤل لمن دخلها بالفوز ... الخ»^(٧٠) .

ج — الترادف :

الترادف في اللغة التابع^(٧١) ، وفي الاصطلاح يقول الفخر الرازي [ت : ٦٠٦ هـ] في تعريف الألفاظ المترادفة : « هي الألفاظ المفردة الدالة على مسمى واحد باعتبار

(٦٨) التضاد في ضوء اللغات السامية ، د . رحي كمال ص ٣١ وما بعدها .

(٦٩) دور الكلمة في اللغة ، أولمان ص ١٧٧ .

(٧٠) الأضداد لابن الأنباري ص ١٠٥ تح محمد أبي الفضل إبراهيم الكويت ١٩٦٠ م .

(٧١) مختار الصحاح لرازي [ردف] مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٨ م .

واحد» (٧٢). والمقصود بالاعتبار الواحد أن يكون المترادفان إما اسمين وإما صفتين ، لأن يكون أحدهما اسماً والآخر صفة . ولا أن يكون أحدهما صفة ، والآخر صفة للصفة . فليس من الترادف (الإنسان والناطق) ، لأن الإنسان اسم والناطق صفة . وليس منه (الناطق والفصيح) ، لأن الناطق صفة للإنسان ، والفصيح صفة للناطق أي : صفة للصفة .
وليس منه التوكيد نحو : جاء زيد نفسه ، لأن التوكيد لا يحل محل المؤكد ، وليس منه الإتيان نحو : زيدٌ حسنٌ حسنٌ ، لأن لفظة (حسن) لا تسند وحدها إلى زيد ، بل هي تابعة لحسن ، إذ لا يقال : زيدٌ حسنٌ .

ولعلمائنا في الترادف رأيان : رأي يثبت ، ورأي ينفيه .
القائلون بإثباته ، يعللون مذهبهم بأمرين : «الأول التسهيل والإقذار على الفصاحة ، لأنه قد يمتنع وزن البيت وقافيته مع بعض أسماء الشيء ، ويصح مع الآخر . والثاني التمكن من تأدية المقصود بإحدى العبارتين عند نسيان الأخرى» (٧٣) .

ومن ينظر فيما بلغنا من مصنفات القرن الثالث الهجري يجد فيها ما يثبت الترادف ، إذ تظهر فيها بسلاسل من الألفاظ سردت على أساس الاتحاد في المعنى . قال ثعلب [ت : ٢٩١ هـ] : «الباهور والساهور والسنمار : القمر» (٧٤) وقال أيضاً : «غلام نشنش وشعشع وبلبل وبزبز : إذا كان خفيفاً في السفر» (٧٥) . ومن الغريب أن ثعلباً يُعدُّ بين منكري الترادف . فهو — إذا صح أنه من المنكرين — ينكره بالقول ويثبته بالتصنيف . ويمكن إثبات الترادف ، أو تعليل ظهوره بحجتين يصعب إنكارهما أو نقضهما : تعدد اللهجات والاختلاف في الاشتقاق .

أما تعدد اللهجات فجوهره أن تكون كل لهجة قد أطلقت على الشيء الواحد اسماً يتداوله الناطقون بها ، كأن تسمى إحدى القبائل الليث قسورة ، وتسميه قبيلة أخرى غضنفرا . حينئذ تعدد الأسماء والمسمى واحد . ولا ندخل في القبائل قبائل اليمن لاحتراز الأقدمين من لهجاتها ، وإنما نقصر الأمر على قبائل نجد والحجاز كتميم وهذيل . وأدُل ما يدل على وقوع الترادف الناجم عن اختلاف اللهجات قول أبي هريرة — رضي الله عنه — في تعليقه على

(٧٢) المحصول لرازي ٣٤٧/١ .

(٧٣) المصدر السابق ٣٥٠/١ — ٣٥١ .

(٧٤) مجالس ثعلب ٣٠٩/١ تح محمد عبد المنعم حفاجي القاهرة ١٩٤٩ م .

(٧٥) المصدر السابق ١٣/١ .

حديث للنبي ﷺ : « والله إن سمعت بالسكينة إلا يومئذ ، وما كنا نقول إلا المدية »^(٧٦) . فإذا عرفت أن أبا هريرة من دوس بن عدنان أدركت أن السكينة في لهجة قريش رديف المدية الدوسية . وربما كانت شهادة ابن جني القول الفصل في هذا المضمار ، إذ علل الترادف بأنه محصلة الخلافات اللهجية ، فقال : « كلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا ومن هنا »^(٧٧) . فإن اجتمعت المترادفات لإنسان واحد فكيف لا تجتمع لأمة كاملة ؟

وأما الاختلاف في الاشتقاق — وهو الحجة الثانية لإثبات الترادف — فمرده إلى أن العربية لغة ولود ، تستطيع أصولها الثلاثية أن تنجب ألفاظاً مختلفة المباني متفقة المعاني ، « فمن ذلك تسمية الدار منزلاً ، ومسكناً ، وبيتاً ، باعتبار كونها مستديرة في الأصل ، أو كونها مكان النزول بالنسبة لأهل البادية أو المسافر ، أو كونها موضعاً للسكينة والاطمئنان ، أو كونها مكاناً للبيتوتة »^(٧٨) .

ولك أن تضيف حجة ثالثة تفسر بها وقوع الترادف في العربية وفي غيرها من اللغات ، وهي التقارض والاقتراب . فكثيراً ما تستعير اللغات ألفاظاً ليست في حاجة إليها ، غير أن النفوذ السياسي والثقافي يُملي هيمنة لغة على لغة ، فتنتقل مفردات الأقوياء إلى السنة الضعفاء . وحينما يتكلم أبناء المستضعفين ينسون الأصول الدخيلة لهذه الألفاظ ، فيتبنونها ، ثم يدخلونها معاجمهم كما يُمنح الغرباء جنسية الدول المضيفة بعد طول الإقامة فيها .

ومن الأمثلة على ما نزع غزو المصطلحات الإنكليزية للغات المختلفة وتحولها مع مرور الأيام إلى مرادفات لما يعادها في اللغات المغزوة . وقريب مما ذكرنا اقتحام طائفة من الألفاظ الأعجمية لغتنا العربية قبل ظهور الإسلام ، وشيوعها ومخالطتها الألفاظ العربية ، وحلولها إلى جانبها في المعاجم . صحيح أن المصنفين ينبهون على أنها من الدخيل المعرب ، لكن هذا التنبيه لا يحمل أحداً على التخرج من استعمالها . ومن هذه الألفاظ : الديباج والإبريسم والدمقس والسندس والاستبرق بمعنى الحرير المنسوج .

أما القائلون بإنكار الترادف فينبههم أعلام ذوو مكانة ، ولديهم حجج لا تقل قوة عن حجج المثبتين . ومنهم ابن الأعرابي [ت : ٢٣١ هـ] وثعلب [ت : ٢٩١ هـ] وابن درستويه

(٧٦) صحيح البخاري كتاب الأنبياء ١٢٦٠/٣ رقم الحديث ٣٢٤٤ تح د . مصطفى البعا دار اس كثير ودار اليمامة دمشق بيروت ١٤١٤ هـ .

(٧٧) الخصائص لاس حني ٣٧٤/١ .

(٧٨) فقه اللغة للمشارك ص ٢٠٠ .

[ت : ٣٣٠ هـ] وأبو علي الفارسي [ت : ٣٧٧ هـ] وأحمد بن فارس [ت : ٣٩٥ هـ] (٧٩) .
 أما ابن الأعرابي فقد أقرّ بالتقارب وأنكر الترادف التام ، فقال : « كل حرفين أوقعتهما العرب
 على معنى واحد ، في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه » (٨٠) . وأما ثعلب فقد أنكر
 بالقول ، وأثبت بالعمل حينما سرد في مجالسه مجموعات من المترادفات ، ومنها قوله : « الزعيم
 والصبير والحميل والأذين والكفيل والأميل الذي لا يثبت في سرجه » (٨١) . ولم يكن إنكار ابن
 درستويه أشد من إنكار ثعلب ، إذ اعترف ضمناً بالترادف ، ولكنه حمّله على الاختلاف
 اللهجي ، فقال : « محال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد ... وليس يجيء شيء من هذا
 الباب إلا على لغتين متباينتين » (٨٢) .

وسخر أبو علي الفارسي من ابن خالويه [ت : ٣٧٠ هـ] الذي زعم أنه يحفظ للسيف
 خمسين اسماً . قال راوي الخبر : « كنت بمجلس سيف الدولة بجلب ، وبالحضرة جماعة من
 أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسماً ، فتبسم أبو
 علي ، وقال : ما أحفظ إلا اسماً واحداً ، وهو : السيف . قال ابن خالويه : فأين المهند والصارم
 وكذا وكذا ؟ فقال أبو علي : هذه صفات . وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة » (٨٣) .
 وكرّر ابن فارس هذا الإنكار للترادف ، وفرق بين معاني الصفات ، فقال : « الاسم واحد هو
 السيف ، وما بعده من الألقاب صفات ، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى
 الأخرى » (٨٤) .

إن إنكار الترادف ألقى على المنكرين تبعة ثقيلة ، وهي أن يفسروا المترادفات ليحددوا
 ما بينها من فروق دقيقة ، حتى غدا البحث في الفروق حقلاً من حقول الدراسات اللغوية ،
 تؤلّف فيه الكتب ، ويُتَطَف في التحليل لتصيّد الفروق بين الأشباه والنظائر . ومن أشهر
 الكتب في هذا الميدان الفروق لأبي هلال العسكري [ت : ٣٩٥ هـ] . وفي هذا الكتاب
 وأمثاله يجد القارئ تمييزاً دقيقاً وتوضيحاً رهيفاً للفروق بين المعاني في كثير من الألفاظ التي

(٧٩) انظر فصول في فقه اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص ٣١١ .

(٨٠) الأضداد لابن الأباري ص ٧ . تح محمد أبي الفضل إبراهيم الكويت ١٩٦٠ م .

(٨١) مجالس ثعلب ٧٧/١ .

(٨٢) تصحيح الفصح لابن درستويه ١٦٥/١ تح عبد الله الجبوري بغداد ١٩٧٥ م .

(٨٣) المزهر للسيوطي ٤٠٥/١ .

(٨٤) الصحاحي لاس فارس ص ٩٦ .

يظنها من المترادفات : كالقيام والوقوف ، والجلوس والقعود ، والاختصار والإيجاز ، والإسهاب والإطناب^(٨٥) .

ثم استمر التخالف في الترادف قروناً حتى آل الأمر إلى السيوطي ، فحاول أن يتوسط بين الإقرار والإنكار ، فقال : « إن أهل العصر الواحد إذا اختلفوا على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث »^(٨٦) . ومن الذين أحدثوا القول الثالث أستاذنا محمد المبارك ، إذ قال : « إن للشيء المسمى وجوهاً وصفات كثيرة ، ويمكن أن يسمى بأكثر من صفة من صفاته ، وقد يشتق له من الألفاظ كلمات متعددة تبعاً لتلك الوجوه والصفات . ومن هنا ينشأ الترادف »^(٨٧) .

وإلى جانب المبارك وقف الدكتور إبراهيم أنيس يشفع رأيه بحجة أخرى ، هي أن الترادف حقيقة ملموسة ، لكن الشعراء الذين في كل واد يهيمون يُحمّلون المترادفات هواجس لم تكن فيها ، فتبدو المتألفة متخالفة ، ولهذا انتقد « تحويم الشعراء والنقاد في آفاق موهومة ، يتصيدون منها ظلالاً من عواطف وأفكار ، يلصقونها بالألفاظ ليخرجوها من الترادف إلى التباين »^(٨٨) . وقرر أن الترادف ظاهرة لغوية عامة ، تجدها في أكثر اللغات ، فقال : « يجمع المحدثون من علماء اللغات على إمكان وقوع الترادف في أي لغة من لغات البشر »^(٨٩) .

وفي الدراسات اللسانية الحديثة ما يؤيد أو يفترض ظهور الترادف في اللغات الغربية ، غير أن دارسي هذه اللغات والناطقين بها لا يبدون أدنى اعتراض على الافتراض ، بل يجدون فيه مصدراً من مصادر الثراء والتجديد . فمتى ظهرت الكلمة المرادفة لكلمة قديمة ، ولو كانت دخيلة ، أُخِذَ بها ، ولم يُنْظَر في أصلها أهو جرمانى أو لاتينى أو يونانى . وحسب الكلمة الجديدة أن توافق القديمة في المعنى لتوصف الكلمتان معاً : الأصلية والدخيلة بالترادف^(٩٠) .

ومع ذلك فقد ظهر بين اللسانيين العرب والأجانب من يسعى إلى تقييد الترادف بقيود . فمن العرب من يميل إلى تحجير الواسع ، وإلى وضع شروط تقييد بها المترادفات ، منها

(٨٥) انظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري في مواضع متفرقة تح حسام الدين القدسي القاهرة ١٣٥٣ هـ .

(٨٦) الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي ص ٦٣ تح د . أحمد محمد قاسم القاهرة ١٣٩٦ هـ .

(٨٧) فقه اللغة للمشارك ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٨٨) في اللهجات العربية ، د . إبراهيم أنيس ص ١٥١ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٥ م .

(٨٩) المصدر السابق ص ١٧٨ .

(٩٠) انظر دور الكلمة في اللغة ، أولمان ص ٩٧ .

أن يصح وقوع اللفظين المترادفين في تراكيب متعددة ، وأن يتم هذا الوقوع في زمان واحد ، وفي بيئة لغوية واحدة^(٩١) . ومن الأجانب من اشترط الشروط نفسها ، ورأى أنه يصعب أو يندر توافرها لسبب بسيط ، هو أن دلالات الألفاظ عرضة للتغير المستمر^(٩٢) .
فما معنى التغير الدلالي للألفاظ ؟ وما أبرز عوامله ؟

٤ - تغير الدلالات

كان لظهور الحركة الداروينية Darwinism في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي تأثير ملحوظ في العلوم الطبيعية . ثم أخذ تأثيرها يتسع حتى طغى على أكثر العلوم والمناهج وطرائق البحث والتفكير ، ومن العلوم التي امتد إليها تأثير الداروينية علم اللغة ومناهجها^(٩٣) .

تنسب هذه الحركة إلى الباحث الإنكليزي تشارلز داروين Ch. Darwin [ت : ١٨٧٢م] صاحب كتاب أصل الأنواع الذي نشره سنة ١٨٥٧م . والأساس الذي قامت عليه هذه الحركة كما يبدو من (أصل الأنواع) هو أن التطور يطرأ طروءاً جبرياً على كل شيء ، وأن الكائنات الحية ترقى في أثناء هذا التطور من البسيط إلى المعقد ، ومن الضعيف إلى القوي وفق قانون (الانتقاء الطبيعي) ، وبعد مرحلة من الصراع مع عوامل البيئة المختلفة . وهذه الآراء تركت صداها في كثير من الحركات السياسية والاجتماعية ، وفي كثير من المدارس والمذاهب الفلسفية والنفسية ، وحمل ألويتها كارل ماركس ، وبرتранد رسل ، وسيفموند فرويد ، ودركهايم وعدد من الباحثين اللغويين . وزعم اللغويون المتأثرون بها أن اللغات كلها كالكائنات الحية تتغير تغيراً مستمراً ، يشبه التغير الذي يصيب الأحياء ، إنه بطيء لكنه حتمي ، وإنه يرقى باللغات كما يرقى بالأحياء ، ولا يستطيع أحد أن يمنع شيئاً منه^(٩٤) .
وحيثما تعصب اللغويون المتأثرون بنظرية النشوء والارتقاء قوبلوا بمعارضين ينتقدون آراءهم المتعسفة ، ويبرهنون على أن نظرية التطور البيولوجي عاجزة عن تفسير التطور الثقافي ، وعن مواكبة اللغات ، وعن توضيح التغير الذي يصيب كل جانب من جوانبها ، ولا سيما الجانب الدلالي . وأبرز المعارضين أسكولي Ascoli الإيطالي ، و سيس Sayce و سويت Sweet

(٩١) انظر علم الدلالة ، د . أحمد مختار عمر ص ٣٢٧ .

(٩٢) دور الكلمة في اللغة ، أولمان ص ٩٧ .

(٩٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٢١١ وما بعدها . الرياض ١٩٧٢م .

(٩٤) اللغة والتصور ، عبد الرحمن أيوب ص ٣٧ معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٦٩م .

الإنكليزيان ، وجسبرسن Jespersen الدانيمركي ، وبريل Breal الفرنسي (٩٥) .

أنكر أسكولي وسييس وسويت وجسبرسن جبرية التغير في الظواهر اللغوية بصورة عامة ، ثم كان لكل واحد منهم رأي . ومن آرائهم نختار رأي بريل لاعتداله . فهو ، وإن سلم ببعض التطور الجبري ، ينكر على التطور الدلالي خضوعه للجبرية الداروينية . وترى مدرسته « أن كل التغيرات التي تحدث في مدلولات اللغة عبارة عن إصلاحات مقصودة أو شبه مقصودة ، تعتمد على جهود يقوم بها الناطقون بهذه اللغة ، وتسير بها دائماً إلى حيث الكمال ، وأن من أهم هذه الجهود ما يذله الأدباء والكتاب في كل عصر للنهوض باللغة » (٩٦) .

ومما نفر بعض اللسانيين من جبرية الداروينية اعتقادها بأن للتطور مظهراً معيارياً ، أي أن التطور يتجه دائماً نحو الأرق ، فهو يسمو باللغة من طور منحط إلى طور رفيع . والمنهج الوصفي الذي انتهجه اللسانيون يرفض المعيارية ، ويكتفي برصد الظواهر والخصائص ، ولهذا يفضل مصطلح التغير Change على مصطلح التطور Development (٩٧) . وبصورة عامة نقول : إن اللسانيات الحديثة يضيق صدرها بالمعايير ، ولا تسمح لنفسها بأن تحكم للتغير بالتعديل أو تحكم عليه بالجرح ، وكل ما يعنيه هو الاستقرار . فالتغير عندها تبدل من حال إلى حال ، لا من ضعف إلى قوة ، ولا من انحدار إلى ازدهار ، ودراسة التغير مقيدة بقيدتين هما الزمان والمكان أي : دراسة التغير في بيئة جغرافية محدودة ، وفترة زمنية لها بدء ونهاية .

وإذا تعقب اللسانيون مظاهر التغير وجدوها في كل جانب من جوانب اللغة من أصواتها المفردة إلى دلالات الألفاظ . فالأصوات قد تنحرف مخارجها أو تتبدل ، والدلالات قد تتغير مع التغير الذي يطرأ على جوانب الحياة المختلفة . وربما كانت التبدلات الدلالية أوسع من سواها وأسرع لارتباطها بتطور العلوم والآداب والفنون ، ومن المعروف أن كل تبدل فكري يقتضي تبديلاً لغوياً يتيح للغة أن تحمل وتنقل الجديد من جيل إلى جيل . ولولا ذلك لقصرت اللغة عن مواكبة الحركة الثقافية ، وأصبحت بالعجز والعقم أو اضطرت إلى الاستيراد والاتكاء على المصطلحات الدخيلة .

وسواء أكان تغير الدلالات نتيجة لقوانين حتمية أو نتيجة لتطوير مقصود يصنعه

(٩٥) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وإي ص ٥٨ .

(٩٦) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وإي ص ٥٨ — ٥٩ .

(٩٧) انظر مبادئ اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص ٣٢٣ .

الناطقون باللغة ليجعلوا لغتهم قادرة على موازنة الفكر ، فهو حقيقة واقعة لا ينكرها أحد .
فما أهم عوامله ، وما أبرز مظاهره ؟

آ - عوامل التغير الدلالي :

يجمع الباحثون العرب والأجانب على أن التغير الدلالي حقيقة واقعة لا عاصم منها ، وعلى أنه « يسير ببطء وتدرج »^(٩٨) ، وعلى أنه « إذا حدث في بيئة ما ظهر أثره عند جميع الأفراد الذين تشملهم هذه البيئة »^(٩٩) ، لأن اللغة دُولة متداولة بين الناس جميعاً ، لا نفائس محفوظة في خزائن من زجاج^(١٠٠) . وهم يكادون يجمعون على طبيعة العوامل التي تشترك في صنع التغير الدلالي ، لكنهم يختلفون في تصنيفها . فمنهم من يقسمها مجموعتين : مجموعة الأسباب الداخلية ، ومجموعة الأسباب الخارجية^(١٠١) . ومنهم من يسميها عوامل ، ويقسمها إلى عوامل لغوية وعوامل تاريخية^(١٠٢) . ومنهم من يفصل فيردها إلى أسباب كثيرة ، يتصل بعضها باستخدام الألفاظ ، ويتعلق بعضها بدرجة الوضوح في دلالات الألفاظ ، ويُعزى بعضها إلى تغير الأصوات والقواعد^(١٠٣) . وآثراً تقسيمها إلى عوامل لغوية ، وعوامل اجتماعية على النحو التالي :

١ - العوامل اللغوية : تبين لك من دراسة الجوانب اللغوية المختلفة أن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وأن هذه الأصوات تتحول بالصيغ الصرفية إلى كمات ذوات دلالات مفردة ، وبالتركيب النحوي إلى جمل وسع دلالة من الألفاظ المفردة . كما تبين لك أن حياة اللغة موصولة باسعمالها وتداولها . غير أن حياة اللغة عرضة للتغير ، وأكثر عناصرها عرضة للتغير دلالته . وينجم بعض التغير الدلالي عما يصيب أصوات اللغة ، أو عن تجاوز بعض الألفاظ ، أو عن حركات الإعراب ، أو عن نقل اللفظ بالترجمة من لغة إلى لغة .

فإذا تغير صوت واحد من أصوات الكلمة تغير معناها . فالخضم الأكل بأقصى

(٩٨) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص ٣١٤ .

(٩٩) المصدر لسابق ص ٣١٧ .

(١٠٠) عوامل التطور اللغوي ، د . أحمد حماد ص ١١٩ وما بعدها دار الأندلس بيروت ١٩٨٣ م .

(١٠١) مبادئ السانيات ، د . أحمد محمد قدور ص ٣٢٥ .

(١٠٢) العلاقة بين اللغة والفكر ، د . أحمد عبد الرحمن حماد ص ٦٩ .

(١٠٣) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص ٣١٩ .

الأضراس، أو هو خاص بأكل الشيء الرطب، والقضم الأكل بأطراف الأسنان، أو أكل الشيء اليابس^(١٠٤). فإذا افترضنا أن إحدى الكلمتين أصل للأخرى، فهذا يعني أن تغير الصوت من الخاء إلى القاف أي: من الطبق إلى اللهاء غير معنى الكلمة، فتبدل شكل الأكل ونوع المأكول، وطريقة المضغ ووسيلته. وشبيه بذلك الغلط والغلت^(١٠٥)، فالغلط الخطأ عامة، والغلت الخطأ في الحساب خاصة.

وقد تتغير الدلالة، فتفارق معناها الاشتقاقي لمجاورتها لفظاً أو ألفاظاً ذوات دلالات خاصة، فإذا قرأت الآيات الكريمة التالية ﴿فاتقوا النار﴾^(١٠٦) ﴿واتقوا يوماً﴾^(١٠٧)، و ﴿اتقوا ربكم﴾^(١٠٨) أدركت أن الله يأمر عباده بالتوقي مما يصيبهم، وهذه هي الدلالة الاشتقاقية للتقوى، غير أنها أصبحت فيما بعد تدل على الصلاح والورع، لأن الاحتماء من هذه الأشياء يلزم الاتقياء، أي: الصالحين.

وقد ينجم التغير الدلالي عن تغير طفيف يصيب حركات الإعراب. ولو قرأت النادرة التالية أدركت أن خطأ المتهم بحركة واحدة انتزع منه البراءة. «ادعى رجل مالاً بحضرة القاضي أبي عبيد بن خربوبة، فقال المدعى عليه: ماله حق عليّ، بضم اللام. فقال أبو عبيد: أتعرف الإعراب؟ فقال: نعم. قال: قم فقد ألزمتك المال»^(١٠٩).

وربما كان العامل اللغوي دخليلاً على اللغة من لغة أخرى. فكلمة School تعني في الإنكليزية المدرسة المعروفة أي: مكان الدرس، وتعني أيضاً المذهب العقلي، والاتجاه الفكري، والمدرسة الأدبية كالواقعية والرمزية. فلما ترجمت إلى العربية ترجمة حرفية انتقلت إلينا بدلالاتها التعليمية والمذهبية، فشاعت في ألسنتنا وأقلامنا كأنها من وضع العرب^(١١٠). وكلمة Analyze أو Analyze^(١١١) بمعنى التحليل أو التحليل النفسي في الإنكليزية نقلت إلينا بالترجمة نقلاً حرفياً، فأصبحنا نطلقها على الشرح والتفسير، فنسمي شرح النص تحليلاً أدبياً. وأهملنا ما كان الأقدمون يستخدمون من شرح وتفسير وتأويل وتوضيح. ونسينا أو

(١٠٤) انظر الخصائص ١٥٧/٢.

(١٠٥) القاموس المحيط [غلط — غلت]. ونظر مبادئ اللسانيات، د. أحمد محمد قدور ص ٣٢٦.

(١٠٦) البقرة ٢٤.

(١٠٧) البقرة ٤٨.

(١٠٨) النساء ١.

(١٠٩) مجلة المجمع العلمي بدمشق المجلد ٣٣ ص ٤٥٨.

(١١٠) انظر فقه اللغة، محمد المبارك ص ٢١٦.

(١١١) المورد منير البعلبكي.

كدنا ننسى أن التحويل ضد التحريم ، ومعناه الإباحة ، وجعل الشيء حلالاً .
٢ — العوامل الاجتماعية : نعني بهذه العوامل كل ما يؤثر في الدلالات مما لاصقة له باللغة . أي كل ما يطرأ عليها من مؤثرات خارجية سواء أكانت سياسية أم ثقافية . ونوسّع دائرتها حتى تتضمن العوامل النفسية والتاريخية ، لأن هذه العوامل كلها من صنع المجتمع ، أو مرتبطة بحياته وتطوره .

« إن الثورات الاجتماعية ، ولا سيما الفكرية ، والتطور الاجتماعي بسبب ما تؤدي إليه من تبدل الأشياء التي يراها الإنسان أو يستعملها ، وتبدل المفاهيم تؤدي في غالب الأحوال إلى تطور لغوي ، فتموت ألفاظ ، وتحيا أخرى ، وتبدل معاني بعض الألفاظ ، وهي التي كان لها معنى ، واستعيرت لمعنى جديد ، هو نتيجة تلك الثورة ، أو ذلك التطور الفكري » (١١٢) .

ومن أدلّ الأمثلة على ما نزع لفظ (الصمود) المستعمل بعد نشوب الثورات الحديثة بمعنى الثبات والتحدي والصلابة في المقاومة . هذا اللفظ لم يكن معروفاً بهذا المعنى ، بل لم يكن معروفاً البتة . والمعروف « الصَّمْدُ أي : القصد والضرب والنصب ومنه الصَّمْدُ : السيد لأنه يُقصد » (١١٣) ، وإلى هذا المعنى ينصرف قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمْدُ ﴾ (١١٤) . أي : المقصود . فلما اشتعلت الأمة العربية حماسة في ثوراتها الحديثة حمّت الكلمة معنى المقاومة . وسوف نذكر ألفاظاً أخرى من هذا النمط في الحديث عن أشكال التغير الدلالي .
ولمشاعر الإنسان أثرها في تغيير الدلالات ، فقد تجرح الحسّ ألفاظ الجنس ، فيستبدل بالصریح منها ألفاظاً تشير إلى الغريزة إشارة مهذبة . وهذا الاستبدال مرتبط بالعقيدة الدينية ومكارم الأخلاق . والعربية من أنقى اللغات وأرقاها في مجانبة القحة والصراحة في هذا الميدان . والقرآن الكريم زاخر بالألفاظ المهذبة المعبرة عن الجنس كالملامسة ، والمباشرة ، والإفضاء . وفي الحديث الشريف ألفاظ أخرى تترجم عن الغرائز بمثل هذا الأدب الرفيع كالملاعبة (١١٥) ، وذوق العُسليلة (١١٦) ... الخ وكما من النمط الذي يلمح ولا يوضح ، ويشير ولا يثير ، لسبب

(١١٢) فقه اللغة ، محمد المبارك ص ٢١٤ .

(١١٣) القاموس المحيط [صمد] .

(١١٤) الإخلاص ٢ .

(١١٥) جاء في باب استحباب نكاح البكر من صحيح مسلم ١٠٨٧/٢ « ... فهلا جارية تلاعها وتلاعك »

تح محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٢ هـ .

(١١٦) جاء في كتاب النكاح من المصدر السابق ١٠٥٦ « حتى يدوق عسلتك ، وتدوق عسيتة »

معروف ، وهو أن الحياء شعبة من الإيمان .

ومما أصابه التغير لأسباب نفسية الألفاظ الدالة على الأذى والألم ، وكل ما يتشاعم به أو منه ، ولذلك اطرّحت هذه الألفاظ واختيرت ألفاظ أخرى فيها التفاؤل والبشرى . فقد عبر العرب بالسليم عمّن لدغته الحية تفاؤلاً بشفائه ، وكنّوا عن الأعمى بأبي بصير لعله يرتدّ إليه بصره .

ومع ذلك تجد في بعض الأحيان تغييراً مضاداً لما ذكرنا . إذ نجد الناس يحملون الكلمة القبيحة الدلالة معنى جديداً محبباً إليهم . ومن هذا الضرب (المشوار) . فقد اكتسبت هذه اللفظة ظلالاً شعرية في العصر الحديث لم تكن تدل عليها ، ولهذا شاعت في الغناء والمسرح ووسائل الإعلام ، وغلب عليها أنها بمعنى الشوط يجوزه العاشق أو المشوق ، أو بمعنى المرحلة الزمنية المضمخة بالعواطف . وليس في معناها المعجمي شيء من ذلك كله . فالمشوار في الأصل : « المكان يعرض فيه الدواب . ومنه : إياك والحُطْب ، فإنها مشوار كثير العثار » (١١٧) .

وللتطور الحضاري أثره في تغيير معاني الألفاظ . فمتى انتقل المجتمع من البداوة إلى الحضارة احتاج إلى ألفاظ يعبر بها عن حياته الجديدة ، وما يشيع فيها من أدوات ومؤسسات . « فالنظارة في الأصل : القوم ينظرون إلى الشيء والمنظار : المرآة » (١١٨) . فلما تحضر الإنسان العربي سمى بهاتين الكلمتين آتين تساعدانه على تقوية النظر . والسيارة في الأصل القافلة ، ثم غدت تدل على هذه الآلة الكثيرة السير . « والجامعة : الغلّ يجمع اليدين إلى العنق ، والقدر الجامعة الكبيرة ، لأنها تجمع الكثير من الطعام » (١١٩) ، ثم أطلقها الناس على أرق المعاهد الثقافية والعلمية . وفي حياتنا العصرية مئات الكلمات من النمط الذي تغيرت دلالاته ، وتغيرها السريع الطّيع دليل على حيوية العربية وتجدها المستمر .

ولعل ما أنجزته العربية في أثناء انتقالها من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن البداوة إلى الحضارة وبعد احتكاكها بالثقافات القديمة أن يكون أقوى الأدلة على ما ذهبنا إليه . فقد استطاعت العربية أن تغير دلالات آلاف الألفاظ لتستوعب الأفكار والمعاني الجديدة في ميادين العلوم : في الفقه والنحو والعروض والبلاغة والفلسفة والمنطق والفلك والرياضيات ... الخ . وظهرت كتب ضخمة ، درس فيها مؤلفوها ما أصاب دلالات الألفاظ من تغير . ومنها

(١١٧) القاموس المحيط [شور] .

(١١٨) القاموس المحيط [نظر] .

(١١٩) المصدر السابق [جمع] .

كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي [ت: ٣٢٢ هـ] وهو كتاب نفيس وفقه مؤلفه على الألفاظ المستعملة في علوم الدين واللغة، وفيه يقول: «هذا كتاب فيه معاني أسماء، واشتقاقات ألفاظ، وعبارات عن كلمات عربية، يحتاج الفقهاء إلى معرفتها، ولا يستغني الأدباء عنها» (١٢٠).

ب - صور التغير الدلالي:

تتبع علماءنا القدماء ما يحدث لدلالات الألفاظ من تغير، فوجدوا أن للتغير صوراً عديدة، أبرزها خمس، وهي: تعميم الدلالة الخاصة، وتخصيص الدلالة العامة، والارتقاء باللفظة من أفق الحس إلى أفق التجريد، والانتقال بها إلى ما يجاورها عن طريق إجاز المرسل، أو نقلها من الحقيقة إلى المجاز عن طريق الاستعارة والتشبيه.

ثم أراد اللسانيون أن يضبطوا التغير الدلالي بقوانين دقيقة، تسري أحكامها على اللغات الإنسانية عامة، فتوصلوا إلى ثلاثة قوانين صاغوها صياغة محكمة، تكاد تكون معادلات رياضية، واعتمدوا في صياغتها على مقارنة الدلالات الحديثة بالقديمة، وذهبوا إلى أنها مطردة الأحكام.

أولها يتعلق بتضييق المعنى القديم الواسع، ويعادل ما ذكرناه من تخصيص العام. وثانيها يتصل بتوسيع المعنى القديم الضيق، ويعادل ما سميناه تعميم الخاص. وثالثها يرصد نقل المعنى من موضع إلى موضع مجاور له بلا توسيع ولا تضيق (١٢١).

والحق أنه ليس في هذه القواعد ما يميزها سوى الادعاء بأنها قوانين ثابتة. ونحن نؤثر ألا نعامل الظواهر اللغوية الحية معاملة المواد الجامدة، لأن اللغة مرآة الحياة، والترجمان المعبر عن النشاط الفكري، وهذا النشاط يصعب ضبطه بأحكام مسبقة. وإلى أن تصبح القواعد الدلالية قوانين ثابتة نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقف عند الحد الذي وقف عنده المعتدلون، وأن نلتزم ما التزموا فيما قسموا ورسموا، فنعرض أشكال التغير الدلالي وفق الصور التي أشرنا إليها، على أن نقرن ما نجد منها في لغتنا بنظائره في الإنكليزية.

(١٢٠) الزينة لأبي حاتم الرازي ٥٦١ تح حسين بن فيصل الله الحمداني دار الكتاب العربي مصر ١٩٥٧ م.

(١٢١) انظر دور الكلمة. أولاد ص ١٦١ وما بعدها.

١ — تعميم الدلالة الخاصة : يعلل اللسانيون تعميم الدلالة الخاصة بهرب الإنسان من التعب ، وإيثاره الراحة . ويقصد بالهرب من التعب التخفف من عبء الدقة في التعبير ، والاكتفاء بالإشارة إلى المعنى لإراحة العقل من عناء البحث عن المفردات القادرة على أن تسم كل شيء بسماته الخاصة . ومن يصغ إلى كلام العامة من الناس يجده مشتملاً على نموذجات كثيرة من هذا النمط ، كاستخدام ضمير الجمع في نحو (ذهبوا ، ورجعوا) للمثنى والجمع ، وهو للجمع خاصة .

فإذا أعرضنا عن كلام العامة ، ونظرنا في الفصيح وجدنا ظاهرة التعميم في كلمات كثيرة ، منها : (الراكب) التي كانت خاصة براكب البعير ، ثم أطلقت على من يركب كل دابة ، وكل آلة ، من الجواد إلى الطائرة . ومنها : (السرى) التي كانت تعني السير في الليل خاصة ، فأصبحت تستعمل للسير في كل وقت (١٢٢) .

وللوقوف على أسلوب التحول من الخصوص إلى العموم نتعقب المراحل التي اجتازتها كلمة (القوم) حتى أصبحت تدل على الأمة كلها ، بعد أن كانت تدل على الرجال وحدهم . كانت هذه الكلمة تدل على الرجال ، والدليل قوله تعالى : ﴿ لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ (١٢٣) . فلو كانت النساء بعض القوم ما خصهن الله بنهي آخر ، فالقوم إذن الرجال . قال ثعلب [ت : ٢٩١ هـ] : « القوم للرجال دون النساء ، ثم يخالطهم النساء . تقول : هؤلاء القوم قوم فلان ، ولا يجوز للنساء ليس فيهن رجل » (١٢٤) .

ولعل قصر القوم على الرجال مرتبطٌ بالقيامة أي قيامهم بتبعات الحياة . قال تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ (١٢٥) . « وإنما سمي الرجال دون النساء قوماً ، لأنهم يقومون في الأمور عند الشدائد » (١٢٦) .

ثم اتسعت دلالة الكلمة ، فأصبحت ترادف كلمة الشعب ، أو كلمة الأمة أو تقاربها . ولذلك نقول في العصر الحاضر : القضايا القومية ، واللغة القومية ، ونحن نريد النسبة إلى الأمة العربية قاطبة ، لا إلى قبيلة واحدة . يقال : « القوم في اللغة الجماعة من الناس ،

(١٢٢) انظر مبادئ اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص ٣٣٤ .

(١٢٣) المحررات ١١ .

(١٢٤) الصاحبي لابن فارس ص ٣٠٥ .

(١٢٥) النساء ٣٤ .

(١٢٦) الصاحبي لابن فارس ص ٣٠٥ .

تجمعهم جامعة يقومون لها ، وفي الاصطلاح : الجماعة من الناس تؤلف بينهم وحدة اللغة والتقاليد الاجتماعية ، وأصول الثقافة ، وأسباب المصالح المشتركة ، ويرادف لفظ الأمة» (١٢٧) .

وتستطيع أن تجد لتعميم الدلالة أمثلة في اللغات الأوروبية ، تقارب الأمثلة العربية . فالفعل الفرنسي Arriver كان يدل على الوصول إلى الشاطئ ، ثم صار يدل على كل وصول (١٢٨) . ولا نستبعد أن يكون الفعل الإنكليزي Arrive قد سلك المسلك نفسه استناداً إلى ما يذهب إليه اللسانيون الغربيون من حتمية التغير الدلالي وفق قوانين مطردة ، تنتظم اللغات كلها .

٢ — تخصيص الدلالة العامة : يعلل اللسانيون تخصيص العام تعليلاً يجمع بين التطور التاريخي للدلالة ، والتصور الفكري الدقيق للمعنى .

أما التطور التاريخي فمعناه عندهم أن الكلمة قد تفارق دلالتها العامة إذا انقرضت الأشياء الكثيرة التي كانت تدل عليها ، وبقي منها شيء واحد .

وأما التصور الفكري الدقيق فجوهره أن التقدم العلمي ينفي عن الألفاظ الدلالات الغائمة ، ويحاول أن يخصها بأمور متفردة (١٢٩) . وللدكتور إبراهيم أنيس تعجيل يوافق هذا الرأي ويسوّغه ، إذ يقول : « الناس في حياتهم العامة ينفرون عادة من تلك الكليات التي لا وجود لها إلا في الأذهان ، ويؤثرون الدلالات الخاصة التي تعيش معهم ، فيرونها ويسمعوها » (١٣٠) . والدليل على ذلك أن الإسلام خصّ كثيراً من الألفاظ الجاهلية العامة بدلالات إسلامية ، فبعد أن كان الحج يدل على زيارة كل مكان أصبح قاصراً على زيارة الكعبة ، وبعد أن كانت الصلاة عند الجاهليين تعني كل دعاء أصبحت تعني أداء عبادة خاصة ، فيها قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء . قال الأعشى في صفة الخمر :

وقابلها الريح في دنها وصلى على دنها وارتسم (١٣١)

(١٢٧) المعجم الفلسفي ، د . حميل صليبا ٢/٢٠٥ دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٨ م .

(١٢٨) انظر مبادئ السانيات ، د . أحمد محمد قدور ص ٣٣٤ .

(١٢٩) انظر علم الدلالة ، د . أحمد مختار عمر ص ٢٤٦ .

(١٣٠) دلالة الألفاظ ، د . إبراهيم أنيس ص ١٥٣ .

(١٣١) ديوان الأعشى الكبير ص ٣٥ نج د . محمد محمد حسين القاهرة ١٩٥٠ م .

وقال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ (١٣٢) . فالصلاة في بيت الأعشى الدعاء ، وفي الآية الكريمة الفريضة المعروفة ، فاللفظة لم تفارق معنى الدعاء ، ولكنها حجّرت وقصرته على شكل من أشكال الدعاء له أوقاته وحركاته وسماته التي حددها الشارع .

ومن أمثلة التخصيص في اللغات الأوروبية كلمة Poison الإنكليزية الفرنسية ، ومعناها في هاتين اللغتين السمُّ أو الجرعة السامة . يقول أولمان : « إن الجرعات السامة دون غيرها هي التي استرعت الانتباه ، واستأثرت به لسبب أو لآخر . وهذا تحدد المدلول ، وأصبح مقصوراً على أشياء تقلّ في عددها ، عما كانت الكلمة عليه في الأصل إلى حدّ ملحوظ » (١٣٣) . « وفي الإنكليزية من هذا النحو كلمة Meat التي كانت تدل على الطعام مطلقاً ، ثم غدت تدل على اللحم خاصة » (١٣٤) .

٣ — انتقال الدلالة بالمجاورة والسبب : قد ينقل التغير الدلالي البطيء معنى الكلمة من الدلالة على الشيء إلى الدلالة على ما يجاوره ، أو ما ينجم عنه . وهذا التمث من أنماط التغير الدلالي يسميه علماء اللغة والبلاغة المجاز المرسل . فالعرب تطلق كلمة السماء — وأصلها السماو — على الشيء العالي ، لأنها من السمو أي : العلو . ثم صارت تسمي السحاب سماء لارتفاعه وحلوله في السماء ، وصارت تسمي المطر سماء لخروجه من السحاب ، والنبات سماء لانبثاقه بالمطر من الأرض . قال معاوية بن مالك :

إذا نزل السـمـاءُ بأرض قوم رعيناه ، وإن كانوا غضاباً (١٣٥)

قال ابن رشيق في التعليق على البيت : « أراد المطر لقربه من السماء » (١٣٦) . وقوله يفسّر الشطر الأول . أما هاء رعيناه ، فيراد بها النبات ، لأن النبات لا المطر هو الذي يُرعى . ولانتقال الدلالة على جناح المجاز المرسل من موضع إلى موضع أوجه كثيرة تضاف إلى المجاورة والسبب . منها إطلاق الكل وإرادة الجزء كقوله تعالى ﴿ يجعلون أصابعهم في

(١٣٢) النساء ٤٣ .

(١٣٣) دور الكلمة ، أولمان ص ١٦٢ .

(١٣٤) مبادئ اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص ٣٢٢ .

(١٣٥) المفضليات للمفضل الضبي ص ٣٥٩ تح أحمد شاكر وعبد السلام محمد هارون دار المعارف مصر

١٩٦٣ م . وانظر مقاييس اللغة لأحمد بن فارس ٩٨ / ٣ .

(١٣٦) العمدة لابن رشيق ٢٦٦ / ١ والبيت في العمدة منسوب إلى جرير .

آذانهم»^(١٣٧) يريد أناملهم، ومنها التعبير عن الكل بجزء منه كتسمية اللغة العربية لغة الضاد، والضاد حرف من حروفها، أو كتسمية الغزو الأوروبي للبلاد العربية والإسلامية الحروب الصليبية والصليب جزء من الكنيسة التي قادت هذه الحروب أو شعار لها. وربما كان هذا النمط من التغير الدلالي هو التغير الذي قصدت إليه اللسانيات الحديثة بقانونها الثالث الذي أشرنا إليه في كلامنا على صور التغير الدلالي.

٤ — الانتقال بالاستعارة والمشابهة: قد تكون الاستعارة أقدر من المجاز المرسل على نقل الدلالة من شيء إلى آخر، لأن الاستعارة فرع من فروع التشبيه، والأشباه والنظائر تملأ حواس الإنسان، وتحيط به من كل جانب، ولهذا يستطيع أن يجري مقارنات سريعة بين المتماثلات من الأشياء، فيدل ببعضها على بعض.

وبين الألفاظ التي انتقلت دلالاتها على هذا الأساس أشياء لا تثير في القلب حساً، ولا ترسم في الخيال صورة. فأنت تمرُّ بعشرات العبارات والكلمات المنقولة الدلالات على هذا النحو، فلا تأبه لما فيها من تشبيه أو استعارة، لأن إدمان استعمالها أطفأ توهجها. من ذلك على سبيل التمثيل: بطن الوادي، وصحن المسجد، وفم البئر، وأرجل المنضدة، وذراع الرافعة، وفكّ الكماشة، وأزرار المسجل، وقميص الآلة الكاتبة، وظهر الهضبة، ورأس الجبل، وأذن الإبريق، وجناحا الطائرة، وأصابع البيانو، وأسنان المنشار، وحاجب الباب، وساعدا النظارة، وعقربا الساعة... الخ وأمثلة كثيرة يعيا بحصرها المتبع، وخلف كل واحد منها استعارة مكنية، كما يقول أهل البيان.

وبهذه الطريقة من طرائق النقل يبتكر الأدباء والشعراء دلالات جديدة يحملونها على ظهور الألفاظ بعد أن يحملوها عواطفهم وبراعتهم في التصوير. ومن أمثلة هذا النوع: الصوت المخملي، واللحن الناري، وجناح الظلام، وإشراق العاطفة، وشمس الحرية... الخ. وأحفل الكتب بهذه التحولات الفنية أساسُ البلاغة للزمخشري. فهو معجم فريد مقسوم بين معاني الكلمات الحقيقية ودلالاتها المجازية. ومن المجاز قوله في مادة خضر: «كتيبة خضراء: لخضرة الحديد. وأباد الله خضراءهم: شجرتهم التي تفرعوا منها. وشابُّ أخضر، وفلان أخضر: كثير الخير... وأخضر البطن: ابن حائك، وأخضر النواجذ: حراث لأكله البقول. وإياكم وخضراء الدمن أي: المرأة الحسناء في منبت السوء... الخ»^(١٣٨). والزمخشري — كما

(١٣٧) البقرة ١٩.

(١٣٨) أساس البلاغة للزمخشري [حضر].

رأيت — لا يكتفي بتوليد الدلالة الجديدة من الاستعارة والتشبيه، بل يولدها كذلك من الكناية. وبذلك يفتح أفقاً واسعاً أمام التجريد في اللغة.

٥ — الانتقال من إطار الحسّ إلى إطار التجريد : تستطيع أن تعد انتقال الألفاظ

من إطار الحسّ إلى إطار التجريد مسلكاً لغوياً مطرداً، تسلكه اللغات حينما يتطور الناطقون بها من البداوة إلى الحضارة، ومن الاشتغال بالغرائز إلى الاشتغال بالعقل.

وقد سلكت العربية هذا المسلك حينما ودعت جاهليتها، وعكفت على الكتاب والسنة تدرسهما وتفسرهما، ثم حينما تأثرت بالثقافات الوافدة، فترجمت فلسفة اليونان، وأدب الفرس، ورياضيات الهنود. لقد كانت هذه العلوم كلها في حاجة إلى أوعية لفظية، تستوعب مفاهيمها المجردة، فاستجابت العربية لمطلبها، وخلعت عن ألفاظها لبوس الحسّ، وتهيأت بالتدريج لتقبل التجريد.

ولم تكن هذه النقلة عملاً اعتباطياً، يجري بلا قصد، بل كانت عملاً واعياً يستند تحقيقه إلى أساسين : طبيعة العربية الاشتقاقية، والإفادة من تحول الدلالات من الحقيقة إلى المجاز، أي : من قدرة الذهن العربي على التصوّر والتصوير. فظهرت مئات الألفاظ ذوات الوجهين : الوجه الحسي القديم، والوجه المجرد الجديد. ومن هذه الألفاظ : النفاق، والوزر، والضلال، والشريعة، والمنهج، والأسلوب، والجزالة، والإطناب.

وحسبك أن تواكب تطور لفظ واحد أو بضعة ألفاظ لتقف على سرّ العربية الكامن في جذورها الثلاثية، المتجلي في صيغها الاشتقاقية، ولتدرك أنها قادرة على التجدد باستمرار. نحن نصف أسلوباً كأسلوب الحجاج بالجزالة، ولا يخطر لنا أننا نستعير صلابة الخطب لنخلعها على تراكيب الخطب، « فالجزل ما غلظ من الخطب، ثم استعير، فقليل : أجزل له في العطاء، وفلان جزل الرأي »^(١٣٩). وننعت كلام الجاحظ بالإطناب، ولا يخطر لنا أننا نشبه الكلام بحبال الخيام، إن « طنّب الخيام حبالها التي تشدّ بها... ومن الباب قولهم : أطنّب في الشيء إذا بالغ »^(١٤٠).

وليس بمستغرب أن ينسى الناطقون باللغة ما بين الدالتين الحسية والمجردة من نسب، لأن « كثرة استخدام الكلمة في معنى مجازي تؤدي غالباً إلى انقراض معناها الحقيقي، وحلول هذا المعنى المجازي محله »^(١٤١). فقد ترمي بالنفاق المداهن الحب، ولا تدري أنك

(١٣٩) المجلد لابن فارس ١/١٨٧ تح زهير عبد المحسن سلطان مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٤ م.

(١٤٠) مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٤٢٦.

(١٤١) علم اللغة، د. علي عبد الواحد وفي ص ٢٩٤.

تدخله في جحر الضب . وتأويل ذلك أن « النفق سرب في الأرض ، له مخلص إلى مكان . والنافقاء موضع يرققه اليربوع من جحره ، فإذا أتى من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه ، فانتفق ، أي : خرج »^(١٤٢) . هذا هو المعنى الحسي الذي ذكرته المعاجم . وأما المعنى المجرد الذي تأخر ظهوره عن المعنى الحسي ، فهو : « نافق في الدين : ستر كفره ، وأظهر إيمانه »^(١٤٣) . ولا ريب في أن هذا المعنى المجرد أحدث عهداً ، ولكنه أشيع ذكراً ، ولذلك قيل : « ومنه اشتقاق النفاق ، لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر »^(١٤٤) .

وإذا جاز لنا أن ننظر إلى هذه المسألة بمنظار المعيار — وهو أمر يمتنع منه اللسانيون — قلنا : إنه دليل على رقي اللغة ، وعلى رقي الناطقين بها . « إن دراسة الكلمة هي دراسة للعقل الذي عبر عن مكنوناته بها . ومعرفة طرق بنائها وجوازها من معنى إلى معنى هي طريقته في التفكير . وحركتها في الدلالات تعبير عن حريته »^(١٤٥) . ونحن لا يخالطنا أدنى شك في أن اللغة العربية حينما استرسلت في هذا الشكل من أشكال التغير الدلالي كانت تمثل مرحلة من أرقى مراحل التفكير العربي المتحرر . « وثمة ربط بين أحوال المجتمع حضارياً ومدى غنى لغته بالمجردات ، فإنها تزداد ، وتنمو مع نماء ثقافته وتكامل أسباب التقدم الحضاري لها »^(١٤٦) .

(١٤٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٤٥٥/٥ .

(١٤٣) القاموس المحيط [نفق] .

(١٤٤) مقاييس اللغة ٤٥٥/٥ .

(١٤٥) المعاني الفلسفية في لسان العرب ص ٤٨ د . ميشال إسحاق مطبعة الكاتب العربي دمشق ١٩٨٤ م .

(١٤٦) الجوانب الدلالية في نقد الشعر ، د . فايز الداية ص ٢١٣ دار الملاح ١٩٧٨ م .

مسرد المصادر والمراجع

آ — العربية

- ١ — الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم مطبعة الإمام.
- ٢ — أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٦ م.
- ٣ — أساس البلاغة، جار الله الزمخشري دار صادر بيروت.
- ٤ — أسباب حدوث الحروف، ابن سينا القاهرة ١٣٥٢ هـ.
- ٥ — أسس علم اللغة، ماريوباي، ترجمة وتعليق د. أحمد مختار عمر عالم الكتب القاهرة ١٩٨٣ م.
- ٦ — الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي، تح نهبان، وطيحات، وشريف، وعبد الله طبعة مجمع دمشق ١٩٨٦ م.
- ٧ — أصل الأنواع، تشارلز داروين، ترجمة إسماعيل مظهر بيروت ١٩٧٣ م.
- ٨ — أصوات اللغة، د. عبد الرحمن أيوب القاهرة ١٩٦٨ م.
- ٩ — الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، كشة الأكلو المصرية القاهرة ١٩٧١ م.
- ١٠ — الأصول، د. تمام حسان الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ م.
- ١١ — الأضداد، أبو بكر بن الأنباري، تح محمد أبي الفضل إبراهيم الكويت ١٩٦٠ م.
- ١٢ — الإعراب عن قواعد الإعراب، ابن هشام الأنصاري، تح علي فوده نيل الرياض ١٩٨١.
- ١٣ — الاقتراح في علم أصول النحو، السيوطي، تح د. أحمد محمد قاسم القاهرة ١٣٩٦ هـ.
- ١٤ — أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، فاضل السائي مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٧ م.
- ١٥ — الألسنية العربية د. رمون طحان دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٢ م.
- ١٦ — أمالي الزجاجي، تح محمد عبد السلام هارون دار الجيل بيروت ١٩٨٧ م.
- ١٧ — إنابة الرواة، القفطي، تح محمد أبي الفضل إبراهيم دار الكتب القاهرة ١٩٥٠ م.
- ١٨ — الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، تح د. مازن المبارك بيروت دار النفائس ١٩٨٢ م.
- ١٩ — إيضاح الوقف والابتداء، ابن الأنباري، تح محيي الدين عبد الرزاق رمضان دمشق ١٩٧١ م.

- ٢٠ — البحث اللغوي عند العرب د. أحمد مختار عمر عالم الكتب ١٩٨٨ .
- ٢١ — بحوث لغوية ، د. أحمد مطلوب دار الفكر عمان ١٩٨٧ م .
- ٢٢ — البيان والتبيين ، الجاحظ ، تح عبد السلام محمد هارون دار الفكر للجميع ١٩٦٨ م .
- ٢٣ — تاريخ الحضارة الإسلامية ، بارتولد ، ترجمة حمزة طاهر دار المعارف مصر .
- ٢٤ — تاريخ علم اللغة ، جورج موناد ، ترجمة بدر الدين القاسم جامعة حلب ١٩٨١ م .
- ٢٥ — تاريخ اللغات السامية ، د. إسرائيل ولفنسول القاهرة ١٩٢٩ م .
- ٢٦ — تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه . د. صبري إبراهيم السيد دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٩ م .
- ٢٧ — تصحيح الفصح ، ابن درستويه ، تح عبد الله الجبوري بغداد ١٩٧٥ م .
- ٢٨ — التصحيف والتحريف ، أبو أحمد العسكري مطبعة القاهرة ١٩٠٨ م .
- ٢٩ — تصريف الأسماء والأفعال ، د. فخر الدين قباوة جامعة حلب ١٩٨١ م .
- ٣٠ — التضاد في ضوء اللغات السامية ، د. ربحي كمال دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٥ .
- ٣١ — التطور اللغوي التاريخي . د. إبراهيم السامرائي دار الأندلس بيروت ١٩٨٣ م .
- ٣٢ — التطور النحوي للغة العربية ، برحستراسر ، أخرجه وصححه وعق عليه د. رمضان عبد التواب القاهرة ١٩٨٢ م .
- ٣٣ — التعريفات ، أبو احسن الحرجاني ، الدار التونسية للنشر ١٩٧١ م .
- ٣٤ — تفسير مجاهد ، تح عبد الرحمن الطاهر السوري قطر ١٣٩٦ هـ .
- ٣٥ — التفكير العلمي ، د. فؤاد ركريا عالم المعرفة الكويت ١٩٧٨ م .
- ٣٦ — التفكير اللساني في الحضارة العربية ، د. عبد السلام المسدي الدار العربية لكتاب تونس ١٩٨١ م .
- ٣٧ — تهذيب اللغة ، الأزهري ، تح عبد السلام محمد هارون المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٤ م .
- ٣٨ — جامع البيان عن تأويل القرآن . ابن حرير الطبري دار الفكر ١٤٠٥ هـ .
- ٣٩ — الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي مطبعة البابي الحسي القاهرة ١٩٥٤ م .
- ٤٠ — جوهرة لغة العرب ، اس دريد حيدر آباد ١٣٤٤ هـ .
- ٤١ — الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري . د. فايز الداية دار الملاح ١٩٧٨ م .
- ٤٢ — الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة ، الأنصاري ، تح د. مازن المبارك دار الفكر المعاصر بيروت ١٤١١ هـ .
- ٤٣ — خزنة الأدب ، البغدادي طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .
- ٤٤ — الخصائص ، اس حي . نح محمد علي التجار القاهرة ١٩٥٢ — ١٩٥٦ م .
- ٤٥ — دراسات في فقه اللغة ، د. صبحي الصباح دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٣ م .
- ٤٦ — دراسات في اللغة والنحو العربي ، حسن عون معهد البحوث مصر ١٩٦٩ م .
- ٤٧ — الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ، محمد حسين آل ياسين مكتبة الحياة بيروت ١٩٨٠ م .

- ٤٨ — دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر عالم الكتب القاهرة ١٩٧٦ م.
- ٤٩ — دروس في اللغة العربية، د. يحيى كمال مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠ م.
- ٥٠ — دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م.
- ٥١ — دور الكلمة في اللغة، أولمان، ترجمة د. كمال بشر القاهرة ١٩٦٢ م.
- ٥٢ — ديوان أبي الطيب المتنبى، شرح العكبري، تح السقا والأبياري وشليبي دار المعرفة بيروت.
- ٥٣ — ديوان أبي فراس الحمداني، تح د. محمد التونجي المستشارية الثقافية الإيرانية ١٩٨٧ م.
- ٥٤ — ديوان الأعشى الكبير، تح محمد محمد حسين القاهرة ١٩٥٠ م.
- ٥٥ — ديوان امرئ القيس، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٦ م.
- ٥٦ — ديوان حوير، دار صادر بيروت.
- ٥٧ — ديوان طرفة بن العبد، دار صادر بيروت.
- ٥٨ — ديوان عمر أبي ريشة، دار العودة بيروت ١٩٨١ م.
- ٥٩ — الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب، تح أحمد حسن طاطا دار الكتب العربية دمشق ١٩٧٣ م.
- ٦٠ — الزينة، لأبي حاتم الرازي، تح حسن بن فيض الله الحمداني دار الكتاب العربي مصر ١٩٥٧ م.
- ٦١ — سر صناعة الإعراب، ابن جني، تح السقا ورملائه القاهرة ١٩٥٤ م.
- ٦٢ — سفر التكوين المطبعة الأمريكية بيروت ١٩٤٨ م.
- ٦٣ — شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، تح محمد محيي الدين عبد الحميد بيروت دار الفكر ١٩٩١ م.
- ٦٤ — شرح المفصل، ابن يعيش القاهرة.
- ٦٥ — الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس طبعة الشومي، وطبعة سيد أحمد صقر القاهرة ١٩٧٧ م.
- ٦٦ — الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، تح أحمد عبد العفور عطار دار العلم للملايين بيروت ١٣٧٦ هـ.
- ٦٧ — صحيح البخاري، تح د. مصطفى البغا دار ابن كثير ودار البمامة دمشق بيروت ١٤١٤ هـ.
- ٦٨ — صحيح مسلم، تح محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٢ هـ.
- ٦٩ — ضرائر الشعر، القزاز، تح د. محمد زغلور سلام ود. محمد مصطفى هدارة مشاة المعارف الإسكندرية ١٩٩٤ م.
- ٧٠ — ضوابط المعرفة، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني دار القلم دمشق ١٩٩٣ م.
- ٧١ — طبقات فحول الشعراء، ابن سلام، تح محمد محمود شاكر مطبعة المدني.
- ٧٢ — العربية الفصحى، هري فيش، تعريب د. عبد الصبور شاهين بيروت ١٩٨٣ م.
- ٧٣ — العربية وعلم اللغة البنيوي، د. حلمي خليل الإسكندرية ١٩٨٨ م.
- ٧٤ — عروض الشعر العربي من المعلقة إلى شعر التفعيلة، د. عازي مختار طليمات دار طلاس دمشق ١٩٩٤ م.

- ٧٥ — العلاقة بين اللغة والفكر، د. أحمد عبد الرحمن حماد دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥ م.
- ٧٦ — علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر دار العروبة الكويت ١٩٨٢ م.
- ٧٧ — علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعران دار النهضة العربية بيروت.
- ٧٨ — علم اللغة، د. علي عبد الواحد وفي دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ١٩٨٤ م.
- ٧٩ — علم اللغة الاجتماعي، د. هديسون، ترجمة د. محمود عياد عالم الكتب القاهرة ١٩٩٠ م.
- ٨٠ — علم اللغة الاجتماعي المدخل، د. كمال بشر دار عريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٥ م.
- ٨١ — علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، د. محمود فهمي حجازي الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ م.
- ٨٢ — علم اللغة العام، د. كمال بشر القاهرة ١٩٧٠ م.
- ٨٣ — علم اللغة في القرن العشرين، جورج موان، ترجمة نجيب غزاوي دمشق ١٩٨٢ م.
- ٨٤ — علم اللغة النفسي، د. عبد المجيد سيد أحمد منصور الرياض ١٤٠٢ هـ.
- ٨٥ — علم اللغة وفقه اللغة، تحديد وتوضيح د. عبد العزيز مطر قطر ١٩٨٥ م.
- ٨٦ — العمدة، لابن رشيق القيرواني، تح محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة مصر ١٩٦٣ م.
- ٨٧ — عوامل التطور اللغوي، د. أحمد حماد دار الأندلس بيروت ١٩٨٣ م.
- ٨٨ — العين، الخليل بن أحمد، تح عبد الله درويش بغداد ١٩٦٧ م.
- ٨٩ — عيون الأخبار، ابن قتيبة (مصورة عن طبعة دار الكتب) دار الكتاب العربي بيروت.
- ٩٠ — الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تح حسام الدين القدسي القاهرة ١٣٥٣ هـ.
- ٩١ — فصول في علم اللغة، فرديان دو سوسير، ترجمة د. أحمد نعيم الكراعين دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥ م.
- ٩٢ — فصول في فقه العربية، د. رمضان عبد التواب مكتبة الخاخي القاهرة ١٩٨٠ م.
- ٩٣ — فصيح ثعلب، تح محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة التوحيد القاهرة ١٩٤٩ م.
- ٩٤ — فقه اللغة، د. صبحي الصالح دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٠ م.
- ٩٥ — فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وفي دار نهضة مصر القاهرة.
- ٩٦ — فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك دار الفكر بيروت.
- ٩٧ — الفلسفة، محمد عباس نور الدين دار الفكر دمشق.
- ٩٨ — من تجويد العربية، د. مازن المبارك دمشق ١٩٨٤ م.
- ٩٩ — الفهرست، ابن النديم، تح رضا تجدد دانشكاه طهران ١٩٧١ م.
- ١٠٠ — في أصول النحو، سعيد الأفغاني المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٧ م.
- ١٠١ — في علم اللغة العام، د. عبد الصبور شاهين القاهرة ١٩٧٤ م.
- ١٠٢ — في فلسفة اللغة، د. كمال يوسف الحاج دار النهار بيروت ١٩٦٧ م.

- ١٠٣ — في اللهجات العربية، د. إبراهيم أيس مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٥ م.
- ١٠٤ — القاموس المحيط، الفيروزبادي.
- ١٠٥ — قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة زكي نجيب محمود جامعة الدول العربية ودار الجيل بيروت ١٩٧١ م.
- ١٠٦ — الكتاب، سيبويه، طبعة بولاق ١٣١٦ هـ.
- ١٠٧ — اللباب في علل البناء والإعراب، العكبري، تح د. غازي مختار طيمات، د. عبد الإله نبهان دار الفكر دمشق ١٩٩٥ م.
- ١٠٨ — لسان العرب، ابن منظور دار صادر بيروت.
- ١٠٩ — اللسان والإنسان، د. حس ظاظا دار المعارف القاهرة ١٩٧١ م.
- ١١٠ — اللسانيات وأسسها المعرفية، د. عبد السلام المسدي الدار التونسية للنشر ١٩٨٦ م.
- ١١١ — اللسانيات واللغة العربية، د. عبد القادر الفاسي الفهري دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٥ م.
- ١١٢ — اللغات السامية، تيودور نولدكه، ترجمة د. رمضان عبد التواب القاهرة ١٩٦٣ م.
- ١١٣ — اللغة، فندريس، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ود. محمد القصاص القاهرة ١٩٥٠ م.
- ١١٤ — اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان القاهرة ١٩٥٨ م.
- ١١٥ — اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ م.
- ١١٦ — اللغة والتطور، عبد الرحمن أيوب معهد السحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٦٩ م.
- ١١٧ — اللغة والمجتمع، ثريا عبد الله دار المعارف.
- ١١٨ — اللغة والمجتمع، د. أحمد ماهر البقري الإسكندرية ١٩٨٤ م.
- ١١٩ — اللغة والمجتمع، د. علي عبد الواحد وافي دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٤٦ م.
- ١٢٠ — مباحث في علم المعالي، محمد طاهر الحمصي جامعة البعث حمص ١٩٩٢ م.
- ١٢١ — المباحث المرضية، ابن هشام الأنصاري، تح د. مازن المبارك دار ابن كثير دمشق ١٩٨٧ م.
- ١٢٢ — مبادئ علم الأصوات العام، ديفيد ابركروسي، ترجمة وتعلق د. محمد فتوح القاهرة ١٩٨٨ م.
- ١٢٣ — مبادئ علم اللسانيات الحديث، د. سامي عياد حنا ود. شرف الدين الراجحي دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٩١ م.
- ١٢٤ — مبادئ اللسانيات، أحمد محمد قدور دار الفكر دمشق وبيروت ١٩٩٦ م.
- ١٢٥ — مبادئ اللسانيات العامة، أندريه مارتينييه، ترجمة أحمد الخمو وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٨٥ م.
- ١٢٦ — مجالس العلماء، الزجاجي، تح عبد السلام محمد هارون الكويت ١٩٦٢ م.
- ١٢٧ — مجلة الفكر العربي، طرابلس عام ١٩٧٩ م.
- ١٢٨ — مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمشق.
- ١٢٩ — مجلة المجمع العلمي بدمشق المجلد ٣٣.
- ١٣٠ — مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد ٢٥.

- ١٣١ — مجمل اللغة ، ابن فارس ، تح زهير عبد المحسن سلطان مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٤ م .
- ١٣٢ — محاضرات في الألسنية العامة ، دو سوسير ، ترجمة يوسف غازي ، ومجيد النصر دار نعمان للثقافة لبنان ١٩٨٤ م .
- ١٣٣ — المحصول في علم أصول الفقه ، الفخر الرازي ، تح د . طه حابر فياض العلواني الرياض ١٣٩٩ هـ .
- ١٣٤ — المحكم في نقط المصحف ، أبو عمرو الداني ، تح د . عزة حسن دمشق ١٩٦٠ م .
- ١٣٥ — مختار الصحاح ، الرازي مكتبة لبنان ١٩٨٨ م .
- ١٣٦ — المدارس النحوية ، د . شوقي ضيف دار المعارف مصر ١٩٧٢ م .
- ١٣٧ — مدخل إلى الألسنية ، يوسف غازي منشورات العالم العربي الجامعية دمشق ١٩٨٥ م .
- ١٣٨ — مدخل إلى الألسنية ، بول فابر كريستيان بايلون ، ترجمة طلال وهبة بيروت ١٩٩٢ م .
- ١٣٩ — مدخل إلى علم اللغة ، د . محمود فهمي حجازي دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة ١٤٠٩ هـ .
- ١٤٠ — مدخل إلى علم اللغة ، د . محمد حسن عبد العزيز دار الكتب القاهرة ١٩٨٣ م .
- ١٤١ — المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، د . رمضان عبد التواب مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٥ م .
- ١٤٢ — مدخل إلى اللسانيات ، رونالد إيليوار ، ترجمة بدر الدين القاسم وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٨٠ م .
- ١٤٣ — مدرسة الكوفة ، د . مهدي الخزومي القاهرة ١٩٥٨ م .
- ١٤٤ — مراتب النحويين ، أبو الطيب اللغوي ، تح محمد أبي الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٥٥ م .
- ١٤٥ — المرتجل ، ابن الخشاب ، تح علي حيدر دمشق ١٩٧٢ م .
- ١٤٦ — مروج الذهب ومعادن الجوهر . المسعودي دار الأندلس بيروت .
- ١٤٧ — الزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، تح محمد أبي الفضل إبراهيم وزملائه القاهرة ١٩٥٨ م .
- ١٤٨ — المسار الجديد في علم اللغة العام ، د . وليد محمد مراد دمشق ١٩٨٦ م .
- ١٤٩ — مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية ، د . هاشم الطعان العراق ١٩٧٨ م .
- ١٥٠ — المستشرقون ، نجيب العقيلي دار المعارف مصر ١٩٨٠ م .
- ١٥١ — معالم اللهجات العربية ، د . عبد الحميد محمد أبو سكين القاهرة ١٩٧٨ م .
- ١٥٢ — المعاني الفلسفية في لسان العرب . د . ميشال إسحاق مطبعة الكاتب العربي دمشق ١٩٨٤ م .
- ١٥٣ — معجم الأدباء ، ياقوت الحموي مطبعة الباي الحلبي القاهرة ١٩٣٦ م .
- ١٥٤ — معجم علم اللغة النظري ، محمد عي الخولي مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٢ م .
- ١٥٥ — المعجم الفلسفي . د . جميل صليبا دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٨ م .
- ١٥٦ — معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس ، تح عبد السلام محمد هارون القاهرة ١٣٨٩ هـ .
- ١٥٧ — المعرب ، أبو منصور الجواليقي ، تح د . ف عبد الرحيم دار القلم دمشق ١٩٩٠ م .

- ١٥٨ — مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، تح د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ومراجعة سعيد الأفغاني بيروت ١٩٧٩ م.
- ١٥٩ — المفضليات، المفضل الضبي، تح أحمد شاكر وعبد السلام محمد هارون دار المعارف مصر ١٩٦٣ م.
- ١٦٠ — المقتضب، المبرد، تح محمد عبد الخالق عضيمة القاهرة ١٩٦٣ م.
- ١٦١ — مقدمة ابن خلدون القاهرة ١٩٣٠ م.
- ١٦٢ — مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، ر. بيلز، هـ. هويجر، ترجمة محمد الجوهري ود. السيد محمد الحسيني دار نهضة مصر ١٩٦٧ م.
- ١٦٣ — مقدمة لدرس لغة العرب، عبد الله العلايلي المطبعة العصرية مصر.
- ١٦٤ — الممتع، ابن عصفور، تح د. فخر الدين قباوة دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٩ م.
- ١٦٥ — مناهج الأصوليين في طرق ودلالات الألفاظ على الأحكام، د. خيفة نابكر الحسن مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨٩ م.
- ١٦٦ — مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان القاهرة دار الكتب ١٩٥٥ م.
- ١٦٧ — المنصف، ابن جني، تح إبراهيم مصطفى مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٠ م.
- ١٦٨ — المنطق الصوري تاريخه ومسائله ونقده، د. رفقي راھر دار المطبوعات لدولية مصر ١٤٠٠ هـ.
- ١٦٩ — مناهج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تح محمد الحبيب بن الخوجة تونس ١٩٦٦ م.
- ١٧٠ — منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، د. عي روبن وزارة الثقافة العراقية بغداد ١٩٨٦ م.
- ١٧١ — المورد، منير البعبكي دار العلم لملايين بيروت ١٩٨٩ م.
- ١٧٢ — الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الرياض ١٩٧٢ م.
- ١٧٣ — النحو العربي والدرس الحديث، د. عبده الراجحي دار النهضة بيروت ١٩٧٩ م.
- ١٧٤ — نظرية تشومسكي اللغوية، حون ليونز، ترجمة حمي خحيل دار المعرفة اجمعية الإسكندرية ١٩٨٥ م.
- ١٧٥ — نظرية لغوية في الترجمة، ح. س. كاتفورد، ترجمة خليفة العزاي ومحيي الدين حميدي معهد الإنماء العربي بيروت ١٩٩١ م.
- ١٧٦ — نكتة الإعراب، ابن هشام الأنصاري، تح د. غازي مختار طليمات دار طلاس دمشق ١٩٩٦ م.
- ١٧٧ — نهاية السؤل في شرح مناهج الأصول، عبد الرحيم بن الحسين الأسنوي طبعة صبيح.
- ١٧٨ — النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، تح الزاوي ولصاحي القاهرة ١٩٦٣ م.
- ١٧٩ — نهج الإسلام (مجلة تصدر في دمشق) العدد ١٣ حزيران ١٩٨٣ م.
- ١٨٠ — الوجيز في قصة اللغة، محمد الأنطاكي دار الشروق بيروت ١٩٦٩ م.
- ١٨١ — الوجيز في قصة الحضارة، أوجره د. غازي مختار طليمات دار طلاس دمشق ١٩٩٢ م.
- ١٨٢ — وفيات الأعيان، ابن حلكان، تح د. إحسان عباس بيروت ١٩٦٨ م.

ب — الإنكليزية

- 183 - A Comprehensive English Grammar C. E. Eckersley and J. M. Eckersley Oxford Press 1980.
- 184 - A Reference Guide to English Alice Maclin USIA Edition First Published 1994.
- 185 - Britannica Chicago.
- 186 - Encyclopedia Americana Copyright 1991.
- 187 - Funk and Wagnalls Encyclopedia.
- 188 - Grolier International Encyclopedia U. S. A. 1994.
- 189 - Language Leonard Bloomfield First Published in Great Britain 1935.
- 190 - Lectures on the Comparative Grammar of the Semetic Languages W. Wright Cambridge 1890.
- 191 - Merk Manual Harison Edition 11.
- 192 - New Standard Encyclopedia.
- 193 - Practical English Grammar A. J. Thomson and A. V. Martinet Oxford University Press.
- 194 - Psycholinguistics James Deese Fourth Printing 1971.
- 195 - The Guide to English Grammar Dar Al Hilal Beirut 1986.

الفهرس

٧.....	• بين يدي الكتاب.....
١١.....	• الباب الأول — علم اللغة بين العلوم.....
١٣.....	الفصل الأول — تعريف علم اللغة.....
١٣.....	أولاً — تمهيد.....
١٣.....	ثانياً — معنى فقه اللغة.....
١٤.....	ثالثاً — موضوعات فقه اللغة.....
١٥.....	رابعاً — علم اللغة : معناه وسماته وأبعاده.....
٢١.....	الفصل الثاني — علم اللغة والعلوم الأخرى.....
٢١.....	أولاً — علم اللغة وعلم الاجتماع.....
٢٨.....	ثانياً — علم اللغة وعلم النفس.....
٣٢.....	ثالثاً — علم اللغة وعلم الطبيعة.....
٣٥.....	رابعاً — علم اللغة وعلم وظائف الأعضاء.....
٣٩.....	خامساً — علم اللغة والتاريخ.....
٤٠.....	سادساً — علم اللغة والجغرافية.....
٤١.....	سابعاً — علم اللغة وبقية العلوم.....
٤٣.....	• الباب الثاني — نشوء اللغات وتوزعها.....
٤٥.....	الفصل الأول — نشأة اللغة.....
٤٥.....	أولاً — قدم البحث في نشأة اللغة.....

٤٦	ثانياً — الآراء والنظريات :
٤٦	آ — نظرية التوقيف أو الأصل الإلهي للغة.....
٤٧	ب — نظرية محاكاة أصوات الطبيعة.....
٤٩	ج — نظرية الوضع والاصطلاح.....
٥٠	د — نظرية التنفيس الانفعالي.....
٥١	هـ — نظرية الملاحظة والمحاكاة العملية.....
٥٢	و — نظرية الاستعداد الفطري.....
٥٣	ز — نظرية التطور اللغوي.....
٥٧	الفصل الثاني — توزع اللغات وفصائلها.....
٥٧	أولاً — ابن جني يعلل تعدد اللغات.....
٥٨	ثانياً — أسباب التعدد عند الباحثين المحدثين.....
٥٩	ثالثاً — اللغات بين التعدد والتوحد.....
٦٠	رابعاً — الفصائل اللغوية.....
٦٠	آ (نظرية مولر :
٦٠	١ — فصيلة الألسن الهندية الأوروبية.....
٦١	٢ — فصيلة الألسن السامية.....
٦٢	٣ — فصيلة الألسن الطورانية.....
٦٣	ب (نظرية شليغل :
٦٣	١ — اللغات المتصرفة أو التحليلية.....
٦٣	٢ — اللغات اللصقية أو الوصلية.....
٦٣	٣ — اللغات العازلة.....
٦٥	الفصل الثالث — اللغات السامية.....
٦٥	أولاً — تصنيف اللغات السامية وأشهر دارسيها.....
٦٦	ثانياً — أقدم اللغات السامية.....
٧٠	ثالثاً — شجرة اللغات السامية.....
٧١	رابعاً — أبرز اللغات السامية :
٧١	آ (اللغة الأكادية.....
٧٢	ب (اللغة الكنعانية وما تفرع منها.....
٧٤	ج (اللغة العبرية.....

٧٦.....	د) اللغة الآرامية.....
٧٨.....	هـ) اللغات اليمنية القديمة.....
٨١.....	و) اللغات الحبشية السامية.....
٨٣.....	ز) اللغة العربية :.....
٨٤.....	١ — اللهجة اللحيانية.....
٨٤.....	٢ — اللهجة الصفوية.....
٨٥.....	٣ — اللهجة الشمودية.....
٨٧.....	خامساً — العربية الباقية أو لهجة قریش.....
٩١.....	• الباب الثالث — مناهج الدراسة في علم اللغة.....
٩٣.....	الفصل الأول — مناهج الدراسة في العصور القديمة.....
٩٣.....	أولاً — تمهيد.....
٩٤.....	ثانياً — منهج اليونان وتأثيره في الدراسات اللغوية العربية.....
٩٦.....	ثالثاً — المنهج العربي الوصفي في دراسة اللغة :.....
٩٨.....	١ — تحديد الزمان.....
٩٩.....	٢ — تحديد المكان.....
٩٩.....	٣ — تحديد المستوى.....
١٠٠.....	رابعاً — مقارنة المنهج العربي الوصفي بالمنهج اليوناني.....
١٠٢.....	خامساً — المنهج العربي المعياري في دراسة اللغة.....
١٠٥.....	سادساً — مقارنة المنهج المعياري بالمنهج الوصفي.....
١٠٧.....	الفصل الثاني — المناهج الحديثة في دراسة اللغة.....
١٠٧.....	أولاً — تمهيد.....
١٠٧.....	ثانياً — المنهج الوصفي :.....
١٠٨.....	آ) ظهور المنهج الوصفي وأسس.....
١٠٩.....	ب) تطور المنهج الوصفي وأشهر أعلامه ومدارسه.....
١١٠.....	١ — المدرسة البنيوية.....
١١٢.....	٢ — مدرسة النحو التوليدي التحويلي.....
١١٦.....	٣ — مدرسة القوالب.....
١١٨.....	ثالثاً — المنهج التاريخي.....

رابعاً — المنهج المقارن ١٢٠

• الباب الرابع — الدراسات الصوتية ١٢٥

الفصل الأول — الدراسات الصوتية القديمة ١٢٧

أولاً — الدراسة الصوتية عند الهنود واليونان والرومان ١٢٨

ثانياً — الدراسة الصوتية عند العرب : ١٣٠

١ — صلتها بقراءة القرآن ١٣٠

٢ — أعضاء النطق ١٣١

٣ — مخارج الأصوات ١٣٢

٤ — صفات الأصوات ١٣٢

٥ — أصوات العربية بين الثبات والتبدل اللهجي ١٣٤

٦ — المقاطع الصوتية في عروض الخليل ١٣٥

الفصل الثاني — الدراسات الصوتية الحديثة

علم الأصوات العام ١٣٧

تمهيد ١٣٧

أولاً — أعضاء النطق ١٣٨

ثانياً — مخارج الأصوات : ١٤٠

١ — الأصوات الجوفية ١٤٠

٢ — الأصوات الحلقية ١٤٠

٣ — الصوتان اللهويان ١٤١

٤ — الأصوات الشجرية (الغارية) ١٤١

٥ — الأصوات الذلقية ١٤٢

٦ — الأصوات النطعية ١٤٣

٧ — الأصوات الأسلية ١٤٣

٨ — الأصوات اللثوية ١٤٤

٩ — الأصوات الشفهية ١٤٥

١٠ — الأصوات الشفهية الأسنانية ١٤٥

١١ — صوت الضاد ١٤٦

الفصل الثالث — علم الأصوات الخاص ١٤٩

١٤٩.....	تمهيد
١٥٠.....	أولاً — الفونيم
١٥٢.....	ثانياً — المقطع
١٥٣.....	ثالثاً — النبر
١٥٤.....	رابعاً — التنعيم
١٥٦.....	خامساً — النسخ اللغوية وأنظمة التشكيل الصوتي
١٥٦.....	أ — أكثر الأصوات وأقلها
١٥٨.....	ب — الأصوات المتأخية والمتعادية في النسيج المقطعي
١٥٩.....	ج — أنظمة النسخ وفق المخارج
١٦٠.....	خاتمة البحث الصوتي
١٦١.....	• الباب الخامس — الجانب الصرفي
١٦٣.....	أولاً — مقدمة ومصطلحات
١٦٥.....	ثانياً — استقلال الصرف عن النحو عند العرب
١٦٦.....	ثالثاً — مباحث الصرف :
١٦٦.....	١ — التحليل الصرفي ووحداته
١٦٨.....	٢ — الصيغ الصرفية
١٧١.....	٣ — تقسيم الكلام قديماً وحديثاً
١٧٤.....	٤ — المعاني الصرفية :
١٧٥.....	أ — العدد
١٧٧.....	ب — الشخص
١٧٨.....	ج — الجنس
١٨١.....	د — التعيين
١٨٣.....	• الباب السادس — الجانب النحوي
١٨٥.....	أولاً — تمهيد
١٨٦.....	ثانياً — دراسة الجمل
١٩٠.....	ثالثاً — طرائق اللسانيات في تحليل المركبات الإسنادية :
١٩١.....	١ — الاتجاه الوظيفي

١٩٢.....	٢ — الاتجاه التوزيعي
١٩٣.....	٣ — الاتجاه التحويلي التوليدي
١٩٥.....	رابعاً — معنى الزمن بين الصرف والنحو
٢٠١.....	• الباب السابع — الجانب الدلالي
٢٠٣.....	أولاً — تمهيد
٢٠٤.....	ثانياً — مكانة الدرس الدلالي في تراثنا اللغوي
٢٠٦.....	ثالثاً — تاريخ علم الدلالة الحديث
٢٠٧.....	رابعاً — مباحث علم الدلالة الحديث :
٢٠٨.....	١ — دلالة اللفظ على معناه
٢١١.....	٢ — الدلالة بين الاشتقاق والسياق
٢١٤.....	٣ — الألفاظ والدلالات بين التوحد والتعدد والتضاد :
٢١٥.....	آ — الاشتراك
٢١٨.....	ب — التضاد
٢٢٠.....	ج — الترادف
٢٢٥.....	٤ — تغير الدلالات
٢٢٧.....	آ — عوامل التغير الدلالي :
٢٢٧.....	١ — العوامل اللغوية
٢٢٩.....	٢ — العوامل الاجتماعية
٢٣١.....	ب — صور التغير الدلالي :
٢٣٢.....	١ — تعميم الدلالة الخاصة
٢٣٣.....	٢ — تخصيص الدلالة العامة
٢٣٤.....	٣ — انتقال الدلالة بالمجاورة والسبب
٢٣٥.....	٤ — الانتقال بالاستعارة والمشابهة
٢٣٦.....	٥ — الانتقال من إطار الحس إلى إطار التجريد
٢٣٩.....	• مسرد المصادر والمراجع

في علم اللغة/غازي مختار طليمات. — دمشق: دار طلاس، ١٩٩٧. —
٢٥٢ ص؛ ٢٤ سم.

١ — ٤٠١ ط ل ي ف ٢ — العنوان ٣ — طليمات
مكتبة الأسد

رقم الإيداع ١٩٩٧/٧/١١١٨ رقم الإصدار ٧٥٢

رقم: ٤٠٥٠٥
تاريخ: ١٩٩٧/٨/٣
